هذا العدد:

أفـق الشــــرق

■ د.علي عقلة عرسان ■

من يمعن النظر في اهتماماتنا الثقافية العربية وشواغلنا يجد أن جل اهتمامنا ينصرف إلى الغرب منذ عقود بل منذ قرون من الزمن، فنحن نعيش تبعية له أو نقاوم تلك التبعية، وننظر إليه بانبهار وإعجاب واستغراب، أو نتحصن من تأثير ذلك فيما تبقى حياً فينا من مقومات شخصيتنا الثقافية وتطلعاتنا القومية وقيمنا الإسلامية؛ ولا أدري لماذا ننظر دائماً إلى حيث تغرب الشمس وننسى مواطن شروقها وما يشمله ذلك الشروق وما يعنيه وما يوحي به، ولماذا نعطي ظهورنا للشرق الذي ننتسب إليه ونفاخر بقيمه وقدمه وعراقته وغناه الحضاري والروحي!!

وعندما يصبح العالم، بفضل التقدم الهائل لوسائل الاتصال الحديثة في عصر تطور العلم والمعلوماتية، عندما يصبح العالم طبقاً حياً متسعاً تكاد تدركه البصائر وتراه الأبصار، يواجهنا، أكثر من أي وقت مضى، السؤال الدفين أو نواجه أنفسنا به: ماذا عن الشرق، ولماذا لا يشد اهتمامنا بالقدر اللائق والكافي ونحن منه وفيه؟! لماذا لا يسترعي انتباهنا ما فيه من تنوُّع ثقافي وتجارب طويلة وغنية ومفيدة، وما تعرَّض له من مآس وتصدى له من تحديات وواجهه من محن وامتحانات ؟ لماذا لا يكون تحت الأضواء، ثقافياً واجتماعياً وسياسياً، لأبنائه الباحثين عن مخارج لما يعانون من مشكلات وأزمات فيه،الذين ينتمون إليه ويعيشون تحت سمائه ويكتوون بنار معاناته ؟ هل هو الجهل أم اليأس أم الطمع أم الخوف، أم قاعدة ابن خلدون :

المغلوب يقلد الغالب ؟! وإذا كان ذلك كذلك فلماذا تكتفي الضحية بأن تنظر بعيون دامعة إلى الجلاد وسوطه وسكينه، ولا ترفع عينيها عنه وعن أدوات التعذيب التي يشهرها ؟! هل هو الطمع في الرحمة والعفو، أم تراه الخوف الذي يقطع الأنفاس ويشل التفكير !؟ وهل صحيح أن الشرق لن يقدم ما يفيد وما ينقذ وما يُشْرِع أبواب الأمل أمام من يفتشون عن الأمل والإنقاذ ؟ وهل لا يجمعنا بالشرق ومن فيه إلا الهم والغم حتى الآن، تصديقاً لقول أمير الشعراء: كلنا في الهم شرق ؟!

لا أشك مطلقاً في أن الغرب خطف الأضواء والألباب قرون عدّة، ولا أنسى أنه حكم البلاد والعباد في الشرق من اليابان إلى شرقي المتوسط وما زال له الكثير من النفوذ فيه وفي سواه من بقاع هذا العالم؛ ولا يغيب عن ذاكرتي أن الغرب شكل وما زال يشكل، منذ ثلاثة قرون على الأقل، القوة العلمية والتقنية والعسكرية والإعلامية المرعبة، وأنه يتوارث إمبراطورياته، التي تكاد تغطي العالم، حرباً بعد حرب وتحولاً في القدرة والقوة والهيمنة بعد تحوُل، ولكن في الشرق ما يستحق الاهتمام والدراسة، علمياً وتقنياً وسياسياً واجتماعياً، وفيه أيضاً ما يستدعي التأمل واستخلاص العبر، وفيه تاريخ يمكن أن يُقرأ ويستقرأ بعقول مفتوحة، فلماذا نبقى يا ترى رهن محبسي الشعوب الفقيرة: الاستعمار والجهل ؟! من المؤكد أن ذلك ليس قدراً وإنما هو غياب للقدرة من كل نوع.

في الشرق الكثافة البشرية المذهلة التي تحل مشاكلها الكبيرة وتنظم حياتها إلى حد مقبول، فتجربة الصين الشعبية ممتلئة بالدروس والعبر، وهي دولة متقدمة في مجالات تقنية كثيرة، وتعالج مشكلات سدس سكان الكرة الأرضية تقريباً. وفي الشرق اليابان : المنتصرة رغم الهزيمة والمتفوقة رغم الضغوط والمزاحمة، وفيه النمور الأربعة، والتجربة الكورية، والملحمة الفيتنامية؛ فيه الهند ذات التجارب الفريدة والتنوع والكثافة السكانية، وباكستان وإندونيسيا وماليزيا بتجاربها الخاصة وبما تحققه كل منها من تقدم في بعض المجالات وما تملكه من قدرات وخصوصيات، وفيه فيتنام والكوريتان وكمبوديا والفيلبين بنضالها وفيه تركيا و بلدان آسيا الوسطى والوطن العربي، وفيه البترول والممرات المائية الحيوية، وفيه.. وفيه.. وفيه.. !! فلماذا ندير ظهورنا إليه حتى معرفياً ؟ ولماذا نتجاهل ما فيه رغم حاجتنا للمعرفة وللمادة ورغم كمون إمكانات كبيرة فينا وفيه، قد تغنينا وتغنيه، أو قد تخفف عنا وعنه ما نعانيه جميعاً من مَلِكِ الظلم ومالك القهر وسيد الرعب والاستلاب والحصار والعدوان والتهديد: غرب الاستعمار والاستغلال والحروب الكونية والمادية الطاغية على كل ما

سواها، والفوقية المقيتة ؟!

وإذا رغبنا عن صلات ببعض بلدان الشرق قد لا تغني ولا تنقذ ولا تفيد، فما الذي يجعلنا راغبين عن معرفة إخواننا في العقيدة وتوائمنا في الثقافة والحضارة من مسلمي الشرق ؟! لماذا لا نكاد نعرف شيئاً عن بعضنا بعضاً، مع أن واجبنا والاستهداف المشترك المركز علينا يقتضيان شيئاً من التواصل والمعرفة والتنسيق والتعاون لحماية ما تمكن حمايته من المشترك المهدد والمستهدَف، بشرياً وجغرافياً وثقافياً وروحياً وعَقدِياً واقتصادياً، في آن معاً من قبل الغرب الاستعماري ؟ ! هل يمنعنا من ذلك استعداد نفسي واجتماعي وروحي لتقبل الظلم والاضطهاد والعذاب والسكوت على ذلك والاستسلام له، وتاريخنا وعقيدتنا يحثان على نبذ ذلك والتعلق بكل ما سواه ؟! أم هي القابلية للاستعمار التي سبق وعبر عنها المرحوم مالك بن نبي، وقد نمت وتطورت وتعمقت ؟! أم ترانا نخاف من أن يضبطنا الوصاة الغربيون متلبّسين بالاتصال بأخوتنا في العالم الإسلامي وفي الشرق الفسيح، فتذهب بهم الظنون كل مذهب، ويصلون إلى الحد الذي يستبيحون معه أوطاننا ودماءنا وأرزاقنا وبلداننا من جديد ؟! وهل تراهم لا يفعلون ذلك الآن بأشكال متعدّدة وبصور مخزية!؟ وما دام الموت واحداً مهما تعددت الأسباب، والقهر يطحننا بسبب الاستعمار من كل باب، فلم الخوف ومن أي شيء لا نعيشه ولا نراه، وانتظاراً لأي تغيير في نفوس طغاة جشعين لا يتغيرون إلا بتغير الآخر من ضحية إلى ندّ، ومن مستسلم إلى مقاوم، ومن ذليل خانع بجهله الله وحدوده وفروضه وفيوضه إلى كريم خاشع معرفة لله وقوة بالله وفضلاً من الله.

أياً كانت الأسباب والعوائق والمخاوف التي حالت دون تواصلنا البنّاء وتفاعلنا الخلاّق مع الشرق، فإنني أرى أننا تأخرنا كثيراً في الالتفات بجدية واحترام إلى شعوب الشرق وثقافاته، وأنه آن لنا أن نعيد استكشافه؛ لأغراض معرفية خالصة من جهة، ولصلات وانتماء وأهداف يجب ألا يقطعها الخوف أو الخبل أو الاستغراق في حضن التبعية، أو استمتاع بمازوشية تتملك بعض العرب حيال الغرب، من جهة أخرى.

ولا أريد أن يفهم من دعوتي هذه، على الإطلاق، أنها دعوة ضد الغرب أو لإحداث قطيعة معه، ولا أنها دعوة للانغلاق على الذات، فذلك أبعد ما يكون عن بغيتي وعن توجهي وتفكيري، فأنا من القائلين بالمثاقفة في شروطها الصحية ودائرتها

الواسعة وعلى أسسها المكينة القائمة على الحرية والوعي والثقة بالذات، إن دعوتي تتجه حقيقة إلى نشدان عمق المعرفة وغناها وشمولها، وإلى الرغبة في الخلاص من كل أشكال التبعية للغرب وأنواعها، تلك التي تستمر وتتضخّم عندنا بأشكال مختلفة، وتحجب عنا رؤية الآخر ورؤيتنا الموضوعية للآخر وحتى رؤية الآخر لنا، كما تشوه الرؤية الشمولية وتلك التي عبّرت عنها بالدائرية، إن صح تعبيري؛ إنها دعوة لاكتشاف الآخر القريب، ومن تجمعنا بهم، أكثر من سواهم، وحدة الثقافة والعقيدة والمعاناة والمصير، هي دعوة لاكتشاف الشرق الذي لا يكل الغرب عن تجديد اكتشافه والتعمق في ذلك الاكتشاف، ليوظف المعرفة العميقة في خدمة مصالحه الحيوية ومشاريعه الاقتصادية والاستعمارية. فهل يحرّم علينا أو نحرم على أنفسنا المعرفة ومحاولة استخدامها بحصافة ووعي للدفاع عن الذات ولتعميق المعرفة بالذات؟! وهل يحرّم علينا أو نحرم على أنفسنا اكتشاف الذات من خلال اكتشاف الآخر الذي تتعمق باكتشافه معرفتنا لذواتنا، وتتجلي بذلك بعض ملامح مستقبلنا باتساع رؤيتنا ونضجها وشمولها ؟! إن السؤال مطروح على الذات العربية أولاً وعلى الآخر الشريك في شرط الشرق ومستقبله ومصيره ثانياً، وعلى جميع الشركاء في الشرط الإنساني والمصير الإنساني على أرض البشر ثالثاً وأخيراً.

وما هذا العدد من مجلة الآداب الأجنبية الذي نقدمه عن الأدب المعاصر في الهند سوى ورقة ريحان من بستان ثقافة عريقة كان لنا معها صلات تاريخية طويلة وتفاعل وتواصل خلاقان، ومن أبنائها من يشاطروننا قيمنا ومقومات ثقافتنا وعقيدتنا الكثير، وأجد أن لنا عليهم ولهم علينا أن نتواصل ونتبادل طاقات الورد المقتطفة من بساتين الإبداع.

ليس هذا هو العدد الأول الذي تقدمه مجلتنا عن الأدب المعاصر في الهند، وليس هذا هو باب الاهتمام الوحيد لاتحادنا بهذه الثقافة العريقة، فبعد اتفاقنا الثقافي مع أكاديمية ساهيتيا شرعنا بترجمة مختارات شعرية وقصصية سوف تصدر ضمن منشورات الاتحاد قريباً، ونسعى لعمل مشترك يساهم في كسر الجمود وإزالة الحواجز، وعلينا أن نتابع بهمة ونشاط لستعادة صلات خلاقة مع ثقافة وحضارة كان لنا معهما تاريخ عريق من التواصل البناء.

□□□

لاعبا الشطرنج

برمتشاند(*)

■ ترجمة : عبد الإله الملاّح■

كان ذلك في عهد واجد علي شاه(1)، وكانت لكناو يومذاك غارقة في حياة من الترف واللهو. ولا تحسبن أن تلك الحياة كانت تقتصر على أرباب الحكم والسلطان وأصحاب الأملاك الأثرياء وحدهم، بل الحق أن جميع أهل البلاد، **فقيرهم وغنيهم، كانوا منغمسين فيها.** كنت تجد أحدهم متى صحا من نومه متأخراً في ظهيرة اليوم أو العصر ليستقبل المساء بتدبير أمور الليل، فيسعى إلى سهرة راقصة يأنس بها مع أصحابه وخلانه، أو وجدت آخر يستسلم للذة تعاطي الأفيون. كانت المتعة هي السائدة في كل مكان، والبذخ متفشياً بين موظفي الدولة والأدباء وأفراد المجتمع على اختلاف طبقاتهم، فرأيت ذلك يتجلى في ما يعرض من فنون وصناعات وألوان طعام. وكنت ترى، بعد، أصحاب المناصب والمراتب مستغرقين في كل متعة تزيد من شهواتهم.

وإذا طالعت قصائد الشعراء وجدتهم منشغلين بوصف العشق والغرام وآلام الفراق، وتطالعك آيات الفن تخرج من بين أيدي الصناع مترفة بخيوط الذهب والفضة. وإذا خرجت للتسكع صادفت عندئذ التجار يعرضون أصناف الكحل والعطور والمساحيق الملونة لمعالجة الأسنان. كانت العيون تخبو ثملى بأثر الحشيش والأفيون، هكذا كان الحال في لكناو يومئذ، ولا ترى مع ذلك أحداً يحفل بما يجري في العالم حوله. كانت هناك أشكال مختلفة، غريبة من المصارعة، مثل مصارعة

طيور السماني. وهم لا ينقطعون عن ابتكار كل جديد من الألعاب، فكنت تجد قطع القماش تنشر للعبة الكاوسر(2)، واللاعبون مستنفرون والمشاهدون متحلقون، وأصوات تتعالى بين منشرح لحظ حسن أصابه أو ساخط من رمية لم تصادف توفيقاً. ولم تكن لتعدم في غير تلك الأمكنة معارك طاحنة تدور على رقعة الشطرنج.

كان اللعب شاغل القوم كلهم، الملك والشحاذ سواء بسواء، حتى أنك كنت تجد الفقير منهم ينفق ما يجود به الناس عليه، لا في شراء الخبز ليرد الجوع عن نفسه، وإنما ينفقه في شراء الأفيون أو المدق(3)، وكان من الناس من يقبلون على لعب الورق أو الكنجفة(4)، يدرب بها ملكة الفكر وينمي العقل ليعينه في حل المسائل العويصة . ذلك ما كنت تسمعهم يقولونه في تعليل شدة إقبالهم على اللعب (ولن تعدم أناساً في يومنا هذا يحملون مثل هذه القناعة!) فأي منصف إذن يملك أن يعترض، إن وجد ميرزا سجاد علي ومير روشان علي يقضيان الوقت في قدح زناد الفكر وإعمال العقل؟ فهاك رجلان من ذوي النسب العريق ورثا عن أبويهما وأجدادهما الثروات الطائلة والأملاك الواسعة ما يغنيهما عن العمل لكسب العيش، وإذن فليس يضيرهما أن يخلدا إلى قصر هذا أو ذاك ليستمتعا بلذة الكسل. وبعد فماذا بوسعهما أن يفعلا سوى إشغال النفس بمثل هذا النشاط. كان دأب هذين النبيلين، إذا استيقظا باكراً وتناولا طعام الفطور أن يجلسا إلى رقعة الشطرنج، ثم يعمدا إلى ترتيب الأحجار ليبدأ سجالاً حامي الوطيس كأنه الحرب بعينها، وإذا شرعا باللعب استغرقا فيه حتى لم يعد أحدهما يدري متى حل الظهر أو مضى المساء. وكانا إذا سمعا الطاهي يناديهما للطعام، جاءه الجواب "هيئ المائدة فنحن قادمان". وكم من مرة اضطر هذا الطاهي إلى حمل المائدة إليهما في الغرفة، والرجلان منشغلان عن الجوع باللعب، أو بالجمع بين اللعب وتناول الطعام.

ولما كان ميرزا سجاد على الأكبر بين الأهل فقد حق له أن يحتل صدر القاعة في بيته ليشغلها مع صاحبه في اللعب. إلا أن ذلك لا يعني أن أهل بيته كانوا سعداء بما يجري. بل الحق أن ذلك لطالما حمل الأمر على الاستنكار، بل الاستهجان من الجوار وحتى الخدم: "هذا حرام! إن هذا اللعب آت لا محالة بخراب هذا البيت! نسأل الله أن يمنع هذا الإثم عن الآخرين. إن من يأتي هذا الحرام ساء سبيله، ولن يرضي الله ولا الناس!" بل وما كانت زوجته "البيجوم صاحبة" تدع مناسبة دون أن تقرعه على هذا الهوى الذي يشغله من الصباح الباكر حتى آخر الليل، حتى تكاد لا تصادفه في يومها. وكان الخدم يتحملون ثوراتها: "هل طلب"

البانْ؟ إذن، فليأت بنفسه ويحمله! أم أن اللعب بات يشغله عن العشاء؟ هيا احملوا الطعام إليه وارموا بالأطباق فوق رأسه أو لعل الأجدر أن تلقوا بها للكلاب!"

ذلك ما كان من أمر غضبها في غيابه! أما إذا واجهته رأيتها ذات لطف ورقة. والحق أنها لم تكن لتغضب منه بقدر ما كانت تغضب من "مير صاحب"(6) الذي كانت تصفه بـ "ميرمشتت الشمل". ولعل ميرزاجي(7) هو الذي كان يتوسل بصاحبه ليتفادى تعريض زوجه به.

وذات يوم أصاب "البيجوم صاحبة" صداع شديد. نادت وصيفتها وطلبت منها أن تسرع إلى زوجها وتخبره بحاجتها إلى وصفة من الطبيب! ولما نقلت النبأ إلى سموه رد عليها: "هيا عودي إلى سموها، ولسوف أوافيها بعد لحظات!" ثارت "البيجوم صاحبة" ثورة هوجاء لما بلغها من زوجها. فأي امرأة يمكن أن تحتمل انشغال زوجها عن صداعها بلعب الشطرنج؟ وعادت تصيح بالوصيفة: "هيا، امضي إليه، وأخبريه بأني سأذهب إلى الطبيب بنفسي، إن لم يحضر هو في التو!" وكان هذا أمراً خطيراً. فلو ذهبت وكشفت عن نفسها أمام الطبيب لعُدّ ذلك من الكبائر عند ذوي الحشمة. وجدته الوصيفة مستغرقاً في اللعب، يتدبر نقله أو نقلتين في وسط الرقعة.

استشاط "ميرزا صاحب" غضباً حين قطعت عليه الوصيفة أفكاره، وصاح: "أحسب أنها لم تمت بعد أليس كذلك. فلتصبر قليلاً حتى أحضر إليها!".

قال "مير صاحب": هيا، امض إلى حرمكم واعلم مصابها. إن النساء شديدات الحساسية، كما تعلم، فترفق!"

ردّ "ميرزا صاحب": حقاً! ولكن لماذا أقطع اللعب الآن، فما هي إلا نقلة أو اثنتين حتى تخسر الدور!".

ـ يا صاحبي، لا تسرف في التفاؤل. فقد تدبرت نقلة تنهي أمر الشاه عندك، قبل أن تتمكن من تحريك قطعة من طرفك!".

ـ لن أتحرك قيد أنملة، حتى أنهي أمر الشاه عندك!

ـ إذن فلن ألاعبك. اذهب إلى السيدة واعرف ما بها، ثم نتابع اللعبة بعد عودتك!

ـ يا صاحبي، سوف أضطر للذهاب إلى الطبيب. والمسألة ليست مسألة ساعة واحدة فحسب. ألا ترى أنها إنما تريد إزعاجي، وليس شيئاً آخر.

ـ مهما يكن! عليك أن تلبي رغبتها، فهيا اذهب إليها!

ـ حسناً، حسناً. ولكن دعني أقوم بنقلة واحدة، ثم أذهب!

ـ معاذ الله! إني لن أحرك حجراً واحداً حتى تمضي إليها وتعود!

انتزع "ميرزا صاحب" نفسه وتحامل على الذهاب إلى زوجته "البيجوم صاحبة"، ليجدها عابسة متهجمة وهي تصيح في وجهه: "لقد بلغ بك الهيام بالشطرنج، لعنه الله، ما يجعلك مثبتاً إلى الرقعة، ولو بلغك موت أهلك! الحق أن الله لم يخلق رجلاً على شاكلتك!".

قال "ميرزا صاحب"، وقد بان عليه الحرج: "ماذا أقول إنه مير صاحب . لم يرض أن أترك اللعبة. وما استطعت أن أغادره إلا بعد لأي ومشقة!".

ـ أتراه يحسب كل الناس على تفاهته؟ أليس لديه أولاد أيضاً، أم تراه يدعهم لترعاهم الكلاب!

قال "ميرزا صاحب": "هذا الرجل مهووس بالشطرنج. فأراني مكرهاً على مجاراته واللعب معه كلما أتى إلينا للزيارة!".

ـ لماذا لا تردعه؟

ـ هذا الرجل صاحبي وأعلى مرتبتين مني: لذلك تجدينني مضطراً لمجاملته؟

ـ إذن، فأنا من سيواجهه، ولست أحفل إن رضي أم غضب.

صاحت تنادي الوصيفة: "اذهبي إلى القاعة واحملي رقعة الشطرنج وأخبري الضيف بأن سيدك لن يلاعبه اليوم، ويرجو المعذرة لانصرافه".

ـ بحق السماء لا تجلبي فضيحة لنا. انتظري يا هذه، إلى أين أنت ذاهبة؟ تريثي قليلاً!

ـ لماذا أوقفتها! إن من يعترض كمن يأتي بموتي: أوقفها إن شئت، ولكن لنر إن كنت تستطيع اعتراضي أنا!

قالت "البيجوم صاحبة" هذا، ومضت مسرعة نحو القاعة في الطابق الأعلى. ذهل "ميرزا صاحب"، وشحب وجهه، وصاح متوسلاً: "ناشدتك الله، وبجاه الحسين لا تجلبي لي العار!" لم تأبه "البيجوم" بتوسله، ولا أعارت كلماته أي اهتمام. ولكن ما إن بلغت القاعة حتى تسمرت في مكانها.

التفتت ونظرت متلصصة من طرف المدخل. وجدت "مير صاحب" يعبث بقطع الشطرنج ويعيد ترتيبها من جديد، ثم يقف ويخرج إلى الشرفة متظاهراً بالبراءة. دخلت القاعة كالعاصفة الهوجاء وأخذت تطيح بقطع الشطرنج هنا وهناك. كان "مير صاحب" ما يزال بعيداً عن القاعة، في أقصى الشرفة الواسعة. ولكن ما إن عاد إلى مكانه ورأى رقعة الشطرنج مقلوبة والقطع متناثرة في كل الأرجاء وسمع رنين الخلاخيل تبتعد حتى أدرك أن هذه كانت من آثار ثورة "البيجوم صاحبة".

فدار على عقبيه وغادر القصر إلى بيته.

قال "ميرزا": "كانت هذه حماقة منك!"

قالت "البيجوم صاحبة": "إن عاد مير صاحب مرة أخرى فلسوف أرمي به إلى الخارج. وأنت لو كنت تحمل مثل هذا الحماس لله تعالى لغدوت اليوم من أوليائه الصالحين. ولكنك تمضي الوقت في لعب الشطرنج بينما أنا منهمكة في شؤون البيت، والآن هل تمضي إلى الطبيب أم تراك ستتلكأ من جديد؟"

لمّا خرج ميرزا من بيته قصد بيت "مير صاحب"، عوضاً عن عيادة الطبيب، ليروي له القصة. فقال معلقاً: "هكذا قدرت عندما رأيت قطع الشطرنج تتطاير في الهواء. ورأيت أن الأفضل لي مغادرة القصر فقد بدت لي زوجتكم المصون امرأة متنمرة لا قبل لإنسان بالسيطرة عليها. ولكن الحق أيضاً أنك أفسدتها كثيراً فما هكذا تساس النساء. وما شأنها بك وما تفعل طالما أنك بعيد عن دائرتها من البيت؟ إن شأنها أن تدبر البيت ولا شيء آخر!".

. أخبرني الآن، أين سنلتقي بعد هذا الذي جرى؟

. لا عليك! لدي بيت واسع. وإذن، فقد تدبر الأمر!

- ولكن كيف أستطيع تهدئة خاطر "البيجوم صاحبة"؟ إذ ثارت ثائرتها حين كنت أجلس للعب في البيت، إنها قاتلتي لا ريب، إن خرجت للعب عندك!

. دعها تثرثر، يا صاحبي! فإن هي إلا أيام حتى تنسى هذا الأمر. ولكن عليك طبعاً، أن تبدي حزماً مع هذه المرأة!

لأمر لا يعلم به سوى علام الغيوب، كانت البيجوم زوجة مير صاحب تعتبر غياب زوجها عن البيت أمراً يتفق واللياقة. ولذلك لم تكن تأخذ عليه استغراقه في لعب الشطرنج، بل وكانت تذكره بمواعيده، إن هو تأخر عنها. وكان "مير صاحب"

يحسب خطأ أن ما كان لدى زوجته من الرعاية والرضى باق أبداً. لكن ما أن بدأ يستقر في بيته وينتجع إلى حجرة الاستقبال، ويمضي كل وقته في لعب الشطرنج حتى بدأت أحوال هذه الزوجة الكيسة تتغير، وأخذت تظهر الضيق والبرم. إذ رأت ذلك عائقاً دون استمتاعها بحريتها، وأخذت تمضي اليوم وهي تتلهف لتكون عند الباب تتطلع من ورائه.

وكان الخدم لا ينقطعون في غضون ذلك عن الثرثرة. فلقد كانوا يمضون أيامهم قبل هذا في الكسل والراحة لا يعنيهم من يدخل البيت أم يخرج. أما اليوم فقد وجدوا أنفسهم في استنفار دائم لتلقي الأوامر: "هيا آتونا بالبان!، أحضروا الحلوى!" ثم كان لا بد من أن تبقى النارجيلة جاهزة مضطرمة نارها، كقلب العاشق الولهان، وإذ ذاك كان الخدم يمضون إلى صاحبة البيت ليشكوا إليها أمرهم: "إن الشطرنج بات يرهقنا. فقد أخذت أقدامنا تتقرح بين المجيء والذهاب. ثم ما هذه اللعبة التي تبدأ مع الفجر ولا تنتهي إلا في الهزيع الأخير من الليل؟ حسبه ساعة أو ساعتين لينال متعته أو يروح عن نفسه. حاشا لله أن نشكو أو نتململ، وإننا خدمكم وعبيدكم، ورهن أوامركم؛ ولكن هذه لعبة ملعونة من صنيع الشيطان. لا ريب في هذا! ولسوف يسوء مصير من يتورط في لعبها، وبيته لا محالة إلى خراب فهي قصة معروفة، وقد رأينا الجيران ينتهون الواحد بعد الآخر إلى أسوأ حال بعدما يعتادها أحدهم. وحالنا بات حديث الناس في البلد،

ويسوؤنا نحن الذين أكلنا خبزكم وملحكم أن نسمع الأقاويل تقال في مولانا وولي نعمتنا! فما عسانا نفعل؟".

وتجيب "البيجوم حين تسمع الخدم يأتون شاكين متذمرين: "وماذا أملك، طالما أن السيد شغوف بهذه اللعبة، وإن كنت أمقت هذه الحال التي بتنا عليها؟".

أما القلة من الشيوخ والعجائز في القصر فقد أخذت مخيلاتهم تذهب بهم كل مذهب، فأخذوا يتنبؤون بالمصائب تنزل جزاء لهذه المعصية، وكنت تسمعهم يتذمرون أشد التذمر: "قد انقطع الرجاء! فإن كل خيار القوم على هذه الحال، كان الله في عون البلاد! إن في لعب الشطرنج خراب المملكة. وهذه من علامات الساعة!".

ثم كان أن عمت الفوضى في البلاد وتعالت صيحات التذمر والنقمة فقد أخذ قطاع الطرق ينهبون الناس في عرض الطريق وينهبون البيوت في وضح النهار ولم يكن هناك من يهتم بالشكوى. وحين كانت ثروات الأرض تجلب من الريف إلى لكناو

فلتبدد على العاهرات والمهرجين وفي تحقيق كل رذيلة. وأخذت الديون لشركة الهند الشرقية تتراكم يوماً بعد يوم، وبات الضنك يشتد بالناس ويزداد وطأة مع كل نهار جديد. وانقطعت عندئذ الجباية من الناس لما حل بهم من ضيق وبؤس. وكان المقيم البريطاني لا ينقطع عن التحذير من استفحال هذه الحال المتردية، والناس في لكناو لاهون عن تحذيراته منصرفون إلى ملذاتهم.

انتقلت ألعاب الشطرنج لتدور في قاعة الاستقبال الخاصة بمير صاحب وتستمر لعدة شهور، فرسمت استراتيجيات جديدة ونظمت خطط دفاع جديدة، وانتصبت تنظيمات قتال أحدث على الرقعة. وكانت تنشب بين الحين والآخر مشاحنات ومشادات بين اللاعبين وهما يخوضان المعارك، بل وكانت تلك الملاسنات تشتد أحياناً حتى تبلغ درجة تقاذف البذاءات؛ سوى أنه سرعان ما كان السلام يعود ويسود الصفاء بينهما من جديد. ثم كان اللعب يتوقف بين الصديقين، فيعود ميرزا إلى داره حانقاً مغضباً، بينما يذهب مير صاحب ويخلد إلى مخدعه. ولكن نوم ليلة هادئة كان كفيلاً بإعادة الصفاء إلى القلوب، فإذا أطل الصباح الباكر التقى الصديقان في قاعة الاستقبال من جديد.

وفي ذات يوم وبينما الرجلان جالسان إلى رقعة الشطرنج يقدحان زناد الفكر في حل بعض وقائع اللعب، حضر ضابط من جيش الملك على صهوة حصان طالباً مقابلة "مير صاحب" ذعر "مير صاحب" لطلب هذا الجندي وتوقع منه شراً، وإلا فلم سأل عنه؟ أسقط بيد الرجل. ولما لم يجد ثمة مهرباً طلب إلى خدمه أن يصرفوه، وأن يتذرعوا بغيابه عن الدار.

رد الضابط بصرامة العسكري: "إن لم يكن في داره، فأين هو، إذن؟" أجاب الخادم بأنه يجهل مكانه الآن. ولكن علام السؤال؟ "قال الضابط: كيف لي أن أقول لك، أنت، سبب الطلب! لعل الحال أصبحت تستدعي النفير وتجنيد الناس. هيا! إن الأمر لا يحتمل المزاح، خاصة وأن سيدك من أصحاب الأملاك الواسعة. ولسوف يعلم السبب حين ينتقل إلى الخطوط الأمامية!".

. حسناً، اذهب الآن، ولسوف أبلغ مولاي بما قلت!

ـ ليست القضية أن يعلم أو لا يعلم. إني عائد في الغد، ولدي الأوامر باصطحابه معي.

غادر الفارس، و "مير صاحب" ترتعد فرائصه من الخوف. التفت إلى صاحبه

ميرزاجي يسأله: "ها قد علمت، يا سيدي، من الأمر ما علمت. فماذا ستكون عليه الأحوال بعد الآن؟".

. هذه مصيبة، كارثة، حلت بنا! فماذا لو أني دعيت أنا أيضاً إلى الجبهة؟

. اللعين قال إنه عائد إلينا في الغد.

. مصيبة! مصيبة لا ريب فيها. فلو أننا استدعينا إلى الجبهة لمتنا ونحن في عز الشباب، قبل الأوان.

ـ اصغ الآن! هناك مخرج من هذه الورطة. إننا لن نلتقي في هذا البيت بعد اليوم: ولسوف يكون لقاؤنا من الغد في بقعة مهجورة على ضفة نهر جومتي. فمن ذا الذي سيخطر بباله أننا نلعب الشطرنج هناك؟ فإن أقبل صاحبنا في الغد لم يجد إلا أن يعود على أعقابه من حيث أتى.

ـ والله هذه فكرة رائعة! ونعم الحل. وفيما كان الرجلان في حديثهما، وجدنا زوجة "مير صاحب" تقول للضابط الفارس: "قد نجحت في إبعادهما عن الطريق، على أفضل وجه!" رد الضابط: "أنا خبير بالتعامل مع أمثال هذين الأحمقين. إن الشطرنج قد سلبهما العقل والشجاعة" ولن يبقيا بعد اليوم في هذا البيت، مهما حصل".

ما إن حل اليوم التالي حتى كان الصديقان قد شدا الرحال من طلوع الفجر، حاملين معهما سجادة صغيرة وصندوقاً يحتوي على زاد من "البان" إلى الضفة الأخرى من نهر جومتي حيث ثمة مسجد مهجور متهدم، ربما يعود بعهده إلى عهد النواب عساف الدولة(8). وكانا يتوقفان في طريقهما لحشو غليون والاستمتاع بالتبغ وتناول بعض النبيذ. وإذ بلغا المسجد افترشا السجادة وجهزا النارجيلة وقعدا للعب. وبعد هذا لم يعد يثقل عليهما أمر من هذا العالم أو العالم الآخر. ولم يعد يرد على شفتيهما كلمة سوى "كش" يتبادلانها ما دامت المباراة قائمة. والحق أنه ما كان لأي "يوغي" أن يضارعهما في هذا الاستغراق وهذه الغيبوبة. إلا اللهم إذا حان الظهر وأحسا بالجوع فيهرعا إلى دكان من تلك الأكواخ على ضفة النهر ليتناولا طعام الغداء، ويدخنا الغليون، ثم يعودان من جديد لاستئناف المعركة، وكانا في بعض الأحيان يستغرقان في لعبهما وينسيان حتى أمر الطعام.

وفيما كان الرجلان منشغلين في ترتيب الأمور بمباراتهما كان الموقف السياسي في البلاد يزداد حرجاً. فكانت جيوش شركة الهند الشرقية تتابع تقدمها نحو لكناو.

وغدت المدينة في ضيق وجلبة. أخذ الناس ينقلون أطفالهم إلى الريف. أما اللاعبان فما كان ليعنيهما من هذه الأمور شيء.

وكانا قد حرصا حين مغادرة المدينة على سلوك الطرق الضيقة بين الحارات، بعيداً عن أنظار المعنيين في الحكومة، خشية أن يلمحهما أحدهم وينتهي بهما الأمر إلى التجنيد. وما كانا يرغبان به هو استمتاعهما بدخولهما الطائلة التي تدرها عليهما أملاكهما الواسعة دون دفع شيء بالمقابل.

جلس الصديقان ذات يوم من تلك الأيام للعب الشطرنج في الجامع المتهدم. وكان وضع ميرزا ضعيفاً فأخذ مير صاحب يلاحق حركاته ويطارد قطعه ويهدده بموت الشاه في كل حركة. فيما كان جنود الشركة يتقدمون على مرمى النظر. وكان ذاك جيشاً من الأوروبيين في طريقهم لفرض حكمهم على لكناو.

قال مير صاحب: "هاك الجيش البريطاني يتقدم في طريقه. كان الله في عوننا!".

قال ميرزا: "فليتقدم، الآن فحاول أن تخلص الشاه من موت محقق".

- لعله يجدر بنا أن نستطلع الأمر، ولنقف هنا حيث لا يمكن لأحد رؤيتنا.

- أرجئ النظر الآن، فعلام العجلة، والآن كش ملك.

- لديهم مدفعية أيضاً. إنه جيش عرمرم، ولعله يبلغ خمسة آلاف جندي، ويل لأشكالهم الغريبة! وجوه حمراء متوردة، مثل القرود. إنه مشهد مرعب فعلاً.

- لا تحاول أن تتملص من هذا المأزق، يا سيدي! استخدم هذه الحيل مع سواي. هيا، مات الشاه!

- يا لك من إنسان عجيب! كارثة تنزل بالمدينة وأنت لا تفكر إلا بوسيلة لموت الشاه. هل فكرت كيف يمكننا العودة إلى منازلنا إذا كانت المدينة مطوقة؟

- عندما يحين وقت العودة سنفكر في الأمر. وهاك! كش. مات شاهك الآن.

كان الجيش قد مر في طريقه بموقع الرجلين. الوقت الآن في العاشرة من الصباح.

ورصفت الأحجار على الرقعة لجولة جديدة

قال ميرزا: ماذا عسانا نفعل لنتدبر الطعام لهذا اليوم؟

. هذا يوم صيام . أتراك أشد جوعاً من المعتاد؟

. أبداً ولكني أتساءل عما يجري في المدينة.

. المدينة في الحفظ والصون، وقد تناول الناس غداءهم بهناء ويتهيئون للقيلولة، والملك منتجع بلا ريب في جناح حريمه.

كانت الساعة قد بلغت الثالثة حين عاد الاثنان إلى اللعب، كانت حركات ميرزاجي ضعيفة في هذا الدور . وكانت الساعة تدق الرابعة حين كان وقع أقدام العساكر العائدين يسمع. كان نواب واجد علي قد وقع أسيراً في يد القوات البريطانية، وها هم يقودونه إلى مكان مجهول. لم تبد المدينة حركة، ولم تقع مذبحة، ولم تسقط نقطة دم. فلم يعرف إلى اليوم أن أسقط ملك على بلد حر، مستقل بمثل هذا الهدوء. ولم يكن ذلك ضرباً من الامتناع عن العنف كالذي تبتهج له الآلهة، بل قل إنه ضرب من الجبن الذي يحمل أشد الناس جبناً على البكاء. كان ملك أودة المترامية يغادر ملكه أسيراً ولكناو ما تزال غارقة في خدرها اللذيذ. وكانت تلك غاية التفسخ السياسي.

قال ميرزاجي: "لقد أسر هؤلاء الطغاة صاحب الجلالة".

. أحسب ذلك. انظر . كش شاه.

ـ انتظر لحظة يا سيدي، لنرجئ اللعب الآن، فلست أحسبني في حالة رائعة الآن. فلا بد أن الملك التعيس يبكي مر البكاء ويذرف دموعاً من الدماء في هذه اللحظة على ملك ضاع.

. لا ريب لدي في ذلك . فأي ترف سيحظى به وهو سجين، كش شاه!

قال ميرزا: "دوام الحال من المحال، ولكل امرئ نصيبه من الشقاء ولكن يا له من وضع مؤلم!"

ـ لا ريب في هذا، لا ريب. هذه حال الدنيا. انظر كش شاه! هذه خاتمة المطاف، فلن تفلت الآن.

. قسماً إن لك قلباً قدّ من حجر، ها أنت ترى كارثة كبرى كهذه نزلت بالبلد ولا ينتابك حزن لما آل إليه. أسفاً عليك، يا واجد علي شاه!

. الأجدر بك أولاً أن تنقذ شاهك، ثم لك أن تنعي بعدئذ صاحب الجلالة. دورك الآن. حرك الشاه!.

مر الجيش مصطحباً الملك معه بالمكان. وحالما غادر آخر جندي أخذ ميرزا في رصف الحجارة على رقعة الشطرنج من جديد. إن ألم الهزيمة لقاس. قال ميرزا هيا لننظم قصيدة رثاء صاحب الجلالة". ولكن وطنية ميرزا قد تلاشت مع هزيمته، إنه يتلهف للانتقام الآن.

كان المساء قد حل. وأخذت العصافير تعود إلى أعشاشها، والبوم يحوم في عتمة الليل. ولكن اللاعبين ظلا على دأبهما. يتبادلان التهديدات مع كل حركة جديدة، كمحاربين شرسين لا يهدآن بين ضرب وصد.

كان ميرزا جي قد خسر ثلاث جولات متلاحقة، وما كانت الرابعة تبشر بالخير. فأخذ يتدبر كل حركة بحرص وعناية وبعد إمعان التفكير، عازماً على كسب هذه الجولة. ولكن كانت كل حركة جديدة تأتي أسوأ من سابقتها حتى أخذت اللعبة تتداعى نواصيها. أما مير صاحب فكان يلهو بشدو قصيدة غزل وهو يضبط إيقاعها بفقش أصابعه، مبتهجاً كما لو كان قد وقع على كنز مخفي. وكان ميرزا جي يزداد هيجاناً وهو يسمعه مغنياً، إلا أنه آثر أن يخفي يأسه، بإطراء صاحبه. ولكن صدره أخذ يضيق مع تردي لعبه حتى بلغ حد الغضب لكل كلمة ينطق بها مير صاحب. فكان لا ينقطع عن القول: "لا تبدل حركتك، يا سيدي! كيف لك أن تتراجع عن حركة أتيت بها؟ إن القطعة إنما تتحرك مرة واحدة، ولا تبدل. لماذا يدك على تلك القطعة؟ دع يدك عنها! إياك أن تضع يدك على قطعة حتى تكون موقناً من أنك ستحركها! إنك تستغرق نصف ساعة لكل حركة، وهذا مخالف للقوانين. القانون ينص صراحة على أن اللاعب يخسر إذا استغرق أكثر من خمس دقائق في تحريك قطعة في دوره. ها أنت ذا قد بدلت حركتك من جديد!

كن هادئاً وأعد تلك القطعة إلى هنا.

بات وزير مير صاحب في خطر. فقال معترضاً: "ولكن متى قمت بحركتي؟".

"قد فعلت. ضع القطعة هنا، في المربع ذاته".

"وما الذي يحملني على وضعها في المربع ذاك؟ ومتى كنت قد رفعت يدي عن القطعة؟"

"إنك لن تحرك قطعة سواها، ولو انتظرت حتى قيام الساعة".

"أنت الغشاش! إن النصر والهزيمة بأمر القدر، ولن تستطيع الفوز بالغش".

"اتفقنا إذن، فقد خسرت هذه الجولة".

"وكيف خسرتها؟".

"إذن، أعد القطعة إلى حيث كانت، في المربع ذاته".

"ولم أعيدها إلى ذاك المربع؟ بل ستبقى حيث وضعتها!".

"لماذا تعيدها؟ يجب أن تعيدها إلى حيث كانت".

اشتد الخصام وتمسك كل منهما بموقفه لا يتراجع عنه قيد أنملة، وأخذت العبارات تتطاير بينهما وتحيد عن موضوع الخلاف. فقال ميرزا: "لو أن أحداً في أسرتك عرف الشطرنج في حياته فلربما عرفت عندئذ قواعد اللعب. ولكن أسرتك لا عهد لها إلا بتشذيب الحشائش. فكيف يتوقع منك أن تعرف الشطرنج وأصوله؟ إن الأرستقراطية الحقة شأن آخر تماماً. فالمرء لا يبلغ مرتبة النبالة لمجرد منحه أراضي بلا أجر".

"ماذا تقول؟ لا بد أن أباك عمل في قطع الحشائش! إن أهلي يتوارثون الشطرنج منذ أجيال وأجيال".

"أي تخريف هذا، إنك أمضيت حياتك طاهياً في بيت غازي الدين حيدر، ولكنك لا تنقطع عن الظهور في كل مكان مصطنعاً لنفسك وضع الأرستقراطي".

قال مير: "الحق أنك إنما تشهد بأسرتك أنت. فلا ريب في أن أهلك جميعهم كانوا طهاة في بيت علية القوم. أما أهلي فكانوا دائماً ضيوفاً على مائدة الملك".

"يا منظف الحدائق، أنت يا من!... هيا دعك من التشدق والتفاخر!"

"صن لسانك، وإلا ندمت على ما تهذر فإن صدري قد ضاق بترهاتك. واعلم أني قالع عين من يتطاول كائناً من كان. فهل تتجرأ لتتحداني؟".

"إذن، فأنت تريد اختبار شجاعتي! فليكن السيف الشاهد والحكم بيننا، وليكن ما يكون!".

قال مير: "ومن ذا الذي تراه يقبل منك هذا التجرؤ والاستخفاف؟".

امتشق كل من الصديقين سيفه في وجه الآخر. وكان ذلك في عصر من عصور الفروسية، يوم كان حمل السيوف والخناجر والسكاكين تقليداً شائعاً بين الناس، كبيرهم وصغيرهم، الغني منهم والفقير. كانا كلاهما مقبلين على متع الحياة،

ولكنهما لم يكونا من الجبناء. كان بهما عزوف عن السياسة، وإذن فما الذي يحملهما على الموت من أجل ملك أو مملكة؟ ومع ذلك فما كانت الشجاعة تعوزهما. فوقف الواحد مقابل الآخر وتحداه للمبارزة كما تقضي التقاليد، فلمعت السيوف وسمع صليلها، وقعا مثخنين بجراحهما. انتفض الجسدان ثم سكنا عن الحركة في دقائق معدودات. لم يذرفا دمعة واحدة على مليكهما، ولكنهما بذلا الروح والجسد في حماية وزير على رقعة الشطرنج.

كان الليل قد أخذ يرخي سدوله وفي عتمة الليل بدت رقعة الشطرنج ممتدة على الأرض.

وبدا الشاهان جالسين على عرشيهما وكأنهما ينعيان البطلين اللذين سقطا.

ران الصمت على المكان فيما كانت الأقواس المتداعية في الخرائب والجدران المتهاوية والمآذن المغبرة تنظر من عل إلى الجثتين الهامدتين، وتندبهما.

•••

(*) **بريمتشاند** *(1880- 1936) الاسم الذي كان يوقع به دانبات راي أعماله،* **وهو رائد** ***القصة الحديثة في الهند، اتسمت كتاباته بالعناية بالقضايا الاجتماعية والسياسية في الهند في مطلع القرن العشرين، وما تزال أعماله تحظى إلى اليوم باهتمام شديد، إن في الهند وإن في الخارج لما فيها من نزعة طبيعية وإنسانية، وسخرية عميقة.***

(1) *نواب واجد علي شاه (1847 . 1856) آخر ملوك أوده (عاصمة ولاية أوترپراديش اليوم) قبل غزوها ومن ثم اقتطاعها من البريطانيين، وتجري أحداث القصة في السنة الأخيرة من حكم النواب، 1856.*

(2) *لعبة تجري بالنرد.*

(3) *مخدر مستخرج من الأفيون.*

(4) *من ألعاب الورق.*

(5) *مضيغة من ورق التنبول وجوز الفوفل والجير الهندي.*

(6) *صاحب: من ألقاب أرستقراطية المغل.*

(7) *جي: (ميرزا) جي إضافة دلالة على التوقير.*

(8) *صاحب أوده ما بين 1775 . 1779، عرف عهده بشيوع التهتك والبناء، وخاصة*

■ بقلم : كيكي ن.داروالا ■

الجوامع، معاً .

□□□



المرافق

تأليف أنيتا ديساي

■ ترجمة : د.نايف الياسين■

في ليلة الحفل الموسيقي فقط، عندما اجتمعنا على المنصة خلف الستائر المنسدلة، أعطاني النوتات التي يجب أن أعزفها. كنت دائما آمل أن يفعل ذلك في وقت مبكر أكثر، ودرت حوله طوال المساء، وهو يضبط السيتار ويعد أوراق التنبول، لكنه لم يتحدث إليّ على الإطلاق. كان هناك دائما العديدون يحيطون به – مضيفه، ومنظمو الحفل، وأصدقاؤه، ومحبوه وأتباعه – وكان يتحدث ويضحك معهم جميعاً، لكنه كان دائماً يشيح بوجهه عندما أقترب منه. لم يجرحني ذلك. كانت هذه طريقته معي، وكنت معتاداً عليها. كنت أتمنى فقط لو يخبرني بما يخطط لعزفه قبل الحفل بحيث أحضّر نفسي. كنت أجد صعوبة في الولوج في الموسيقى مباشرة، كالبرق دون توقف أو تحضير، كما يفعل هو. لكن كان علي أن أتعلم كيف أفعل ذلك، وقد تعلمت. كان يقودني في كل شيء، وأنا أتبعه.

هذه هي طريقة حياتنا منذ خمسة عشر عاماً. بدأ ذلك عندما كنت في الخامسة عشرة، عندما أخذت طنبورة، صنعها أبي الذي كان يصنع الأدوات الموسيقية ويعزف عدداً منها بموهبة وتميّز، إلى صالة موسيقية كان سيعزف بها الأستاذ رحيم خان

تلك الليلة. كان قد طلب طنبورة من أبي الذي كان معروفاً لكل الموسيقيين بجودة الأدوات التي كان يصنعها لهم بحب وكذلك بمعرفة عميقة للموسيقا. عندما وصلت إلى الصالة، نظرت حولي أبحث عن أحد ما أعطيه الطنبورة، لكن الصالة كانت مظلمة إذ لم تكن الإدارة تسمح للموسيقيين باستعمال الأضواء قبل العرض، وكان هناك لمبة واحدة مضاءة على المنصة، تظهر مجموعة من الموسيقيين وتحيطهم بظلال طويلة، وقلقة، ومشؤومة بشكل ما. وكان الأستاذ يضبط سيتاره، متوقفاً بين الفينة والأخرى ليضحك ويتحدث مع رفاقه. كانوا جميعاً يتحدثون، ولم يرني أحد. وقفت لوقت طويل في الباب، محدقاً بالأستاذ الشهير الذي طالما تحدث أبي عنه بشيء من التبجيل وكان قد حذرني، "لا تذكر شيئاً عن ثمن الآلة. إنه يشرفنا بطلب طنبورة من صنعنا." كان هذا قد أثر بي، وعرفت وأنا أحدق به أن أبي كان صادقاً فيما قال. كان فقط يضبط سيتاره بشكل عرضي واعتباطي، غير أن أصابعه كانت أصابع إله، يسيطر تماماً على آلته، وكنت أعلم أن لا شيء، سوى الكمال يمكن أن ينتج عن علاقة كهذه بين موسيقي وآلته.

وهكذا سرت في الممشى، حاملاً الطنبورة الجديدة بين ذراعي ومحدقاً طوال الوقت بالرجل الذي كان في مركز تلك المجموعة التي لا تهدأ عن الحركة والكلام بينما هو مسترخ ومنضبط ومتحكم بكل ما يفعل. ولدى اقترابي من المنصة، استطعت رؤية وجهه تحت خصلات الشعر الطويلة. وجهه أيضاً كان وجه إله. كان وجها كبيراً، ثقيلاً قليلاً عند الفكين، لكن ثوازنه جبهة عريضة وعينان كبيرتان سوداوان بارقتان. كان فمه كبيراً، وفتحتا أنفه أيضاً، كانت تقاطيعه ملكية، لكنها ذكية ومنضبطة. وبينما أنا أنظر إلى وجهه وأخبر نفسي عن كل الملامح المؤثرة فيه، خفض بصره إلي. لا أعرف ماذا رأى، ماذا كان بوسعه أن يرى في ظلمة وظلال الصالة غير المضاءة. لكنه ابتسم بلطف وأشار إلي وقال، "ماذا لديك هناك؟".

عندها استجمعت الشجاعة لأركض صاعداً الدرجات الجانبية للمنصة ومتوجهاً نحوه مباشرة. لم أنظر إلى أي أحد آخر. لم ألحظ الآخرين حتى ولم أعبأ برد فعلهم تجاهي. ذهبت مباشرة إلى الشخص الذي كان مركز المجتمعين على المنصة، ومنذ ذلك الحين، مركز حياتي بأكملها، وقدمت له الطنبورة.

"آه، الطنبورة الجديدة من ميشرارجي في شارع الموسيقا؟ أنت من طرف ميشرارجي؟"

"إنه أبي،" همست وركعت أمامه ناظراً إلى وجهه، وغير قادر على إشاحة نظري عنه. لقد شدني إليه، إلى قربه.

"ابن ميشرارجي؟" قال، بضحكة عميقة وودودة. بعد أن مرر أصابعه فوق أوتار الطنبورة، وضعها على السجادة، ومد يده فجأة بحيث انحسر الكم الموسليني الأبيض للكنزة التي كان يرتديها وعرّت ذراعه الذي كان قوياً بارز العضلات كذراع رياضي وأظهرت العروق البادية على الجلد الأنيق المشدود، وداعب ذقني. سألني، "هل تعزف؟" "لم يصل عازف الطنبورة. أين هو؟" نادى مستديراً إلى الخلف، "لماذا لم يحضر؟"

بدأ جميع أصدقائه وأتباعه بالهمهمة. قال بعضهم إنه كان مريضاً، في الفندق، وقال البعض إنه التقى أصدقاء له وذهب معهم. لم يكن أحد يعرف على وجه اليقين. هز الأستاذ رأسه بحركة تأملية ثم قال، "قد يكون مع كؤوسه من جديد، السكير العجوز. لن أدعه يعزف معي من جديد. دعوا هذا الطفل يعزف." ومباشرة تناول سيتاره وبدأ يعزف ورأسه منحن فوق الآلة، في حين نزل حجاب من التفكير والتركيز على وجهه بحيث كنت أعرف أني لا أستطيع أن أقاطعه بالأسئلة التي كنت أرغب في طرحها. رمقني بنظرة سريعة وأشار إلي أن أتناول الطنبورة وأعزف. "راغا ديباك"، قال فجأة وأخبرني بالنوتات التي يجب أن أعزفها بسرعة

وبصوت خفيض بحيث ما كنت لأسمعه لو لم أكن متنبهاً جداً. جلست خلفه على الأرض، وتناولت الطنبورة التي كان والدي قد صنعها وبدأت بعزف النوتات الثلاث التي كان أعطاني إياها – النوتة المركزية، ثمانيها وخماسيها – مرة بعد مرة بحيث أخلق الخلفية الخافتة التي كان يرتجل ويطرّز عليها الراغا التي يعزفها.

وهكذا أصبحت عازف الطنبورة في فرقة الأستاذ رحيم خان. وقد عزفت معه منذ ذلك الحين، ولم أعزف مع أي أحد آخر. ولم أفعل أي شيء آخر. هذه حياتي كلها. أنا في الثلاثين الآن، والأستاذ بدأ يشيب، وكثيراً ما يقاطع الحفل الموسيقي بذلك السعال المتقطع الجاف الذي يزعجه، ويأخذ أكثر مما ينبغي من الأفيون لتهدئته – أنا أعطيه إياه بنفسي، حيث يطلب مني أن أحضّره له. لقد سافرنا إلى كل أنحاء الهند وعزفنا في كل مدينة، وفي كل موسم. هذه هي حياته، وحياتي أيضاً. إننا نتقاسم هذه الحياة، هذه الموسيقا، هذه الدعوة. ما عساه يكون لي غير ذلك في هذا العالم؟ حاول البعض إغوائي بالابتعاد عنه، لكنني بقيت معه، غير راغب في أي شيء آخر، في أي شيء أكثر.

عالمنا لا تشكله وتعرفه وتحيطه الموسيقا بقدر ما تفعل ذلك علاقة إنسانية على أرض صلبة – علاقة الحب هذه ليست خاصية مجردة كالموسيقا ولا فكرية كالفن، بل ميزة إنسانية عامة نعيشها على مستوى يومي من الواقع – ميزة الحب. هذا ما أعتقده. ما عساه أن يكون غير ذلك ما ينسجنا معاً ونحن نعزف بحيث أعرف كل حركة سيقوم بها قبل أن يعرفها هو نفسه، وبإمكانه أن يعتمد علي بأن أكون دائماً في المكان الذي يريدني أن أكون فيه؟ لا نختلف ولا نبتعد: نغادر لنصل معاً. أليس هذا حباً. ما من زواج أقرب من هذا.

عندما كنت صبياً، كنت أرى أشياء عديدة في العالم. لا شك أن الموسيقا كانت هامة، الإله المنزلي الرئيس لعائلة ذات تراث موسيقي. كانت الصالة الرئيسة في منزلنا مخصصة لصنع الأدوات الموسيقية التي اشتهر بها أبي وجدي من قبله.

وكانت تصدر عنها أصوات ليست فقط أصوات الصنعة - الطرق، والنقر، والتخطيط، والضبط - بل صوت الموسيقا أيضاً. كانت ذبذبات الموسيقا تتردد هناك بشكل دائم، أحياناً بتناغم، وأحيانا بتنافر، كانت إحدى خصائص الهواء في منزلنا: كثيفاً، بكونه تنوع لا نهائي، وغير ثابت أبداً. كنت مجرد طفل، في الرابعة ربما، عندما بدأ أبي يوقظني في الرابعة كل صباح كي ينزلني معه إلى الصالة ليعطيني دروساً على الطنبورة، والهارمونيوم، والسيتار، وحتى الطبلة. كان يعزف عليها جميعاً وكان يريد أن يعرف الآلة التي لدي استعداد للعزف عليها. كون الموسيقا هي حرفياً الهواء الذي كنا نتنفسه في ذلك المنزل المرتفع الضيق في ذلك الشارع الذي يقطنه ويعمل فيه صانعو الأدوات الموسيقية في المدينة منذ أجيال، لم يكن وجود قابلية لدي لتعلم الموسيقا موضع شك أبداً. كنت أجلس متربعاً على الحصيرة أمامه وأعزف، واشعر بمزيد من الحيوية وأنا أفعل ذلك، إلى أن يرتفع النعاس عني كغطاء كان ينتمي إلى الليل، إلى أن تنهض النواة الداخلية لوجودي ويستطيع أبي أن يراها - كنت عازفاً للموسيقا وليس صانعاً لأدواتها - هذا ما رآه. علّمني كل أشكال الراغا والراغيني، واختبر معارفي بطرحه أسئلة سريعة وملحة بصوته الحاد غير الموسيقي. كان مختلفاً عن أستاذي في كل شيء. كان يبصق عصير أوراق التنبول على لحيته البيضاء المشعثة، وكان دائما ينتبه لكل شيء أفعله، وكثيراً ما كانت يده تنطلق بسرعة لتمسك بأذني وتسحبني حتى أصرخ. وكان علي أن أهرب من هذه الدروس. وحين كنت صبياً صغيراً وعنيداً، كنت أتمكن من فعل ذلك عدة مرات في اليوم منزلقاً من بين أصابع من هم أكبر مني ورامياً نفسي على الدرجات شديدة الانحدار إلى الشارع حيث كنت ألعب "غولي، واندا" وخوخو والكرات الزجاجية مع أطفال الحي الأكثر حظاً والأكسل والذين لا يتعرضون لنفس المراقبة التي أتعرض لها.

كان هناك وقت كنت أهتم فيه بالكرات الزجاجية أكثر من اهتمامي بالموسيقا، وكان لدي كرة قرمزية داكنة، سوداء تقريباً تموجت فيها خطوط بيضاء كالأعشاب أو الجذور، وكانت تساعدني على الفوز بكل جولة حتى كانت "الكرتا" التي أرتديها تنتفخ وتتمزق بوزن الكرات التي ربحتها.

كم كنت أحب حلويات أمي أيضاً - أنا متأكد، أكثر مما كنت أحب المرأة الصلعاء المتلعثمة غير المميزة التي كانت تصنعها. لم تكن حية بالنسبة لي. كانت تعيش حياة غامضة، منغلقة، وغير صحية، غير متطلبة، وغير جذابة. أما الحلوى التي كانت تصنعها فكانت أمراً آخر. كنت آكلها ساخنة جداً إلى حد كنت أحرق لساني. كنت أسرق حصة أخوتي وأخواتي أيضاً وكانت العائلة بأسرها تضربني وتلعنني.

ثم، عندما كبرت قليلاً أصبحت السينما هي كل شيء. كنت أشاهد أربعة، خمسة، أو ستة أفلام في الأسبوع. كنت أزحف من غرفتي في الليل عاري القدمين، كي لا أحدث صوتاً، ممسكاً ببعض المال الذي أسرقه من أبي، أو أمي، أو أي أحد آخر، منطلقاً في السوق إلى أن أصل في الوقت المناسب للعرض الأخير. كانت مينا كوماري ونرجس بالنسبة لي ملكتين من السماء. كنت أتخيل نفسي في مكان عشاقهما على الشاشة وأشعر وقد أصبحت عظيماً ومسترجلاً ونشيطاً وعدوانياً وأنا أجلس على المقعد المحشو بالقش، واضعاً قدمي تحتي على المقعد، وفي يدي قمع من الحمص المملح، لم آكل منه شيئاً وأنا أحدق بتلك الملكات المبهرجات المبهرات فاغراً فمي. وكان جمالهن ورونقهن يملأن الفضاءات الفارغة في حياتي ويعطيانها ألواناً وإيقاعات جديدة. وهكذا صرت أعي وجود النساء في حيّنا كنساء ناضجات يقفن عند الأبواب واضعات أيديهن على أوراكهن في تلك الساعة من الظهيرة عندما كانت الحياة تتوقف وتقدّم احتمالات مثل أن تختنقهن الواجبات المسائية، والبنات الأصغر سناً اللاتي كن يتحركن باستمرار لا يهدأن، ويستحيل لمسهن. كن كأعواد

القصب في المياه الوسخة. لكن رغم مظهرهن المهلهل، ورغم كبر الفارق بينهن وبين بطلات الشاشة، إلاّ أنهن لم تفتقرن إلى إغواء الابتسامات الخفيفة والنظرات الخبيثة وإلى بعض الشرائط والأربطة المذهبة. كان بعضهن يستجبن للنظرات في عيني، ويعدنني بما أردت، ربما بعد العرض، ليس الآن.

لكن كل ذلك سقط مني واختفى في الظلال، على الجنبات، عندما التقيت أستاذي وبدأت أعزف في فرقته. احتل مكان حلوى أمي، وبطلات السينما، وجميلات الشوارع، والكرات الزجاجية والنقود المسروقة، كل المتع التي كنت حتى ذلك الوقت قد تمكنت من انتزاعها من حجارة الوجود القاسية في بيت أبي في شارع الموسيقا. لم أعد بحاجة إلى تلك الألعاب، تلك الألعاب والأحلام. كنت قد وجدت ضالتي في الحياة، وبإتباعها دون تردد ودون الإحجام عن إعطاء كل نفسي. حصلت على الرضا بحيث أني لم أعد أرغب في أي شيء آخر.

صحيح أني كنت أجني بعض المال من هذه الجولات الموسيقية، ما يكفي لرعاية أبي خلال سنواته الأخيرة وخلال مرضه. حتى أني تزوجت. بالأحرى، تمكنت أمي من تزويجي بابنة الجيران التي كانت تحبها. عاشت البنت معها. كنت نادراً ما أزورها. بالكاد أتذكر اسمها، أو وجهها. إنها في أمان مع أمي ولا تزعجني. أبقى حراً في اللحاق بأستاذي والعزف معه.

أعتقد أن لديه نفس الموقف من أسرته ومن بقية العالم. على أية حال، لم أكن أراه يظهر أدنى اهتمام بأي شيء سوى موسيقانا. وحفلاتنا الموسيقية. قد يكون متزوجاً. سمعت شيئاً عن ذلك، لكني لم أر زوجته أو أسمع أنه زارها. قد يكون له أطفال، وذات يوم سيظهر له ابن على المسرح ويتعلم مرافقة أبيه. لم يحصل ذلك حتى الآن. صحيح أننا، بين الجولات الموسيقية، نعود إلى بيوتنا لبعض الراحة. ومحتوم علينا أيضاً أن نقطع هذه "الإجازات" ونعود إلى بيته في المدينة للتدريب. عندما أعود لا يسألني، أو حتى يكلمني. لكن عندما يسمع خطواتي يميزها، أعرف

ذلك، لأنه يبتسم نصف ابتسامة، كما لو أنه يسخر من نفسه ومني، ثم يرفع كمه الموسليني، ويتناول سيتاره ويومئ باتجاهي. قد يقول، "راغا ويش" أو "مالهار" أو "ميغ"، وأجلس وراءه، على الأرض، وأعزف له النوتات التي يحتاجها لبناء "الراغا".

قد تظنون أني أبالغ في تقدير علاقتنا، حاجته إلي، اعتماده على طنبورتي. قد تشيرون إلى أن ثمة أعضاء آخرين في فرقته يلعبون أدواراً أكثر أهمية. وأعترف أنكم محقون، لكن فقط بطريقة سطحية جداً. من الواضح أن عازف الطبلة الذي يرافقه يلعب دوراً "هاماً" - دوراً عالياً وعدوانياً وصاخباً أحياناً. لكن ما هي أهميته؟ ليست أهمية لا غنى عنها، كما يتفق أبرز النقاد، فأستاذي يكون في أفضل حالاته عندما يعزف المقطع التقديمي، جزء "الآلاب" الذي لا يصاحبه شيء. إنه يعزف هذا ببطء، وتأمل، بصفاء وحساسية، حتى أني لا أستطيع أن أسمعه دون أن تطفر الدموع من عيني. لكن حالما ينضم إليه رام ناث بنقرة وركضة من أصابعه على الطبلة، حتى تصبح الموسيقا سريعة وجريئة وتنافسية، ليس فقط في رأيي بل في رأي العديد من النقاد، وذات قيمة أقل. لاشك أن الجمهور يستمتع "بالغات" أكثر من "الآلاب" البطيء، وأنه يهتم برام ناث أكثر مما يهتم بي. وفي بعض الأحيان يحظى بالتصفيق على أدائه، خلال مقطع رائع عندما يتمكن من موازاة أستاذي أو حتى التفوق عليه. عندها يلتفت أستاذي نحوه ويبتسم ابتسامة طفيفة تعبيراً عن موافقته، أو يهز رأسه بصمت، إذ إن أستاذي كبير القلب وكريم جداً. إنه لا يفعل ذلك معي. أنا أجلس في الخلف، وأختفي تقريباً وراء معلمي ومرافقه. ليس لدي مقطع انفرادي أعزفه. أنا لا أتبع "الراغا" التي يعزفها الأستاذ ولا أدخل في أي نوع من المنافسة. طوال عزف "الراغا" أمرر أصابعي فوق الأوتار الثلاثة لطنبورتي، مرة بعد مرة، منتجاً نوعاً من النغم الرتيب لملء أية فجوة في الصوت، لوضع نوع من الطريق أو المسار لأستاذي كي لا يضل عن النوتات الأساسية "للراغا" التي أمسك به من خلالها. حيث أني لا أنافس، لا أطلب أن يُلفت الانتباه نحوي، لا أحاول أن أكون

غريمه في العزف، لذلك أعتقد أني مرافقه الحقيقي، وبالتأكيد صديقه الأصدق. قد لا يبتسم أو يهز رأسه معبراً عن رضاه عني. لكنه لا يستطيع أن يتدبر أمره من دوني. هذه كل المكافأة التي أحتاجها للبقاء معه كظله. لا يزعجني على الإطلاق عندما يقوم رام ناث، وهو خشن ومشعر ويهرش بطنه الكبير من تحت قميصه ويضع حلقات ذهبية في أذنيه كالغسالين، بوضع قدمه أمامي ليعثرني وأنا صاعد إلى المنصة، أو عندما أراه يلتهم كل "البولاو" على الطاولة ولا يترك لي سوى بعض الخبز البارد. أنا أعلم قيمته الحقيقة، أو عدمها، وأرمقه بنظرة توصل هذه الرسالة إليه.

مرة واحدة فقط اهتز فيها شعوري بالرضا. إني أخجل من إخباركم بها، فقد كنت مغفلاً. لقد دامت لفترة قصيرة، لكن لا زلت أشعر بالإحراج والغباء عندما أفكر فيها. كان أولئك الأصدقاء القدامى الفارغين الذين كانوا يلعبون بالكرات الزجاجية معي هم بالطبع من دفعني إليها. حالما وضعتهم ورائي، ما كان لي أن أنظر إلى الوراء. لكنهم أتوا إلي بعد جلسة تدريب في مدينتنا وقبل ساعات من الحفل. كانوا قد تسللوا إلى الصالة المظلمة وجلسوا في الصف الخلفي يدخنون ويرمون النكات ويضحكون بطريقة مكتومة لكنها رغم ذلك وصلت إلى المنصة وشتتت انتباه أولئك الذين لم يكونوا منغمسين في الموسيقا بما يكفي لجعلهم ينسون العالم الخارجي. بالطبع أنا والأستاذ لم نكن نسمح لانتباهنا بأن يتشتت وتابعنا الاهتمام بالموسيقا. إن القدرة على إيصاد أدمغتنا أمام أي شيء خارجي عندما نعزف كانت وجه شبه بيننا يشعرني بالفخر الكبير.

وعندما كنت أخرج من الصالة وجدت أنهم لا زالوا يقفون قرب الباب، مجموعة مختلفة من القمصان الملونة والضفائر المزينة والأحذية المبهرجة. تجمعوا حولي، وتعرفت إليهم فقط بسبب الأشياء التي قالوها حول ألعابنا في الشارع. أما من كل ناحية أخرى فقد كانوا مختلفين تماماً عني. كان من الواضح أننا سافرنا باتجاهات

متعاكسة. ألوان قمصانهم الرخيصة، وأصواتهم المرتفعة أشعرتني فوراً بالصداع وصعب علي الابتسام رغم أني كنت أعرف أن علي أن أكون متواضعاً وودوداً معهم كما كان فني وموقعي يحتمان علي. تركتهم يأخذونني إلى المقهى المجاور للصالة ويطلبون الشاي لي. تحدثنا لبعض الوقت حول الحي والألعاب، عن عائلاتنا وأصدقائنا. ثم قال واحد منهم – أعتقد أنه أجيت – "يا صاحبي، كنت تعزف بشكل جيد. كان أبوك فخوراً بك. كان يعتقد أنك ستصبح أستاذاً كبيراً. كان يقول لنا أنك ستصبح موسيقياً عظيماً – ذات يوم. ماذا تفعل، تجلس في خلفية المنصة وتعزف على الطنبورة لرحيم خان؟"

لم يكن أحد أبداً قد تحدث إلي بهذه الطريقة، منذ توفي أبي. سكبت الشاي على حضني. واهتز رأسي بطريقة لا إرادية. أحسست بالصدمة. وقفت تقريباً وفكرت بأني سأمسكه من حنجرته وأضغط عليها حتى تختنق كل تلك الكلمات والأفكار البشعة وتنزف إلى أن تصبح بيضاء وغير قادرة على الحراك مرة أخرى. لكني لست ذاك النوع من الرجال. أعرف أني ضعيف جداً. اكتفيت بنفض الشاي عن ملابسي ووقفت هناك محدقاً بقدمي. حدقت بصندلي القديم المهترئ الملوث بالشاي، بثيابي الفضفاضة المصنوعة من الكتان البيتي. قلت لنفسي أني كنت أعيش بشكل مختلف عنهم، كان هدفي وغايتي في الحياة مختلفين عن أي شيء يمكن لهؤلاء المتشردين الطائشين أن يفهموه بحيث لا يجب أن أفاجأ أو أنزعج من عدم وجود تفاهم بيننا.

"أي نوع من الآلات هي الطنبورة؟" كان أجيت لا يزال يقول بصوت مرتفع. "ليست حتى آلة مرافقة. إنها لا شيء. يمكن لأي كان أن يعزف عليها. مجرد ثلاث نوتات، مرة بعد مرة، بعد مرة. حتى أنا يمكن أن أعزف عليها." وأنهى حديثه بصرخة جعلت الآخرين يربتون على كتفه وينحنون حكماً على خفة دمه.

ثم انحنى هؤلاء باتجاهي. كان أكثرهم هدوءاً رغم أنه كان يرتدي قميصاً عليه أزهار أرجوانية وبيضاء وصبغ شاربه بلون الزنجبيل. كنت أعرف أنه سجن مرتين للسطو والسرقة. رغم ذلك تجرأ بالانحناء نحوي حتى كان يلمسني، وأن يقول، "عد يا صاحبي إلى السيتار. بإمكانك حتى أن تعزف على السارود والفينا. بإمكانك أن تصبح أستاذاً عظيماً مع بعض التدريب. نحن نقول هذا لمصلحتك. عندما تصبح شهيراً وتذهب إلى أميركا، ستشكرنا على هذه النصيحة. لماذا تقضي حياتك جالساً في خلفية المنصة تعزف على تلك الطنبورة البلهاء في حين يأخذ منك شخص آخر كل الشهرة والمال؟"

كان يبدو وكأنهم قرروا مهاجمتي. شعرت وكأنهم يتسلقون فوقي، يخنقونني، يمسكونني من شعري ويسحبونني إلى أسفل. كانت كلماتهم لكمات، والفكرة التي يطرحونها علي إهانة. شعرت أني مهزوم مدمر، وبآخر ما تبقى لي من قوة أبعدتهم عني وأبعدت الطاولة والفناجين والصحون وركضت خارجاً من المقهى. أعتقد أنهم لحقوا بي لأني كنت لا زلت أسمع أصواتهم تناديني وأنا أركض في الشارع، مصطدماً بالناس، وبالكاد متجنباً السقوط تحت العربات والباصات. كان ذلك بعد الظهر، وكان هناك زحام في الشارع، وحجب الغبار والدخان ضوء النهار الطبيعي. رأيت كل شيء شريراً، ووضيعاً، وغير أخلاقي، وبشعاً.

كنت أدفع كل شيء جانباً وأركض، وطوال الوقت كنت أفكر: هل هم على حق؟ هل كان بوسعي أن أعزف على السيتار؟ أو على السارود، أو الفينا؟ وأن أصبح أنا نفسي أستاذاً؟ لم يخطر هذا لي أبداً من قبل. لقد علمني أبي أن أعزف على كل هذه الآلات ووضعني تحت انضباط قاس، لكنه لم يمتدحني يوماً أو يلمح إلى أني يمكن أن أصبح موسيقياً من موسيقيي الصف الأول. كنت قد تعلمت العزف على هذه الآلات كما يتعلم ابن النجار أن يصنع الأسرّة والطاولات والرفوف، أو كما يتعلم ابن البقال أن يزن القمح ويبيعه ليحصل على المال. لكني كنت قد تدربت

على هذه الآلات وعزفت كل أشكال الراغا التي علمني إياها دون أن أفكر بها كفن أو بنفسي كفنان، ربما كنت صبياً غبياً متخلفاً. كان أبي يقول ذلك دائماً. والآن يقول لي هؤلاء الصبية الذين كانوا قد سمعوني أعزف في الصالة المظلمة في بيتنا في شارع الموسيقا إنه كان يمكن أن أكون أستاذاً أجلس في مركز المنصة، وأعزف لجمهور عظيم يصفق استحسانا لأدائي. هل كانوا محقين؟ هل كان ذلك صحيحاً؟ هل أضعت حياتي؟

بينما كنت أركض وأدفع الناس نصف باكٍ، كنت أفكر في هذه الأشياء للمرة الأولى في حياتي، وكانت أفكاراً مرعبة – كبيرة، وثقيلة، ومظلمة تهدد بتحطيمي وتدميري. وجدت نفسي مضغوطاً على سياج حديدي. أمسكت بقضبان السياج، ومن خلال الدموع نظرت إلى نباتات القنا المزهرة وصفوف النخيل الإمبراطوري المحيطة بحديقة المدينة المغبرة. تمسكت بتلك القضبان مجهشاً بالبكاء، إلى أن سمعت أحدهم يخاطبني – رجل شرطة ربما، أو متسول، أو عابر سبيل طيب. سألني، "هل أنت في مشكلة؟ "ورطت نفسك في شيء؟" لم أكن أرغب في التحدث إلى أحد. أبعدته عني دون أن أنظر إليه. وجدت البوابة ودخلت الحديقة، محاولاً أن أضبط نفسي وأرتب أفكاري.

وجدت ممراً بين بعض الشجيرات الطويلة، ومشيت جيئة وذهاباً، وحيداً، محاولاً التفكير. بعد أن بكيت أحسست بأني أهدأ وتحدثت إلى نفسي.

عندما التقيت أستاذي كنت صبياً في الخامسة عشرة – صبياً غبياً، متخلفاً كما كان أبي يقول دائماً. عندما مشيت إلى المنصة لأعطيه الطنبورة التي كان قد طلبها من أبي، رأيت العظمة في وجهه، هدوء، وحكمة، ولطف قائد حقيقي. وفوراً تمنيت ألاّ أسلّمه الطنبورة وحسب، بل حياتي بأكملها. أردت أن أقول، خذني وقدني. أرني كيف أعيش. دعني أعش معك، إلى جانبك، وساعدني، كن لطيفاً معي. لم أقل بالطبع هذه الكلمات. أخذ الطنبورة مني وطلب مني أن أعزف عليها معه. كان

هذا جوابه على الكلمات التي لم أقلها والتي سمعها رغم ذلك. "اعزف من أجلي" - وبهذه الكلمات خلقني، خلق حياتي، أعطاها شكلاً وتميزاً وغاية. كانت تلك لحظة ميلادي، وأصبح هو أبي وأمي. هو الذي أعطاني الحياة - أنا بهايا، عازف الطنبورة.

قبل ذلك لم يكن لي حياة، كنت لا شيء: مجرد طفل صغير متشرد جائع متسكع في الشوارع مع عاطلين متشردين آخرين. كنت أعزف الموسيقا لأن أبي أجبرني على ذلك، وعلمني بالضرب على أصابعي وشد أذني كلما ارتكبت خطأ. كنت قد سرقت المال والحلويات من أمي. كنت لا شيء. ولم يكن أحد يهتم لكوني لا شيء.

الأستاذ رحيم خان هو الذي رآني، مختبئاً بخجل في ظلال صالة فارغة حاملاً الطنبورة بين يدي، ودعاني أن آتي إليه وأراني ماذا أفعل بحياتي. أنا مدين له بكل شيء، بحياتي.

نعم، لقد كان قدري أن أعزف الطنبورة مع أستاذ عظيم، أن أجلس خلفه حيث لا يستطيع حتى أن يراني، وأعزف النوتات التي يحتاجها حتى لا يضل عن نطاق تأليفه عندما يعصف به الإلهام. أنا أعطيه، بهدوء ودون تطفل، المواد التي يعمل عليها. التي يؤلف معها موسيقاه العظيمة التي يحبه العالم أجمع من أجلها. نعم، أي شخص يمكن أن يعزف الطنبورة معه، أن يفعل ما أفعله أنا. لكنه لم يختر أي شخص آخر، اختارني أنا. لقد أعطاني قدري، حياتي. هل كان لي أن أرفضه؟ هل لمخلوق أن يرفض الله؟

أي معتوه يمكن أن يفعل ذلك؟ هذه الفكرة جعلتني ابتسم حتى أنا، بهايا، كنت قد علمت عندما دقت ساعة قدري. حتى الصبي المتخلف الفارغ القادم من الشوارع تعرّف على إلهه عندما التقاه. ما كان باستطاعتي أن أرفض. أخذت الطنبورة

وعزفت مع أستاذي، ولا زلت أعزف معه منذ ذلك الحين. ما كان بإمكاني أن أتمنى قدراً أفضل.

غادرت الحديقة، ولوّحت لعربة وأمرت سائقها أن يأخذني إلى أستاذي. لم يحدث في حياتي أن تكلمت بهذا الصوت المرتفع، بهذه الثقة التي تحدثت فيها عندها. لو أنكم سمعتموني. لو أن أستاذي سمعني.

□□□



سوغاندي تناجي ذاتها

تأليف : فايديهي

■ ترجمة : عيسى سمعان■

سوغاندي أمضت ليلها في السفر ووصلت أخيراً إلى مكانها المبتغى.

كان والدها قد قدم إلى محطة الحافلات لوداعها. بحث أولاً عن قاطع التذاكر وتحدث إليه بكل دماثة: "أترى، تلك هي ابنتي. إنها تسافر لوحدها. أرجوك أن تجلس إلى جوارها راكبة من بنات جنسها. ستسدي لي معروفاً حقيقياً بعملك هذا". ثم قفل راجعاً إلى سوغاندي وقال لها عبر النافذة: "لا تقلقي. الجابي شخص طيب. يقول إنه سيضع سيدة بجوارك".

ابتسمت سوغاندي في سرّها. "يا أبت، كم أنت قلق بشأني؟ ما الداعي لأن يساورني القلق؟" بالطبع لم تقل هذا. كانت تعجب فحسب للسبب الكامن وراء ابتسامتها الدائمة حين تكون على أهبة البكاء. حافظ الجابي على وعده. قصد زوجين كانا حجزا مقعدين متجاورين، وتوسل إلى الزوج، وحمله على الجلوس في مكان آخر ووضع زوجه في المقعد المجاور لسوغاندي.

نظرت سوغاندي إلى الرجل الذي كان سيجلس بجوارها. كان كثّ شعر الرأس. بدا أنه مقبول تماماً، هذا كل شيء. التفتت ورأت المرأة الجالسة بجوارها والتي اتضح أنها قالت شيئاً ما، لكن سوغاندي تظاهرت بأنها لم تسمع شيئاً. كانت تعلم أنها إن أجابت فستنطلق المرأة في حديث لن ينتهي إلا مع الصباح التالي. لم تكن مستعدة لمجرد أن تفهم أنها لم تكن بحاجة إلى أي كان للتحدث معه. لاح القمر في كبد

السماء.

جلست سوغاندي تتملى القمر .لم يكن من القمر سوى النصف. كان يهرع بدوره للحاق بالحافلة لكنه لم يستطع حقاً أن يفلح. كان سينحدر ويتلاشى دون أن يلحق بالحافلة قط. لكن أنا؟ عليّ أن أواصل الركض حتّى أصل إلى بغيتي بالتمام والكمال. ولوحدي. من دون أحد ليشملني برعايته. طفرت العبرات إلى مآقيها.

أو هل كان هو المطر ذاك الذي دخل من النافذة ثم إلى العين؟ مسحت عينيها.

لاح المنزل الذي كانت قد استأجرته أمامها.

كان هناك عدة مساكن لكن هذا المسكن، الموصد الباب، بدا أنه بانتظار من يأتي إليه. طفقت تفكّر: لعلي أنا أيضاً سأبدو كذاك المنزل. ولجت إلى الداخل وشاهدت أن كل شيء كان مرتباً وفي مكانه. لم تقع عيناها حتّى ولو على بيت عنكبوت، أو ذرة من غبار. كانت قد جاءت بقصد تمضية يوم على الأقل في التنظيف ونفض الغبار ومسح البيت. حتّى هذه الأشياء قد حرمت منها الآن. فصاحب المنزل، لا، صاحبة المنزل، وهي أرملة، كانت قد تولت كل هذه الأشياء. كانت قد فعلت ذلك لأن "المسكينة، وهي فتاة وحيدة" كانت ستحط رحلها هناك.

عندما قصدت هذا البيت أول مرة طلبت من صاحبة المنزل بكل وضوح أن تترك البيت على حاله.

"سأرتب البيت. لا تهتمي." تلك كانت كلماتها. لكن، هل كتب لها والدها أية رسالة؟" ابنتي ببراءة الأطفال. أرجوك، رتبي كل شيء. ولا تنسي أن تسخني الماء في الحمام. حتّى ولو وضعت إصبعك في فمها فإنها لن تعرف كيف تعضه" -هل كتب على هذا النحو؟ قضمت شفتيها حنقاً. لقد قدّم والدها كل تاريخ العائلة في أول لقاء لهما بالذات. "أترين، في هذا الشيء بالذات لم يحالفني النجاح. لم أستطع أن أقنعها بالزواج. أختاها الأصغر منها تزوجتا، أترين. لكن هي، لا.." بدأت خطوط الشفقة تغضّن وجه صاحبة المنزل.

كان والدي مسروراً وتابع، "انتبهي للفتاة. أسألك، ما هو الشيء الذي يعوزها؟ لا ينقصها شيء تجاه كل صنوف العمل. لعل اللحظة الميمونة خدعتنا. والحق أنني قلت لها: "أقيمي علاقة حب مع أحد أفراد طبقتك. هذا لا بأس ما دام يشغل وظيفة لائقة. لن أقف في طريقك. الواقع أنني سأحتفي بذلك".

ابتسم الوالد وتوقف. والسيدة صاحبة المنزل شاركته التبسّم. لكن سوغاندي التي تبتسم عادة كلما شعرت بأنها على أهبة البكاء لم تقو على الابتسام.

"لست أرغب تركها ولا في أي مكان لوحدها. لكنها كانت تلح. لقد سئمت البلدة التي نقطن فيها. كما أنها نقلت وظيفتها. وعليه فها أنت الآن أبوها، وأمها، وكل شيء (بابا، هذا كثير)". ذاب قلب صاحبة البيت ذوباً. لقد استطاعت سوغاندي مشاهدة ذوبه في وجهها. وأخيراً قالت:

"ليس الأمر بذي بال. لكن أنت تعلم الدنيا وأحوالها. ابنتك طيبة. لكن هل سيدعها العالم تحافظ على طيبتها؟ باسم الصداقة.."

تحدث الوالد بالضبط كما تهيأ لها أنه سيفعل: "أوه، لا، لا، ابنتنا سوغاندي! لن تسمح حتّى لظل رجل أن يسقط بجوارها. لقد قرّ رأيي على إرسالها لأنني أعرف كم هي طيبة وبمنأى عن كل إفساد. هل كنت مستعداً لأن أرسلها في صورة أخرى؟
"انقشعت الغيوم التي كانت تجمعت في وجه المرأة.

تابع الوالد: "صغرى بناتي عادت إلى البيت لتلزمه. والأمر يرتّب على زوجتي لزوم البيت، كما ترين. لكن ما إن ينتهي هذا الأمر حتى أعود بها. بالطبع تقول سوغاندي إنها ستبقى لوحدها. هذا بكل بساطة لن يتم، كما تعلمين. إذا ما أقامت هنا لوحدها لن يكون باستطاعتي النوم مطمئناً. أنت تعلمين الأولاد يعني مسؤولية.

لو كانت مكثت معنا لكانت ساعدت والدتها. لكن لا بأس".

هؤلاء الناس يضعونني على بساط البحث كما لو كنت قطعة خشب لا نفع فيها، ويبينون كما لو أنهم هم من يقررون مستقبلي، قبضت سوغاندي على إطار النافذة بشدة. لربما كان انكسر لو كان مصنوعاً من خشب.

"إذن، إن أمكن، ابحثي عن امرأة يمكنها أن تقيم معها أثناء الليل. سندفع لها أتعابها."

"هذا يسير. يمكنني أن أطلب من الطاهية عندي. لا تقلق لهذا الأمر".

على أية حال وافقت المرأة على تأجير البيت لنا. بعد وصولهما إلى البيت تحدث الوالد إلى الأم: "لا تقلقي مثقال ذرة بشأن سوغاندي، صاحبة المنزل امرأة غاية في الطيبة – أرملة.." "هل جال بخاطرهما أن كونها أرملة هو عين الصواب ذلك لأن ابنتهما كانت ستقيم في ذلك البيت لوحدها؟ لم تحر سوغاندي جواباً. كانت

تربط العنف بإطلاق الشوارب، والذراعين السمراوين، والعينين المدورتين الشبيهتين بالحامل الدوار. لكن الوالد بدا ذاك الرجل المهذب! شعرت سوغاندي بسخونة تسري في كل أنحاء جسمها.

الأب، في دور حارس الأمن، لم يكف عن الكلام، وأعاد صياغة ما كان قاله سابقاً كما لو أن الابنة ستضيع هناك بدونه أو كما لو أن البلدة بأجمعها ستتآمر على جعلها في النهاية حبلى. لم تكن الأم تختلف عنه كثيراً: هي أيضاً شعرت بالسعادة، وتنهدت ارتياحاً ومن ثمّ قالت: "أجل، يمكننا الآن أن نفكر بإرسالها لوحدها".

أقامت سوغاندي وسط هؤلاء القوم، تحتضن طموحاً صغيراً بأنها ستقطن لوحدها، في مكان ناءٍ. في ذلك المكان يمكنها أن تحافظ على هويتها، هكذا كان تفكيرها.

"لا يهم كيف تبدو المدينة أو كم هو ضئيل حجمها. لقد قدمت إلى مكان مختلف. لدي بيت خاص بي. ليس هناك أي إنسان في هذا البيت. الآن يمكنني أن أدفع العالم هذه الناحية أو تلك. بإمكاني أن آكل وألبس وأنام وأتجول دون أن يلازمني أحد كظلي.

"حريّ ألا ندع أختها تلد طفلتها قبل اثني عشر شهراً. فلتبق الأم هناك للعناية بها. يجب ألا تأتي هنا".

مثل هذه الأفكار كانت تعبر مخيلتها عندما كانت تضع ثيابها بكل أناقة على حبل الغسيل وتضفي على المطبخ بعض الترتيب. في الحمام كانت المياه الساخنة بانتظارها. استحمت، وارتدت ثيابها وألقت بنفسها على السرير الصغير وغفت. كانت الآن العصفورة التي فرّت من قفصها الذهبي في قصر كان يقع خلف التلال السبعة في حصن حصين.

قرع أحدهم الباب.

كانت هي المرة الأولى التي تسمع فيها صوت قرع وهي بمفردها. لماذا يسبب ذلك رعشة في القلب؟

اعترت يديها رجفة أثناء فتحها للباب. وإذا بها أمامها: صاحبة نزلها! مثل ماء أمام نار تشتعل!

"يا ابنتي، متى أتيت؟ هل أنت بحاجة لشيء؟ أرجوك لا تخجلي من الطلب. سأرسل طاهيتي لتمضية الليل معك".

"لا، أرجوك، لا تفعلي. لست خائفة. سأكون على ما يرام". كانت هي المرة الأولى التي تتحدث فيها بحزم.

"ماذا! هذا لن يتم. لا يمكنك البقاء بمفردك. ليس الأمر مزاحاً، كما تعلمين. وقد أوكل لي والدك مسؤولية الاهتمام بك. اعتبريني أماً لك. إذا رغبت أنا مستعدة للمجيء والنوم معك".

شعرت سوغاندي بالحرج، ولم تعرف كيف تجيب ب "لا".

وأخيراً قالت: "لا، لست خائفة. أرجوك، لا تقلقي بشأني". كم هو صعب أن أطلب منهم، من العالم، أن يتركوني وشأني؟

في المرآة الصغيرة على الحائط رأت صورة وجهها. أية براءة ثوت هناك! صعقت سوغاندي. "لا بد أن أغيّر –أغيّر صورتها"، كان يدور في خلدها. "لكن ماذا لو وضعتُ قناعاً؟ هل ابتسمت المرآة؟ لا بد أن أعمل على تغيير المرآة. هي تنطوي على خطب ما".

"هل أنصرف إذن؟ ناديني إن احتجت لشيء..."

"أبي –لكن لماذا هو وحده؟ –العالم بأجمعه سيقول بأن للسيدة قلباً من ذهب. لكن يبدو أن لا أحد قد أدرك الطريقة الماكرة التي تجردني بها من حريتي. لم؟ أو هل أن كل من يجردون الناس من حريتهم متشابهون؟ هل هذا ما قاله مدرس التاريخ عن البريطانيين؟ يبدو أن عقلي في تيه. أين هم البريطانيون وأين هي سيدة البيت؟

"أية وجبة سخية قد أرسلت! عندما كنت أتناولها شعرت أنني كنت أسبغ معنى خاطئاً على توسلها لي.

ربما كانت مجانبةً للصواب في رأيي. لكن ما يبعث مشاعر السرور فيّ هذه الطريقة في النظر إلى الأشياء.

يجب أن أفلت من الجميع. وقتها فقط يمكنني أن أرى نفسي على حقيقتها. وإلا غرقت في الصخب الذي يفتعلونه وفقدت هويتي. عندئذ عليّ أن أبحث عن نفسي".

أينع اليوم وذوى اليوم. وبدت الحال كما لو أنه لن يطلع نهار جديد، بل إنه سيتلاشى في ظلمة مطبقة.

واليوم التالي سيشهد انبلاج الحياة فيه من جديد كما لو أنه لم تكن هناك ظلمة. مثلما هو تفكير سوغاندي.

المكتب -البيت، البيت -المكتب، وفي الفاصل بينهما المطبخ والحمام، والمرآة، والمشط، والزيت والفستان -هل هذه عيشة؟

قرع على الباب. عند فتح الباب إما أن تكون صاحبة المنزل أو الطاهية أو بائع الحليب، والذي كان على غاية من الدماثة حتّى إنه لا ينظر إليك مباشرة. ثم؟ ثم ، لا أحد.

قال الأب: "أحبي أحداً ما. انتبهي لطبقته، ولتربيته ووظيفته. ومن يعلم بقصتك، كائناً من كان، يجب أن يحكي عنها بإعجاب. وبعد ذلك سأحتفل بالزواج.."

"يا أبت، قل لي، ما هو الحب؟"

لم تكف ماما عن الترداد: "كم ستبقين لوحدك؟ بعدنا، من سيعتني بك؟" تكلمت كما لو أنني كنت لوحدي باختياري، كما لو أنني لم أرغب في النوم مع رجل.

لكن، ماما، بودي لو يأتي أحدهم ويجبرني، يأخذني كما يأخذ النمر فريسته، عمياء -يلفني، يوثقني. إذا ما عرفت ماما أن هناك رغبات في ركن ما من أركان عقلي فإنها ستصبح إلى مريضة نفسية. ولقد بدأت أحتضن مثل هذه الأفكار عقب مجيئي إلى هذا المكان.

ليكن ما يكون. لماذا لم يحدث أن أحببت أي إنسان؟ لم يحبني أحد. لم؟ القطة تجرحك بأظافرها:

سوغاندي صاحبتنا لا تعلم كيف تجذب الرجل. إنها مرمّدة "ماذا قصدت بقولها؟ ذلك اليوم وقفتُ أمام المرآة. وددت أن ألقي نظري على هيئتي رغم أنني كنت أعتقد أن ذلك خطيّة. لكن الصورة في المرآة كانت تمتلك كل شيء، كان لديها من الحسن ما يكفي لجذب الرجال. حتى أنئذ...

"بعض الفتيات يغوين الصبيان بأعينهن. ذلك ما يفعلنه ويتزوجن. أمّا سوغاندي التي تجهل هذا الفن فقد بقيت عزباء". تلك كانت حكاية ماما المأساوية التي طرقت بها مسامع كل من زارها. هل أن أخواتي تزوجن لأنهن كن يعرفن كيف يغوين الشباب بأعينهن؟ هب أنني سألت ماما، "ماذا يعني دعوة الشاب بغمزة من

عينك؟"

نظرت سوغاندي إلى المرآة. أبانت بروز وتغضن كل تجعيدة في الوجه. أبقت على المرآة في مكان منخفض. لكنها لم تستطع أن ترى وجهها الآن. هل من السهولة بمكان إخفاء وجهك عن نفسك؟ مرة أخرى وضعت المرآة في مكانها الصحيح.

ذات يوم جاءت صاحبة المنزل وقالت: "إذا حدث أي شيء ما عليك سوى أن تصيحي، مفهوم "ماذا تعني" إذا حدث شيء ما"؟ لصوص، رجال؟ هل علي أن أصرخ إذا ما جاؤوا؟ لم تحر جواباً. نظرت إلى السقف فوقها. تهيأ لها أن لصاً أسود الوجه آت من السطح. "عليّ أن أصيح"، قالت لنفسها ومن ثمّ، وهي تنظر مباشرة في عينه أضافت، "ماذا بنيّتك أن تسرق؟" طرق مسامعها صوت السيدة: "يا صغيرتي، كيف حالك؟" نهضت وفتحت الباب.

لقد قطع ذلك عليها استغراقها في الأحلام بشكل فظ. دخلت صاحبة البيت، تحدثت في شتى المواضيع، ومن ثمّ قالت وهي تنظر إلى السقف: "لقد نويت أن أغلق تلك الفتحة في السطح، لكنني لم أفلح قط. في هذه الأيام كل شيء مكلف. لو كانت عائلة هي من يسكن هذا البيت لما ساورني القلق، لكنك مجرد فتاة وحيدة. يمكن لأي كان أن ينسلّ خلال فتحة السطح، كما تعلمين".

ودون أن تنبس ببنت شفة نظرت سوغاندي إلى السطح.

"أنت تعلمين، هذه الأيام أيام سوداء، في بعض الأحيان لا أخلد حتّى إلى النوم. ولكي أطلب من أحد إغلاق تلك الفتحة الصغيرة لا بد أن يكلفني ذلك مبلغاً محترماً من المال".

نظرت سوغاندي ثانية للأعلى.

"أنت موظفة تكسبين مالاً. لماذا لا تشاركين في نصف النفقة؟ يمكنك أن تحسمي ذلك من أجرتك، كما تعلمين. الشباب هو شيء تتطلب المحافظة عليه عناية كبيرة. ومن جهتي لا أريد أن يحدث لك أي خطب في سنوات شبابك". تنهدت صاحبة المنزل التي ما زال فيها بقية من شباب بعمق، شعرت سوغاندي أنها ترغب في قول: "لا لزوم لأن يكون تنهدي بعمق تنهدك، ليس بعد على أية حال"، لكنها غمغمت فقط قائلة: "لا، لا ضير في ذلك. لا إصلاحات. ليس الآن."

كلما عادت مساءً من الدائرة كانت تجد الباب مقفلاً –موصداً بشكل محكم كما في الصباح. كانت خطواتها تتباطأ عند رؤية الباب من بعد. كم ستطول سكناها دون أن يحدث أي شيء؟ ما كان باستطاعتها أن تخبر أحداً، حتّى ولا نفسها.

لحظة فتحها قفل الباب كانت تندفع للداخل وتبحث عمن لا يمكنها أن تقول. كانت تنظر تحت السرير، خلف باب المطبخ وفي الحمام. من يدري لو كان أحد يعرف أنها شابة لوحدها كان سيقتحم عليها البيت.

لكن لم يكن هناك أحد. كشرت الغرفة الخاوية في وجهها. كانت ترغب على الأقل لو أتى لص، وبعثر الأشياء بكل ما هنالك من فوضى.

ثمّ، يكون بإمكانها أن تسأل: "من هناك؟ من فعل كل هذا؟"

من الداخل سمعت "المواء". هرعت إلى داخل المطبخ، وهي تمسك دموعها. كانت الهرة قد أتت على الحليب وقفزت من خلال النافذة. ذهبت إلى كشك الحليب قبالة بيتها.

وكالعادة ناولها عبوة حليب دون أن ينظر إليها. عادت وانتظرت حتى يغلي الحليب. لم يحدث قط أن غلى خوف سوغاندي أو غلى وفاض. لقد غلى وتمترس بداخلها.....

أنا موظفة. يمكنني العيش لوحدي. لست بحاجة لأن أكون تحت جناح أي أحد. أنا العصفور الذي هرب من القفص الذهبي –سوغاندي تفكر بكل هذه الأشياء وتتذكر أنجالي، صديقتها في ا لمكتب التي تضطرم عيناها بالثقة والشجاعة. وهي تقول: "سوغاندي، الزواج ليس أمراً محتوماً، يمكن للفتاة منا أن تعيش من دون زوج". وهي أيضاً تقول "أجل" بينا إلى تصغي إلى حديثها. إنها تحسن الكلام وهي مقنعة في حديثها. في اللحظة التالية ليست على هذه الدرجة من اليقين. فهي تتأرجح، وتستسلم لذاتها السالفة. الشيء الوحيد هو أنها لا تظهر هزيمتها.

أنجالي جد واثقة وجد حرة. لمَ أنا على هذه الشاكلة؟ أو هل أن شاكلتي لها علاقة بالسن؟ تبتسم أنجالي:

"انظري، ليس للعقل حدود. يمكننا أن نجعله ضيقاً أو واسعاً. إنه بأيدينا".

"لا، يا أنجالي، ذهني مصاب بالخدر. فهو لا يتمدد ولا ينكمش. لقد استحال قطعة من الخشب". ليس بإمكانها الانفتاح. وهي تبغي أن تكون مثل أنجالي لكن

العقل يأبى أن يتعاون. عوضاً عن ذلك هو يطلب كل أنواع الأشياء. وإذا وجه بالصراخ والتعنيف فإنه يخلد للنوم. لكن وقتئذ لن يكون هناك أية أحلام أيضاً!

"أنجالي، دعيني أبقى على أحلامي، على الأقل. في أحلامي يدخل بائع الحليب أيضاً. وكما تعلمين، بشكل غير لائق، ثمّ، ذلك الجابي الذي شاهدته ذلك اليوم، وذلك الرجل الذي لم يجلس بجانبي.. وثم، هذا الرجل وذاك.. تلك العينان في الدائرة –أنت تعلمين لمن هما. غريبة هي طبيعة الأحلام. جسد هذا، وحاجبا ذاك وعينا آخر.. يا لروعة ذلك العالم الحلمي حيث يمكننا أن نتخيل الجمع بين الأشياء بأية طريقة.

أنجالي، قولي لي ألا يحصل لك مثل هذه الأحلام؟ هذه الأيام تشهد مناجاتها الذاتية رواجاً.

في الصباحات، وقبل المغادرة إلى الدائرة، نشرت ساريها (من اللباس الهندي – م) السميك من صنع النول اليدوي على علاقات مدلاة من السقف، كما لو أنها كانت تصنع مخبأ لكل من أراد المجيء والاختباء. فعلت ذلك كما لو أنها هي نفسها في غفلة عن أفكارها.

أنا من عائلة محتشمة جيدة التربية. لست أملك الشجاعة على التخلي عن حشمتي. لا بد أن يجردني أحد منها. أنا بحاجة لخبرة. أنا بحاجة لأفقد النفاق الذي يكتنف الأشياء. أنا بحاجة لأن أكون عارية –لكن على نحو لا تذهب الظنون بي كل مذهب. لكن لا يمكنك الوقوف في الشارع والصياح: "انظروا، هي ذي سوغاندي، فتاة تقطن حيكم. إنها هناك أمامكم مباشرة. أبإمكانكم أن تفهموها؟" هم يقولون بلغة الكاشي، في الغات، كانت العادة أن تعرض النساء في المزاد. إنما هل سبق وعرض إحساس امرأة بالحشمة للمزاد العلني بناء على طلبها؟ سيقول الناس، بالطبع، لو أنهم يسمعون بهذا الطلب: "لا أحد يحتضن أفكاراً كهذه. لا أحد ممن ينحدر من عائلة محتشمة".

على هذا النحو تحادثت سوغاندي مع نفسها في دهاليز عقلها. وكلما كانت تصل إلى مسامعها مثل هذه الأفكار كانت تؤنب ذاتها بشدة. "هذا زائد عن الحد. هذا طريق الخطيئة التي لا تغتفر".

كيف يمكن لأحد أن يرى أن هذه الأفكار كانت تجري سراعاً داخل عقلها؟ وجه بريء. عينان تعبتان قليلاً. فتاة حسنة القوام. عذبة اللسان. وظيفتها محترمة.

باستثناء أنها ليست متزوجة. ليس ما يقلقها خلاف ذلك -ماذا عسى أي شخص أن يقول عنها؟

ليس القمر يظهر في السماء وعليه فالليل جنّ، وسلب سوغاندي نومها. فهي تتلوى في فراشها. تلبث منتظرة. ترهف السمع علّ ضجة تبهج القلب تصدر من ناحية ما. لكن، باستثناء خشخشة الأوراق لشجرة أرز هملايا ليس هناك من صوت آخر. أحياناً يأتي صوت من الفئران أو الكلاب. طاهي صاحبة المنزل وهو عائد للبيت يصيح عبر النافذة: "أتحسبين أنه منتصف الليل! لا ليست مثل هذه الساعة المتأخرة إطلاقاً"

ويمشي في الجوار ضاحكاً. ثمّ تتذكر كلمات والدها. حتّى كلمات صاحبة المنزل في معرض التأكيد ليست بعد كل هذا وذاك مما يؤكد!

مثل سم ينتشر في الأرجاء تتفاقم الظلمة. يجب أن تنام في هدأة الليل مثل جثة هامدة. لا بد أن تحب النوم على هذا النحو.

...

ذلك اليوم كان يوم عطلة.

جاءت صاحبة المنزل في ساعة مبكرة وقالت: "سوغاندي، نحن مضطرون للسفر لما يقارب الأربعة أيام.

كيف ستبقين وحدك؟ أنت عليك أيضاً أن تطلبي إذناً وتغادري إلى مدينتك. لم تحصلي ولا على أية إجازة حتى الآن".

ثم استردت وجنتاها لونهما عندما سمعت أن صاحبة المنزل كانت مسافرة. وهذا بالطبع لم يكن ملحوظاً. ربما ذاك كان من بين الأسباب التي تشرح لماذا تجنبها العالم. ولو كانت سئلت عن هذا الأمر ماذا عساها تقول؟ كل ما كان بوسعها القول هو "كم أنتم جميعاً أغبياء!"

"سأبقى هنا. لا يمكنني التقدم بطلب إجازة. لن يضيرني البقاء. أرجوك سافري".

"يا ابنتي، لقد أناط بي والدك مسؤولية كبيرة. حتى وإن سافرت فإن قلبي سيبقى هنا ينتظر وينتظر قلقاً عليك". ظهرت على وجهها المصيبة المرعبة والوشيكة لكنها انسحبت كأن شيئاً لم يكن.

مدت سوغاندي جسمها على طوله على السرير الصغير وتنفست الصعداء.

هذه هي الجنة. لن أبرح هذا المكان وأذهب إلى أي مكان. ماذا سأفعل في البيت؟ أختي لديها طفلة من سن الثلاثة أشهر. ستجلس على السرير وتطعم وليدتها، وزوجها، إن كان موجوداً، سيكون جالساً بجانبها و...

لا. لا يوجد أي سبب وجيه للسفر والعودة إلى البيت.

سوغاندي أقعت، ووضعت ذراعيها بالقرب من صدرها وجلست كما لو كانت تطعم طفلاً. شعرت فجأة بدوار في الرأس. تملكها الخوف -خالت أن أحداً ما كان يراقبها. سقطت مباشرة على وجهها ونامت.

اليوم يوم عطلة. ألن يحدث أمر ما، أي شيء؟ والليلة؟ شعرت بفيض من عذب الهواجس يجتاح كامل كيانها.

.....

كم هي بطيئة ساعات اليوم! وأخيراً جنّ الليل. أرخى الليل سدوله. ليل على أهبة ابتلاعها. أصغت سوغاندي لوقع قدمي الليل وأخذت تتود.

وعلى أثر انتظار قرع على الباب منذ الصباح فقد أخذ منها التعب كل مأخذ. ليتني ولدت في تلك الأيام عندما كان صوت مزمار يعلن حضور كريشنا! لكن، أنا؟ فلندع كريشنا وشأنه، لا أعرف حتّى أن أميز صوت المزمار. لا أسمع سوى تنافر في النغمات.

وعلى مهل زحف النعاس وأغمض عينيها. كانت مرهقة ولعل هذا هو السبب الذي جعلها تنام ملء عينيها. لم تكد تبلغ الساعة الخامسة حتّى أدركت عمق النوم الذي نامته.

أحدهم يقرع الباب.

أفاقت سوغاندي.

لقد انتظرت هذا الشيء طوال اليوم.

إذن، حتّى باب بيتها شهد قرعاً في ساعات الصباح الباكرة المبللة بالقطر!

سوغاندي، وهي تتضور جوعاً لصوت ذلك القرع، لزمت فراشها، تنتظر أن تسمعه ثانية. تعالى الصوت أكثر. نادى أحد باسمها بصوت رخيم.

نهضت جالسة. من عساه يكون؟ الجسد الذي نسي الارتجاف العذب وغدا آلة

رجعت إليه حيويته ورسيس الدم عاد. سوغاندي، كما لو كانت في قبضة حمى، غمغمت قائلة:

"من هناك؟"

وكما لو أنها سكرانة ذهبت وفتحت الباب، وقلبها على وشك أن ينفجر بفعل التوقعات التي كانت على أهبة التحقق.

وهناك –

وقف والدها، ووراءه أمها، "ماما".

...

لم تذرف سوغاندي دمعاً.

لم تنفرج أسارير سوغاندي.

الطريق أمام بيتها امتدت خامدة وميتة كما لو أنها تسممت بسم ظلام ينشر عباءته.

□□□

ماساهني

تأليف : ب.ب. ساثي

■ ترجمة : د.نايف الياسين■

في اليوم الذي قدمت فيه رحيم بيبي إلى القرية كعروس حديثة الزواج، ذهبت نساء بيتنا لرؤيتها. وأخذت كلٌ منهن شيئاً ما كماساهني أو هدية، كي يسمح لها برؤية وجه العروس. أمي أعطتها سوارين لمعصميها. وعمتي أعطتها خلخالين لقدميها. وزوجة أخي الكبير أعطتها خاتمين صغيرين. وعندما عدن إلى البيت، أغدقن في مدحها إلى درجة أغرتنا، نحن الأطفال، برؤيتها.

قالت أمي، "يا للعينين! سوداوين ملتمعتين! كما أن العروس تبدو ذات طول باسق."

زوجة أخي، التي كانت مزهوة بنفسها قليلاً، قالت، "صحيح أن بشرتها تميل إلى البياض، إلاّ أن وجهها مليء بالبقع. ثم، إذا كان الشخص جالساً، كيف لنا أن نعرف اذا كان أعرج أو فيه أي عيب آخر؟"

أجابت أمي، "من قال إنها عرجاء؟ لقد قدمت باتجاهنا من داخل المنزل وكانت مشيتها طبيعية تماماً."

أضافت العمة، "إن البقع الأرجوانية على وجهها الأبيض تضيف إلى جمال..."

أخي الأكبر، الذي دخل فجأة ووقف بيننا، أكمل الجملة. "هذا جمال إغريقي، وزينة لقصر ملكي. عمن تتحدثون؟"

قالت أمي، "لقد أحضرت تلك المرأة الغسّالة العروس إلى البيت، كنا نتحدث عن عروس علم الدين. لقد ذهبنا إلى بيته لتقديم الهدايا. العروس جميلة جداً وبيضاء كالضوء."

كان لزوجة أخي الأكبر عينان جميلتان للغاية غير أن بشرتها كانت داكنة بعض الشيء، ثم إنها كانت قصيرة. نهضت واتجهت إلى داخل المنزل، والانزعاج باد عليها، وهي تقول، "على أي حال، إنها عروس رجل يقوم بغسل الثياب، وليست عروس رجل براهمي[1] أو راجبوتي[2]."

ردت العمة بسرعة، "لا شك أنها عروس رجل يغسل الثياب، لكن ألا يمكن للمرء أن يمتدح الجمال حتى ولو كان في طبقة اجتماعية أدنى؟"

استدارت زوجة أخي عائدة، وأجابت بحدة، "أحضري أختها لابنك." كانت الإشارة بوضوح إلى أخي. رغم ذلك فإنها لم تكن قد فهمت معنى عبارة "جمال إغريقي."

كانت أم علم الدين عمتنا أيضاً، لكن لتمييزها عن عمتنا نحن كنا ندعوها "العمة الغسّالة". في بعض الأحيان، وعندما كانتا تجلسان معاً، كنا ننادي، "عمة" وتستجيب كلتاهما معاً. كنا نضحك ونقفز في أرجاء البيت.

كانت قد مرت بضع سنين منذ كان والدي قد أحضر معه مهتابدين من ساروينسار في طريق عودته من جامو. واجه مشكلة في إيجاد سكن فطلب منه أبي أن يأتي إلى رامناغار. وعندما أتى أعطي قطعة من الأرض وبيتاً يعيش فيه. وتم تجنيده سباهياً[3] في القلعة. بدأ أبناؤه بغسل الملابس. وعندما تقاعد أعطي مكانه في القلعة لابنه الأكبر غولابدين، وأصبح ابنه الأصغر علم الدين يقوم بالغسيل. كان ابن غولابدين، شمسو، في مثل عمري. عندما كان علم الدين يحضر الألبسة المغسولة والمكوية إلى المنزل، كان شمسو يصطحبه حاملاً ملابسي. لم يجلس جد

---

[1] البراهمي هو أحد أفراد طبقة الكهنوت العليا عند الهندوس.

[2] الراجبوتي هو أحد أفراد الطبقة الهندوسية العسكرية الحاكمة والمالكة للأرض.

[3] السباهي هو الهندي المجند في الجيش الانكليزي.

شمسو متبطلاً في المنزل، فقد بدأ يعمل بالزراعة ويزرع محاصيل الأرز والذرة، كنا أنا وشمسو نتسلل إلى حقل مهتابدين ونقطف البازيلاء الخضراء ونستمتع بأكلها.

حظيت العروس الجديدة بالتدليل لثلاثة أو أربعة أيام. لكن كان عليها بعدها أن تشارك في أعمال المنزل. في ذلك اليوم، أخذت العمة الغسّالة كنتها معها إلى بئر القرية لإحضار المياه. كانت الكنة ترتدي حجاباً على وجهها يصل إلى حنجرتها، وكانت تحمل جرة على رأسها، جرة حديدية على قاعدة حمل الجرار. وكانت تلبس جراباً أخضر من الحرير الاصطناعي وصندلاً مطرزاً بشريط فضي. وحيث كانت تمشي وراء حماتها، بدت أطول منها بإنش ونصف الإنش.

كان البئر قريباً من المنزل. وكان الناس يأتون من أماكن قريبة وأماكن بعيدة لملء جرارهم. قبل أن تذهبا إلى البئر، أتت المرأتان إلى بيتنا وجعلت الحماة كنتها تلمس أقدام أمي وعمتي وزوجة أخي. وباركتها نساء بيتنا الثلاث وقلن "عسى أن تعيشي أنت وزوجك حياة سعيدة ومديدة." ثم ذهبتا إلى البئر، ملأتا جرارهما وقفلتا راجعتين باتجاه البيت. لكنهما كانتا قد أثارتا جدلاً جديداً في البيت في هذه الأثناء.

"مشية العروس رائعة، وكأنها طاووس يرقص." كانت أمي وعمتي امرأتين عجوزين من ذوي النيات الحسنة، وكانتا تقدّران الآخرين، كما لا تترددان في الإدانة اذا دعت الحاجة. لكن زوجة أخي كانت شابة، ولم تكن تحب أن تمتدح النساء الأخريات. قالت، "الطواويس لونها داكن وهي بيضاء. إن امتداحها شبيه بالقول إن البجعة ترقص."

أجابت العمة بحدّة، "وماذا نخسر إذا قلنا إن الطاووس أبيض."

بقيت زوجة أخي صامتة – إما لأنها لم تجد جواباً جاهزاً أو لأنها لم تعتقد أن هناك حاجة ملحّة لإطالة الجدل.

في اليوم التالي حضرت المرأتان إلى منزلنا في طريقهما إلى البئر وجلستا لبعض الحديث. استفسرت نساء بيتنا من الكنة عن موقع بيتها في سارويتسار.

قالت الحماة لكنتها، "هذه تدعى العمة الأكبر شاسي، وهذه تدعى العمة الأصغر تاي. هكذا يخاطبهما أبنائي، وعليك، أن تفعلي مثلهم. وهذه زوجة الابن الأكبر لبهابهي. كان زوجها وغولابدين في المدرسة معاً. أنا أناديها باسمها الأول، أما أنت فعليك بمناداتها بهابهي."

شرعت الكنة بوصف موقع بيت أبويها في ساروبنسار، "كنا نعيش إلى الشمال من المحلات التجارية في ساروبنسار، إلى اليسار إذا ذهبت من هنا."

شجعت النساء العروس الجديدة على قول بضع جمل أخرى. وبعد أن غادرت المرأتان، تركتا في أعقابهما موضوعاً جديداً للحديث.

"يا لحلاوة حديثها! كأنها عصفور في خميلة."

وهذا أعطى بهابهي فرصة للتعليق. قالت، "كنتن تقلن أشياء مماثلة عني أيضاً".

"لستِ أقل منها بأي حال. وصوتك أيضاً في غاية الحلاوة."

أرضى هذا ساريوبهابهي، ونسيت في الحال انزعاج وألم الأيام الماضية.

بعد بضعة أيام توقفت الحماة عن الحضور مع كنتها. لابد أنها كانت مشغولة بأعمال منزلية أخرى في ذلك الوقت. كانت رحيم بيبي تأتي إلى البئر مرتين في الصباح ومرة في المساء. وكنا نذهب إلى المدرسة ونراها في طريقنا. في أحد الأيام، وبينما تابع الأولاد طريقهم، تأخرت قليلاً. وصادفتها تأتي في الاتجاه المعاكس. وكانت تغطي وجهها كالمعتاد حتى الحنجرة. قلت بشيء من التردد، "رحيم بيبي، عليك أن تريني وجهك، فأنا صغير جداً".

تابعت رحيم بيبي في طريقها وقالت، "بهاوجي، إذا كنت تريد أن ترى وجهي فعليك تقديم ماساهني."

كنا نمشي في اتجاهين مختلفين ولم أستطع أن أرد عليها حيث أصبح بيننا مسافة.

وفي اليوم التالي تأخرت أيضاً. واجهتها وقلت، "رحيم بيبي، تريدين ماساهني، سأحضرها لك من أمي."

أجابت رحيم بيبي، "لا، ليس من شاشي. سأريك وجهي عندما تعطيني ماساهني من كسبك أنت. وحتى ذلك الوقت، لن أرفع الحجاب."

كانت رحيم بيبي حازمة فيما قالت. واحتفظت بحجابها لسنوات. خلال ثلاث سنوات، أنهيت الصف الثامن وذهبت إلى جامو لمتابعة دراستي. ومن جامو ذهبت إلى سريناغار ولم أستطع الذهاب إلى القرية لسنة ونصف. كنت الآن في الخامسة

عشرة من عمري ورسبت في الصف التاسع. عندما ذهبت إلى القرية خلال العطلة وقابلت بيبي، سألتني "بهاوجي، في أي صف تدرس الآن؟"

"الصف التاسع".

"لكنك كنت في الصف التاسع العام الماضي."

لم أجد ما أقوله. لم أتحمل الوقوف أمامها فمشيت وأنا أقول، "نعم، نعم".

ولسوء الحظ فقد رسبت في الصف التاسع مرة ثانية ولم أذهب إلى القرية لسنة كاملة. بعد ثلاث سنوات في الصف التاسع نجحت إلى العاشر وذهبت إلى القرية. وصادفت رحيم بيبي مرة أخرى. فسألتني، "لابد أنك أصبحت الآن في الكلية؟" "لا يا بهابهي. أنا في الصف العاشر الآن. سأنجح هذه المرة ثم سأجد عملاً. وسأرتب أمر الماساهني التي سأحضرها لك من أول راتب لي."

"لا، يابهاوجي. ضع راتبك الأول على قدمي شاشي. على شاشي أن تحصل على المال لتقدم القرابين للآلهة، عليها شراء أشياء للبوجا. سأنتظر الماساهني عاماً آخر."

"رحيم بيبي، لم أكن أعلم أن رؤية وجهك ستكون بمثل هذه الصعوبة."

"بهاوجي، كلما انتظرت أكثر، كلما زادت الرغبة. إن الرغبة في رؤية وجه لا تتلاشى بتجاوز عتبة الشباب. يتمنى المرء لو استطاع أن يستمر في النظر. أنت لا زلت صغيراً وفي هذا السن، يمر الشخص بالعديد من المنعطفات وتتلاشى الكثير من الرغبات لكني أرى أن لديك رغبة واحدة، وهي أن ترى وجهي. لماذا تريد أن تنتهي منها؟ دعها تصبح قوية عصية على الانكسار.

حتى ذلك الوقت كنت قد اعتقدت أن رؤية وجه رحيم بيبي هي شيء من التسلية، مجرد لعب. لكن الآن اتخذت هذه الرغبة في رؤية وجهها لوناً مختلفاً. كنت مصمماً أن أعطيها ماساهني من كسبي أنا.

القدر يفرض مساره. انتسبت إلى الكلية بعد تجاوز الصف العاشر. قضيت في الكلية ثلاث سنوات، ولم تتح لي الفرصة لكسب أي مال. وكان علي أن أترك الكلية بعد ثلاث سنوات وأعود إلى القرية للاهتمام بأرض العائلة، لأنه لم يكن هناك أحد سواي ليفعل ذلك. كان أبي قد توفي وتكفل آخرون بنفقات دراستي في الكلية. وبعد فترة قصيرة تزوجت أنا أيضاً. لكن رحيم بيبي لم ترفع حجابها. ولم أستطع أن

أعطيها ماساهني. وكلما التقيتها بين حين وآخر، كانت تردد، "بهاوجي، لن أرفع الحجاب دون أن تعطيني ماساهني".

كان الجميع يمتدحون رحيم بيبي بأنها جميلة جداً. لونها فاتح كامرأة بيضاء، وقوامها جذاب. وكانت زوجتي أيضاً تشعر بالغيرة من رحيم بيبي. كان صندل زوجتي لازال مطرزاً بخيط فضي في حين مرت العديد من السنوات منذ اهتراء صندل رحيم بيبي المطرز بخيط فضي، وتبعه الصندل المطرز بالخيط الأحمر، وتبعه صندل الجلد العادي التي تنتعله الآن منذ سنوات عدة. غير أن لون بشرتها وجمال وجهها استمر في إثارة بعض العواصف الهائجة في صدور العرائس اللاتي ينتعلن الصنادل المطرزة.

وذات يوم، قالت زوجتي، "لماذا تكلمك رحيم بيبي وهي ترتدي ذلك الحجاب الطويل على وجهها؟"

"سترفع رحيم بيبي الحجاب عن وجهها فقط عندما تأخذ ماساهني مني. أما عن كلامها معي، فهي تكلمني تماماً كما تكلمني ساريو بهابهي.

"ساريو بهابهي قريبتك، أما رحيم بيبي فهي مسلمة. ما علاقتك بها؟"

"يا عزيزتي، العلاقات بين الأخوة الذين يذكرون الآلهة بأسماء مختلفة لا تنقطع. علم الدين أخي تماماً كأخي الأكبر".

"قد تقول ذلك، إلاّ أن الناس لا يقولون ذلك."

"حسن، أنا لا أتبع ما يقوله الآخرون. أتمنى لو اتبع الآخرون ما أقوله".

"العالم كله يتبع ما يتبعه الناس".

"لكن هل فكرت مرة في أولئك الذين يتبعهم الناس؟"

لم تستطع الإجابة على هذا.

أتى شهر رمضان. وبدأ المسلمون صيامهم. سألت رحيم بيبي، "رحيم بيبي، ألا تصومين؟"

"لا أستطيع الصيام للعديد من الأيام. أصوم فقط ليوم واحد. أشعر بالجوع. لا مانع عندي أن آكل خبز الذرة وحسب، لكني لا أستطيع أن أبقى دون طعام."

"وفي أي يوم ستصومين؟"

"في اليوم الذي لا آتي فيه لإحضار الماء، يمكنك أن تستنتج أني صائمة."

"سأحضر لك الحلويات في ذلك اليوم كي تفطري عليها".

"لا، لا، لا يجوز أن تحضر لي الحلويات لأفطر. يجب أن يحضر الحلويات من يجب أن يحضرها."

"إذن، ما الذي يجوز أن أحضره؟"

"بالنسبة لك، الشيء الوحيد الذي يجوز أن تحضره هو الماساهني. وعندما أتلقاها سأرى القمر."

"حسن. استمري في رؤية القمر. بالنسبة لي، فإن القمر مغطى منذ زمن بكسوف حجابك؟

بعد حوالي ستة أشهر، بدأت رحيم بيبي تعاني من الحمى. أصبح شمسو يأتي الآن إلى البئر لأخذ المياه، وسألته عن صحة رحيم بيبي. على ما سمعت، فإن صحتها كانت تتدهور. تحولت الحمى إلى تيفوئيد، ثم إلى ذات الرئة. وازداد خطر المرض وأعلن الحكيم يأسه من حالتها. تم استدعاء طبيب لكنه أيضاً لم يقدم أي أمل.

في صبيحة أحد الأيام أتى شمسو راكضاً إلى بيتنا وقال لي، "منذ ليلة أمس وعمتي تغرق وتقول للجميع أن يذهبوا وينادوا بهاوجي. عندما قلت بأني سأذهب، قالت، "أخبر بهاوجي إني راحلة وأن عليه أن يأتي ليريني وجهه للمرة الأخيرة."

فهمت الأمر وانطلقت مباشرة أنا وشمسو. رأيت أن رحيم بيبي كانت مستلقية على ظهرها على الفراش وكان وجهها غير مغطى. كان وجهها أبيض على إطار أبيض، عينان سوداوان وبقع أرجوانية انتشرت على خديها ما ذكرني بتمثال إغريقي. وببطء أدارت بصرها نحوي وقالت بصوت خفيض، "بهاوجي، لقد نزعت حجابي اليوم لأحصل على الماساهني. يمكنك أن ترى وجهي اليوم. لقد علقت حياتي في عيني فقط لأرى وجهك. يجب أن تأتي إلى المقبرة وتضع حفنة من التراب على وجهي، وستكون هذه هي الماساهني التي تعطيني إياها. وإلا فسأحمل شوقي إلى الماساهني التي كنت ستعطيني إياها إلى قبري...".

□□□

القمر الكالح

تأليف : جانجادهار جادجيل

كتبت أصلاً بلغة ماراتهي

■ ترجمة : حصة المنيف ■

عن الإنكليزية

القطار يسرع عابراً منطقة أحرقتها كلياً حرارة الصيف اللاهبة، والركاب محشورون في المقاعد وقد اتخذت أجسادهم وضعيات غريبة شتّى وهم يجلسون في العربات المزدحمة. كانوا يلوون أجسامهم ويستديرون بحركات متباينة طمعاً في تأمين أي قدر من الراحة لأطرافهم المتعبة إلى درجة الألم. ولكنهم ما يلبثون أن يتخلّوا يائسين عن محاولاتهم تلك، حيث استسلم البعض منهم للنعاس وقد مالت رؤوسهم بسماجة على أكتاف آخرين. وأخذ البعض الآخر يمسحون العرق الذي يسيل على وجوههم وأعناقهم بأطراف عمائمهم. أحدهم كان يشرب الماء وأخذت الكتلة الظاهرة في عنقه تصعد وتهبط على نحو مزعج.

وجوه الرجال اكتست بلون الرماد اللزج بما علق بها من سخام، أما وجوه النساء فهي تبدو شاحبة خفيضة في حين يتطاير شعرهن الجاف الكامد بفعل هبات النسيم الجاف.

كانت الشمس تضربهم دونما رحمة عبر النوافذ وتحمل هبات الريح الساخنة سحابات الغبار معها.

جلست حانية الظهر تنحشر في العربة المزدحمة وهي تحتضن طفلاً غطته

بطرف ثوب الساري الذي ترتديه بحيث لا يظهر منه إلا ساقاه النحيلتان. كان الطفل ينشج ويرفس بقدميه كلما استفاق من نومه فتعمد للتربيت على رأسه حتى يغرق من جديد في نومه المضطرب. تجلس على حافة المقعد إلى جانبها ابنتاها الصغيرتان، كانتا نحيلتين غريبتي الشكل، لهما جبهتان ضيقتان، وأنف مفلطح يتسع عند نهايتيه على نحو غير مألوف، وشفتان غريبتان وذقن غائر إلى الوراء لا يكاد يبين. وهذا تقريباً هو كل ما لديها من ملامح.

إحداهن تكبر الأخرى قليلاً ولها بشرة أفتح من الأخرى ويكسو جسمها من اللحم ما يزيد قليلاً عما لدى أختها. غير أن الشقيقة الأكثر سمرة تبدي حيوية ويقظة أكبر في حين ترمش ذات البشرة الفاتحة بعينيها باستمرار. كانت الفتاتان قد أزيحتا تقريباً عن المقعد، إذ يطلب الركاب منهما الابتعاد قليلاً باستمرار، غير أن هذا لم يكن ليزعجهما حيث تعودتا على الانزعاج. كما أنهما كانتا غارقتين في حالة من الدهشة والإثارة الهائلة بفعل سفرهما في القطار بحيث تلتمع عيونهما استغراباً وهي تلتقط كل حركة تدور حولهما، ثم تتهامسان لتنقل كل منهما تعليقاتها إلى أذن الأخرى. يجلس والد الفتاتين قبالتهما وقد غلبه النعاس وأسند رأسه إلى ظهر مقعده. كان وجهه الثقيل يتلامع بما يسيل عليه من العرق، بينما يتدلى فكه بحيث يبدو بفمه المفتوح أكثر استعداداً للنكد.

كان متاعهم ملقى عند أقدامهم بين المقاعد. هنالك مطرة نحاسية للماء وحقيبتا سفر حديديتان يصعب وصفهما. إحدى الحقيبتين، وكانت أم المرأة قد أعطتها لها، لا تزال محافظة على بعض هيئتها، بينما الأخرى متداعية بالية، وقد فقد قفلها، بحيث استلزم الأمر ربطها بحبل. كانت هذه الحقيبة التي أعطيت للمرأة من قبل أم زوجها أكبر من أن تدفع تحت المقعد، ولذا ألقيت على أرض العربة بحيث كان من الصعب على المرأة أن تمدّ ساقيها. وعلاوة على ذلك ارتمت فوق تلك الحقيبة مرتبة ملفوفة وقد ظهرت من جوانبها ملابس وضعت بداخلها.

كانت المرأة تجلس إزاء النافذة، وهي دون الخامسة والعشرين من عمرها وإن كانت تبدو أصغر سناً. فجسمها يبدو وأنه قد توقف عن النمو قبل الأوان بحيث اتخذ مظهر فتاة صغيرة. وهي بسيطة الطوية كذلك كأنها طفلة، إذ لم تتح لها أيما فرصة للاستمتاع بحيوية الشباب وسن النضج، ولا يتوقع لها أن تجد هذه المتعة.

كانت ترتدي ثوب ساري حائل اللون، وهل يتوقع لها كأم لثلاثة أطفال أن تكون في حال أفضل؟ جلست باستكانة منحنية الكتفين، إذ تنحني فوق الطفل لتؤمن له استلقاءً مريحاً. لقد دأبت على الانحناء على هذه الصورة منذ سنوات وهي تحتضن الأطفال أو تقوم بأعمال المنزل بحيث أن انحناءها أصبح عادة متأصلة لديها. أما ثدياها فقد تدليا بحيث تبدوان على هيئة تثير الشفقة. كانت تبدو هشّة فاقدة الحيوية، شعرها منهك كامد. ونظراً لأن الطفل كان قد شد شعرها في إحدى نوبات تعكّر مزاجه فقد امتدت إحدى خصلاته على خدها بحيث بدت وكأنها ندبة.

كان الطفل يمصّ ثديها بين آونة وأخرى ليعتصر بعض قطرات من الحليب. أما الفتاتان فكانتا تلتقطان كل ما يدور حولهما بشغف وتتهامسان وهما تكوران يديهما حول فميهما وتتضاحكان. لمحت صغراهما طرف عمامة أحد الركاب وقد انفلتت وتدلت فوق أذنه.

هتفت: "يا أمي!" وهي تغطي فمها براحة يدها.

تساءلت الكبرى وهي تهزها من كتفيها: "ما بك؟"

هزت الصغرى إصبعها في إشارة إلى عمامة الرجل. غير أن أختها الأقل نباهة لم تفهم ما تعنيه، ولذا أخذت تهز كتف الأخرى التي أخذت تفهقه من جديد وتهز رأسها باعتداد دون أن تخبر شقيقتها عما لديها إلى أن كادت الدموع تطفر من عيني الأخت الكبرى تحرقاً. وحين اكتفت الصغرى من مناكفتها تنازلت أخيراً وتساءلت: "هل تريدين حقاً أن تعرفي؟"

أجابت الكبرى برجاء: "أجل! أجل!"

ولذا أخبرتها الصغرى عن الطرف المحلول من العمامة وأخذتا كلتاهما تتضاحكان واضعتين راحتيهما فوق فميهما دون أن تستطيعا كبح ضحكهما.

بقيتا تضحكان إلى أن لفتتا انتباه أمهما التي تملّكتها الغيرة، وهو ما كانتا تتطلعان له. لذا أخذت الأم تهز الكبرى من كتفها وهي تتساءل بصبر نافد: "ماذا هناك؟ قولي، ماذا هناك؟"

تساءلت هذه وهي تلتفت لأختها: "هل أخبرها؟"

أجابت الصغرى وهي تطلق قهقهة ماكرة: "ها، كلا لا تفعلي" فأخذت الكبرى

تقهقه أيضاً وهي تدفع يد أمها عن كتفها.

كانت الفتاتان تعاملان أمهما وكأنها أخت صغرى غبية، وهو ما يضفي المزيد من النكهة على حبورهما.

بدا الاكتئاب على الأم التي أحست بتفاهتها ووحدتها لأنهما لم يكشفا لها عن سرهما. أخذت تهزهما من كتفيهما راجية، ولكنهما أصرتا على إبداء المزيد من التمنّع وتابعتا الضحك وهما تقلبان أنظارهما.

فقدت المرأة أعصابها وصاحت بصوت بنت صغيرة: "ما هذا؟ لماذا لا تقولان لي؟"

أفزع صوتها الأب فاستفاق من غفوته ولوّح بيده عبر أنفه. وهنا تجمدت الأم فزعاً، وكذلك فعلت البنتان وأخذن جميعاً يحدقن بالرجل بخوف. غير أنه ما لبث أن غرق في غفوته من جديد لحسن الحظ فتبادلت الثلاثة الابتسامات فرحاً بسلامتهن من غضبه.

هتفت الصغرى بعد أن تجاوزت خوفها وهي تهز إصبعها في وجه أمها هازئة بها: "ها قد لاقت ما تستحقه من جزاء!"

زاد ذلك من غيظ الأم فقرصت إحدى الفتاتين التي تلوّت من الألم وكادت تصرخ. غير أنها توقفت عن ذلك وآثرت ألا تفعل، فالصراخ قد يوقظ والدهما فيعمد لشتم أمهما، بل وقد يصفعها صفعة حارقة على خدها، وهو ما لا تود المغامرة به. ولذا حافظت على هدوئها واكتفت بتوجيه نظرة ساخطة إلى أمها وهي تهز خنصرها في وجهها كناية عن أنها لن تكلمها بعد، وهذا ما كررته الصغرى وهما تدركان أنهما بذلك إنما تثيران الشعور بالتعاسة لديها.

نفخت المرأة خديها غضباً وسرحت بنظرها بعيداً..

لم يعاملها أحد قط كامرأة ناضجة بالغة. فزوجها يعاملها وكأنها طفلة حيناً وكخادمة مستعبدة حيناً آخر. لم يكن رجلاً شريراً في واقع الأمر ولكنه عنيد وأناني. أما أم زوجها والنساء الكبيرات في البيت فكن يصدرن لها الأوامر باستمرار. كانت تقضي معظم وقتها مع الأطفال، ولذا كان عليها أن تفهمهم، وهي تستطيع معهم فقط، أن تعبّر بحرية عما تفكر أو تشعر به، فلا عجب إذن إن كانت تتصرف

كطفلة.

ما لبثت الفتاتان أن نسيتا ذلك الفصل وبدأت عيونهما تبحث بشوق عن مصدر آخر يثيرهما، كانت عيونهما تكتسي بنظرة خبيثة تشبه نظرة سحلية وهي تبحث بتشوق عن فريسة لها.

لاحظتا فجأة أن رأس أبيهما ينحني ويزداد اندفاعاً نحو الأمام. أفزعهما ذلك فتشبثت إحداهما بالأخرى وهما تشبان أصابعهما بذراعي بعضهما البعض. أخذتا تمعنان النظر بالرأس الذي يزداد انحناءً وكأن سحراً مسّهما. اندفع رأساهما إلى الأمام بحركة غريبة تنم عن الإشفاق. كانت الصغرى أكثر جرأة فحاولت أن تمسّ ركبة أبيها لتدفعه للاستيقاظ. غير أن يدها لم تصل قط إلى ركبته وتلاشت الكلمات على شفتيها بينما ظل رأس الرجل ينحني أكثر فأكثر.

استفاق الطفل في تلك اللحظة ومط جسمه وبدأ يصرخ ويرفس بقدميه فحاولت المرأة الفزعة والبنتان تهدئته. دفعت المرأة بحلمتها في فمه غير أن الطفل تابع الصراخ.

جفل الرجل واستفاق من غفوته فتطامنت المرأة فوق الطفل وكأنها حيوان يتوقع ضربة، بينما رمشت البنتان بعينيهما. غير أن الحظ حالفهن هذه المرة إذ أن الرجل لم يفقد أعصابه بل اكتفى بالقول بصوت أجش: "حسناً، لماذا يبكي؟ هل ضربته؟"

دمدمت: "ولماذا أضربه؟"

"ماذا قلت؟ متى تتعلمين أن ترفعي صوتك وتتكلمي بوضوح"؟ قال ذلك بصوت أجش متعالٍ كما يفعل عندما يريد الاستهزاء بأحد تلاميذه الأغبياء.

استنبطت الفتاتان من نبرة كلامه أن مزاجه رائق، ولذا ابتسمتا بإذعان وهما تحسّان ببعض الارتياح.

اغتاظت المرأة، لا من زوجها بل من ابنتيها لأنهما تضاحكتا.. غير أنها ضبطت نفسها وقالت بصوت هادئ ينمّ عن الاحترام: "الجو حار هنا، ولهذا يبكي الطفل".

قال الأب مخاطباً الطفل: "إذن فأنت تشعر بالحر، أليس كذلك؟ ماذا يمكنك أن تفعل وأنت ملفوف بكليّتك بثوب الساري؟ "ردد قوله هذا بصوت مرتفع مرات عدة

وهو يريد لزوجته وللآخرين أن يدركوا مدى غبائها.

لم تكن به حاجة لذلك فلقد تقبلت أنها إنسانة غبية منذ وقت طويل. أخذ الرجل الطفل . ولده الوحيد . بحنو. مسح وجه الطفل المتعرق بطرف مئزره وأوقفه إلى جانب النافذة. فرح الطفل بالهواء الذي أخذ يصل إليه وبما يشهده من مناظر تمر أمامه فأخذ يداعب قضبان النافذة.

قال الأب محاولاً التأكيد على ما قال: "أترين كم أصبح فرحاً"؟ ابتسمت المرأة ابتسامة واهنة. أجل، إنها امرأة غبية، أليست كذلك؟ لماذا تحتج إذن؟

أخذ الأب الفخور يداعب ابنه بحب وتلاطف وسرور واضح بينما أخذت الأم والفتاتان ترمقانه باستسلام وفرح. كنّ مقتنعات جميعاً بأن من اللطيف أن تداعب طفلاً وإن كن يجدن عادة أن إدخال السرور إلى قلب طفل هو أمر متعب. أخذت الفتاتان تداعبان الطفل. تساءلت إحدى الفتاتين وهي تمد ذراعيها نحوه: "تعال إلي!" ولكن الطفل حرن ولم يستجب.

حاولت الطفلة الأخرى إغراءه بأساليب مختلفة فلم تجد منه إلا صرخات الاحتجاج فصفع الأب ابنته تحبباً وهو يقول: "لا تضايقيه".

تضاحكوا جميعاً وإن كانت المرأة شعرت بغيرة لا تستطيع لها تفسيراً. تمنت لو أنها تصرفت بغباء لتتلقى صفعة التحبب تلك. إنها فكرة غبية، وهي تدرك ذلك. فهذه على أية حال ليست الطريقة التي يعامل بها زوج زوجته. حاولت أن تتناسى ذلك وسرحت بناظريها عبر النافذة. استشعرت لوهلة الإحساس الممتع بالسرعة، ذكرها ذلك بطفولتها حين كانت الأرجوحة تعلو بها ورفيقاتها. كن حينذاك يغنين بأصوات مرتفعة بحيث تتناغم أغنياتهن مع إيقاع انطلاق الأرجوحة. تذكرت ذلك النغم وأخذت تدندن به وتسبح مع النسيم. كانت تطفو حاملة معها ذكريات سعادة غامرة بالنشوة لدرجة تبعث لديها شعوراً بألم ممض.

ظلت تسرح مع أنسام السعادة تلك لوهلة من الزمن، وبدا كل شيء ساحراً، رأت بيتاً صغيراً . يشبه تماماً ذلك البيت الذي كانت قد بنته لنفسها في أحلام طفولتها.

صاحت: "انظروا ما أجمل هذا البيت الصغير"

سرورها أدهش زوجها وأزعجه. نظر إلى البيت وقال بنبرة واقعية متعالية: "ما

المثير فيه؟ كأي بيت آخر،ليس تاج محل، مجرد بيت عادي. ما المثير فيه"؟.

قال ذلك بلهجة هازئة وبصوت عالٍ لكي يسمعه الجميع ويقدروا حكمته. لم يلق له بالاً أي من الركاب غير أنه لم يكن ليسمح لملاحظته الحكيمة أن تمر مرور الكرام، ولذا حدّق بابنتيه وتساءل: ما رأيكن يا بنات؟"

تضاحكت الفتاتان بارتباك. غير أنه لم يرتح لهذا الإذعان، وبدا له أنهما لم تدركا ماذا يعني، ولذا كرر كلامه من جديد وهو يؤكد على كلماته لكي يظهر معرفته بالمعالم المرموقة مثل تاج محل وجهل زوجته بما يتجاوز أمور المنزل البسيطة.

لماذا يفعل ذلك؟ لماذا؟ لم تسأل هذا السؤال لنفسها بل اكتفت بالجلوس وقد بدت عليها علائم البؤس وكأنها طائر حبيس معذب، غير أن ذلك لم يرض الزوج الذي يجد سعادة سادية في إثارة تعاستها ومحو شخصيتها.

استدار نحو ابنه ليسأله: "من الغبي يا حبيبي؟ من الغبي؟ كان من الواضح أنه يريد لابنه أن يشير إلى زوجته، غير أن الطفل استدار بصورة غير متوقعة وأشار إليه.

صاح الرجل وهو يحاول أن يجعل من الأمر نكتة قائلاً: "أنت، أنت!" انفجرت المرأة في نوبة من الضحك الهستيري. نسيت نفسها تماماً وغرقت في بركة من الحبور الطفولي.

اغتاظ الزوج وحاول أن يرسم ابتسامةً على وجهه. غير أن المرأة تابعت الضحك وكان ضحكها مجلجلاً مستمراً بحيث لم تعد تستطع وقفه.

كان هذا فوق طاقة احتمال الزوج.

صاح: "كفى! ما المضحك في الأمر؟ لماذا تضحكين وكأنك حمارة؟" نمّت نبرته عن التهديد ولذا تجمدت الضحكة فجأة على شفتيها.

اختفى المرح المزيد على حين غرّة وبدا وكأنها عادت من جديد إلى قفصها. جلست وقد أحنت كتفيها بينما استعاد الزوج طمأنينته وسروره. ولكي يحسم الموقف نهائياً هدر قائلاً: "خذي الطفل، هل يمكنك ذلك؟ كما أن الوقت حان لكي يتناول بعض الطعام. نظفي وجه الطفل، ألا ترين أنه قذر؟"

أخذت تؤدي كلاً من هذه الأشغال بإذعان. صبّت بعض الماء على قطعة قماش ومسحت وجه الطفل، ثم نظفت أنفه بكل رقة لكي لا يصرخ وتتيح فرصة أخرى أمام زوجها لتوبيخها. ثم رجت الفتاتين أن تحملا الطفل لكي تعطيهم الطعام.. فتحت علبة نحاسية ووضعت ما ستأكله كل من الفتاتين على قطعة من الورق، وحرصت على أن تحوي قطعتا الورق صوراً لكي لا تتخاصم الفتاتان جرّاء ذلك.

كانت إحداهما تحب "الكارانجي" ولذلك وضعت لها قطعة إضافية منه، بينما كانت الأخرى تحب "الشاكالي" فقدمت لها بدورها قطعة إضافية منه، ناولت زوجها قطعة ورق وقربت العلبة منه لكي يتناول ما يشاء حيث أنه سيخطئها مهما قدمت له.

كانت بذلك تحاول إرضاء الجميع. وعندما لم يعودوا يحتاجون لخدماتها وضعت لنفسها بعض القطع الخفيفة من الطعام على قطعة ورق وأخذت تأكل وقد اكتسى وجهها بتعبير يومئ بالإحساس بالذنب. وبما أن أم زوجها اعتادت ألا تعطيها من الطعام ما يكفيها فإن تناولها أقل مما تريد أصبح عادة متأصلة لديها .كان عليها أيضاً أن تعتني بالطفل بينما هي تأكل، ولذا كان من المستحيل عليها أن تستمتع وهي تتناول طعامها. ولكن ذلك لا يهم، فهي تعرف مكانها وقد تقبلت دورها، وليس يمكنها أن تتطلب أي أمر من أحد.

أخذت تفكر وهي تأكل بما ينتظرها من أشغال، إذ سيصلون إلى البيت في وقت متأخر من الليل ولن يكون بالإمكان حينذاك الحصول على حليب. غير أن من الواجب توفير الطعام للطفل وإلا فإنه سيئن ويبكي وهو ما سيغيظ زوجها. ولن يكون بإمكانها أن تحضر ما يزيد عن طعام سريع وهو ما قد لا يرضي زوجها أو بنتيها. من المؤكد أن زوجها سيرفض أن يأكل إن لم تقدم له المخلل. أما البنت الصغرى فلن تمس الطعام إن لم يقدم لها الكاري اللذيذ. ولكن ماذا يمكنها أن تفعل؟

ظلت هذه الأفكار تدور في ذهنها والقطار يسرع في طريقه. غطست الشمس في الأفق الغربي ونشر نسيم المساء نوعاً من البرودة في الجو، والركاب الذين خنقتهم حرارة الظهيرة عادوا إلى الحياة من جديد. حيث أخذوا يتثاءبون ويبسطون ظهورهم ويبدأون بالكلام. أما هي فقد شاركتهم شعورهم السائد بالراحة حيث رتبت شعرها بمسحة من يدها.

توقف القطار في إحدى المحطات وكان هنالك بائع متجول يبيع الحلوى المثلجة على الرصيف. ضغطت البنتان بأنفيهما على قضبان النافذة وأخذتا تحدقان بالبائع بنهم، وأمعنت المرأة نظرها به أيضاً عبر النافذة وهي ترمقه بأمل، وكنّ ثلاثتهن يوجهن نظرات من زوايا عيونهن إلى عميد العائلة..

كانت الصغرى أجرأهن، فبادرت أمها متسائلة وهي تتظاهر بالبراءة: "يبيع هذا الرجل الحلوى المثلجة، أليس كذلك؟"

أجابت الأم: "لا أدري، لماذا لا تسألين أباك؟"

رمقت الأم والبنت بعضهما بعضاً بنظرة خفية.

انطلت الحيلة على الأب فقال: .

"أجل هذا الرجل يبيع الحلوى المثلجة فعلاً.. ما رأيكما يا بنات؟ هل تريدان بعضاً منها؟"

تضاحكت الفتاتان وهما تضغطان بأنفيهما على قضبان النافذة. أما الأم فلم يذكرها أحد وظلت تحدق بأنواع الحلوى المثلجة. تجاهلت البنت الصغرى تلك النظرة غير أن الكبرى أشفقت على أمها.

قالت: "أبي، أعط واحدة لأمي".

نظر الرجل إلى زوجته وتساءل: "ماذا ترين؟ هل تريدين واحدة؟"

أجابت محتجة: "لا، ما حاجتي بالحلوى؟"

قالت البنت: "لا تستمع لها. إنها تود الحصول على واحدة، أعرف ذلك!"

هدر الأب وهو يبتاع لها لوحاً من الحلوى أيضاً: "لماذا لا تقولين ذلك إذن؟"

تقبلتها المرأة وأخذت تمصّها وقد غمرها شعور بالذنب. كان مذاقها حلواً بارداً، تريثت لتسمح لذلك الإحساس بأن يغوص في أعماقها. ثم فتحت فمها لكي تمص اللوح من جديد، غير أن الطفل الذي كان يحدّق باهتمام بذلك الشيء الملّون مد يده محاولاً الإمساك به. انزلق لوح الحلوى من يدها ووقع على الأرض دون أن يصل إلى فم المرأة الذي كان بانتظاره.

حلّت بالمرأة نوبة غضب جنونية. يكفيها ما لاقته من أطفالها ومن ذلك البيت البائس. كانت تريد أن ترمي الطفل بين ذراعي الأب وتصرخ في وجهه قائلة: "خذ

أطفالك! يمكن أن تفعل بهم ما شئت، أما أنا فيكفي ما لاقيت، هل تفهم؟ هذا يكفي!"

كانت تود أن تنزل من القطار وتمضي. ستسير وتسير إلى أن تسقط على الأرض جثة هامدة. لم يعد هنالك ما يهم بعد.

لم تفعل شيئاً من هذا القبيل بالطبع. نفّست عما بداخلها لوهلة، وهذا هو كل ما هنالك، وبعد تلك الموجة الوحشية من الغضب الحيواني هبطت من جديد لتعود إلى جحر وجودها المظلم.

دخلت امرأة العربة في تلك اللحظة بالذات، وكانت في نفس عمر أم الأطفال الثلاثة تقريباً، وإن كان يبدو عليها الارتياح والثقة بالنفس. أمرت الحمّال بترتيب أمتعتها على الرف، وعندما بدأ يطالب بأجرة مُبالَغ بها نهرته بلهجة جافة. وبعد أن مضى الحمّال أخذت تنظر حولها باحثة عن مقعد. توجهت الأنظار جميعاً إليها ولكنها تجاهلتهم كلياً.

أخذت أم الأطفال الثلاثة تنظر إلى هذه المرأة بإمعان وقد سحرتها الطريقة التي تتصرف بها، وبحركة أوتوماتيكية رتبت ثوب الساري الذي ترتديه وكذلك شعرها، واكتسى وجهها بتعبير ينّم عن المزيد من الغباء والشعور بالذنب.

قالت: "يبدو كأنها طبيبة!" فكل امرأة لديها مستوصف أو تدير دار ولادة تملكها كانت تمثل في نظرها قمة تحقيق الذات لدى الأنثى. رمقت زوجها بنظرة تساؤل.

جفل زوجها إذ ضبطته يحدق بنهم بتلك المرأة، ولذا حاول أن يبدي عدم اكتراثه وازدراءه فأجاب "كلام فراغ، لا يمكن لها أن تكون طبيبة، أعتقد أنها مجرد ممرضة أو معلمة ابتدائي. تدّعي فقط، وهذا هو كل ما هنالك. تعرفين كيف تجري الأمور في هذا الزمن".

تقدمت المرأة الأنيقة باتجاههم وطلبت من الرجل بلهجة جافة بعض الشيء أن يبتعد ليفسح لها مكاناً.. كان يحتل مساحة مقعدين في قطار مزدحم، وعبرت لهجتها عن احتجاج على موقفه الذي ينم عن القسوة إزاء الركاب الآخرين.

ذهلت زوجة الرجل وغمرها الرعب مما سيحلّ بالمرأة الأخرى فزوجها سيوبخها دون شك، حبست أنفاسها وهي تتوقع رد زوجها المفحم.

غير أن الأمور اتخذت منحىً آخر إذ انسحب زوجها منكمشاً وهو يقول:

"مؤكد، مؤكد! تفضلي بالجلوس".

اضطربت زوجة الرجل وغشيتها الحيرة. فلقد قلصت هذه المرأة زوجها من عملاق لتجعل منه إنساناً وجلاً ضئيل الحجم. حدقت في المرأة بوجل يختلط بشعور من الامتعاض.

غير أن تلك النظرة كانت قصيرة الأجل، فقد لاحظت أن جبهة المرأة الأنيقة تخلو من دائرة "الكمكم". هي أرملة إذن، أرملة بائسة تعسة.

ما لبثت أن رسمت لنفسها تلك الصورة التقليدية للأرملة وهي تحدّق بالمرأة. ولكنها شكت بالأمر، إذ لم تكن تبدو على وجه المرأة إمارات التعاسة، لم تكن نظرتها نظرة إنسانة يغمرها الشعور بالذل والحرمان.

نسج ذهنها أفكاراً مشوشة لبعض الوقت، ثم ما لبثت أن التمعت في دماغها فجأة شكوك سوداء، أتكون هذه المرأة الأنيقة واحدة من "إياهن"؟

أحاطت كتفي ابنتيها بذراعيها بصورة لا إرادية وكأنما تحميهما، وعبست في وجه المرأة وكست محياها مشاعر الشكوك والاحتقار.

لم تلحظ المرأة الأنيقة نظرتها تلك، إذ لا يمكن أن يخطر ببالها بأن مثل هذه المخلوقة البائسة التي تبدو عديمة القيمة لديها مثل هذا الشعور إزاءها. بل إنها لم تكن لتكترث أيما اكتراث لو أنها لاحظت تلك النظرة.

بعد مرور فترة من الزمن أخرجت المرأة بعض "البسكويت" من حقيبتها. وحين رأت الطفلتين قدمت لهما بعضاً منه كما هي العادة. مدت الفتاتان يديهما وهما تراقبان والدهما متسائلتين عن رد فعله.

أبعدت أمهما يديهما بغضب، فهي تود أن تدرك تلك المرأة حقيقة نظرتها لها غير أن رد فعل زوجها، ولعجبها، كان مختلفاً إذ ابتسم ابتسامة عريضة وقال: "هيا يا بنات! خذا ما تقدمه لكما هذه السيدة اللطيفة"

تقبلت الفتاتان البسكويت وظلت أمهما تراقبهما بوجل.

غمرت الابتسامات وجه الزوج وأخذ يحاول الدخول في حديث، أما المرأة فقد انتابتها موجات مغص نابعة عن خوف تشنجي. ظنت للحظة أن هذه المرأة الماكرة تنصب شباكها حول زوجها محاولة انتزاعه منها. غير أنه سرعان ما تبين لها أن

المرأة لا تستجيب لمحاولات زوجها كسر جليد الحديث، بل نأت بنفسها بجفاء وقابلت محاولاته بازدراء مما اضطره إلى الصمت: استعادت الأم بذلك طمأنينتها، غير أن ذلك لم يدخل السرور على قلبها إذ طغى عليها شعور بضرورة حماية عائلتها ولم يعجبها ازدراء المرأة الأنيقة لزوجها.

لم تطل المرأة النظر إلى أي شخص بالذات بل جلست هادئة لبعض الوقت. ثم ما لبثت أن أظهرت اهتماماً بالفتاتين. ابتسمت ثم ربتت على تلك القريبة منها وسألتها: "هل تذهبين إلى المدرسة؟ هل هي مدرسة جيدة؟ هل تستخدم المعلمة العصا لعقاب الأطفال؟ حسناً، هذا ما كانت تفعله معي". وتابعت حديثها على هذا النحو اللطيف.

أذاب ذلك بعض الجليد لدى أم البنتين، فهذا حديث امرأة لطيفة حسنة التربية. النساء المتهتكات لا يتكلمن بهذه الطريقة بالتأكيد. لم يسع المرأة إلا أن تشعر بالسعادة للطريقة التي كانت البنت الصغرى تجيب بها على تلك الأسئلة.. لا شك بأنها نبيهة.

ما لبثت أن تساءلت وهي تشير إلى الطفل: "هل تلك أختك الصغرى"؟ كانت تتحدث إلى البنتين وإن كان السؤال موجهاً للأم.

أجابت الأم بنبرة فخر واضحة: "إنه أخوهما الصغير".

"حقاً؟ هل يمكنني رؤية هذا الصغير اللطيف؟"

أزال ذلك آخر أمر للحنق في ذهن المرأة التي ناولت الطفل باعتزاز للمرأة الأخرى.

لاطفت المرأة الأنيقة الطفل وقبلته على خده مع أنه لم يكن نظيفاً جداً، وهو ماحسم الأمر نهائياً. لاشك بأن هذا سلوك امرأة جيدة تربت في عائلة حسنة تتمسك بالتقاليد. قالت المرأة الأنيقة: "أحب الأطفال، وقد قضيت إجازتي في بيت عمي الذي يضم عدداً كبيراً من الأطفال وكان وقتاً رائعاً".

طرح ذلك بالطبع السؤال فيمن يكون عمها، والسؤال جرّ السؤال، تماماً كما يتم عندما تتحدث النساء مع بعضهن البعض. وسرعان ما عرفت أم الأطفال الثلاثة كل شيء عن المرأة الأخرى. فلقد مات زوجها مع الأسف بعد وقت قصير من زواجها،

ولم يستسغ والدها أن تصرف بقية عمرها وهي تكدح في أعمال المنزل في بيت العائلة. ولذا طلب منها أن تأخذ دورات في التمريض، وهذا ما فعلت.. وهي الآن تحتل وظيفة حسنة تكسب منها جيداً وتفعل ما تحبه وتستمتع بوقتها. أما أقاربها فهم يحبونها ويدعونها لقضاء إجازتها معهم.

نظرت المرأة الأنيقة في ساعتها وقالت وهي تبتسم "سنصل إلى المحطة القادمة بعد دقائق قليلة".. ثم نظرت في مرآتها الصغيرة ورتبت شعرها ونثرت "البودرة" على وجهها وفاحت في الجو رائحة عطر رقيق. كانت عيناها تومضان وتنمان عن الترقب.

انغمست أم الأطفال الثلاثة في الصمت وشعرت بالغيرة من المرأة الأخرى. يبدو وكأنها تملك كل المال والحرية والسعادة التي تشتهي. لم تتحمل عبء أطفال ولم تجبر على الخنوع أمام زوج.

راودت أم الأطفال الثلاثة حينذاك فكرة مريعة، ولو لبرهة وجيزة، فكرت بأن من اللذيذ للمرأة بالتأكيد أن تصبح أرملة. لا شك بأنها ستجد متعة بالغة في ذلك.

ولكنها سرعان ما أدركت كم كانت فكرتها تلك فظيعة ومريعة فهي تنتهك كل ما تعلمت تقديسه والإيمان به. وهي تسفه كل ما عاشت وكدحت كدح العبيد من أجله. ألا يعتبر هذا المنحى من التفكير لدى زوجة هندوسية تقية بمثابة خطيئة كبرى لا تغتفر؟ غير أن الفكرة ظلت تلاحقها مرة بعد مرة رغم كل محاولاتها طردها من ذهنها.

توقف القطار في المحطة التالية وأخذت المرأة الأنيقة تمعن النظر عبر النافذة. لوّح شاب فارع الطول حسن الهيئة بيده وهو يصيح "فيمال".

"أوه شام!" هتفت المرأة وهي تلوح بمنديل صغير تحية له. تقدم الشاب نحو النافذة وأمسك بيدها، ثم قفز إلى العربة حيث احتلا معاً المقعدين المحاذيين للنافذة.

كانا يجلسان خلف أم الأطفال الثلاثة. لم تكن تراهما ولكنها تستطيع سماع ثرثرتهما اللطيفة، بل تكاد ترى كيف تتراقص عيونهما ويتألق وجهاهما. سعادتهما مست ألماً عميقاً في قلبها، ألماً بعث في كل جسدها خدراً وفتور همة.

هذا إذن ما كانت تتوق إليه دائماً دون أن تدري في وسط كل ذلك الكدح الذي

يلف حياتها من كل جانب. كانت تتوق له دون أن تدرك ذلك. أما الآن، وبعد أن عرفت فهي تجد أن كل شيء فقد معناه.

تطلعت إلى زوجها بأمل يائس. وجهت إليه نظرة كلها توسل، تريده أن يمنحها . قدراً ضئيلاً من ذلك . الحب. لم تكن رومانتيكية حالمة، وهي تدرك بأن زوجها كبير في السن وفظ. ولكن كان بإمكانه أن يحاول. هذا لا يهم، كان يمكنه أن يمسك يدها ويهمس تلك الأمور الصغيرة الحلوة في أذنيها.

تعلمت منذ وقت طويل ألا تتوقع الكثير من الحياة، ولن تتوقع الكثير منها. لو استطاع أن يقدم لها هذا القدر الضئيل من السعادة لاختلف الأمر تماماً. لن تكترث بعد ذلك لكل الكدح والفقر الذي يبحث على المرض في حياتها. ستتقبل شاكرة أن تكون عبدة له. ولكنه غير قادر بالطبع على فهم ذلك التوق الذي يشع من عينيها، وكيف يمكن لهذه الأمور أن تصاغ بكلمات؟

أسرع القطار في طريقه، وغرقت الشمس وراء الأفق في توهج قانٍ، وأضاءت أنوار العربة وامتلأت بثرثرة مرحة لساعة أو نحوها، وبعد ذلك خلد الناس للصمت من جديد، ارتخت الجفون واحتمت العقول في أعشاشها ثانية وأخذ الناس يتلوون ويحاولون مدّ أطرافهم المتعبة، وما لبثوا أن خلدوا للنوم، في حين شق القمر طريقه إلى السماء.

قالت المرأة الأنيقة: "انظر إلى القمر... ما أبدعه هذه الليلة.

تمتم الشاب: "أجل إنه بديع بالفعل".

سمعتهم أم الأطفال الثلاثة وملأ قلبها ألم مبرح. كم تريد أن ترتكي على ذراع ما وتراقب القمر.

نظرت إلى زوجها نظرة مفعمة بالأمل والتوق ولكنها سرعان ما أدركت بأن رغبتها لن تتحقق قط.

بدأ الطفل يئن ويرفس في حضنها فأخذت تهزه بحركة أوتوماتيكية من ساقيها وهي تدندن بصوت خفيض رقيق:

عمي القمر.... يا عمي القمر

ما الذي يجعلك كامداً ومتعباً؟

■ بقلم : كيكي ن.داروالا ■

□□□



انتــظار

كتبتها باللغة الراجستانية أصلاً

نيرسيذها راجبور هيت

■ ترجمة : حصة المنيف ■

عن الإنكليزية

زرت "رامجارة" عشرات المرات من قبل غير أن زيارتي هذه المرة **بدت لي بغيضة. مزاجي** كان سيئاً إلى حد يفوق الوصف. في المرات السابقة كنتُ **أتحرّق للذهاب إلى** رامجارة.. كلما سنحت لي الفرصة لذلك، وكان الحبور يملأ **قلبي قبل أيام. مزاجي** يكون حينذاك مرحاً، وما أن تطأ قدماي أرض الحافلة **حتى أجد سعادتي تتزايد** مع التزايد التدريجي في سرعتها وتغمر قلبي فرحاً مع كل **اهتزازة من اهتزازاتها.**

الأمر على نقيض ذلك هذه المرة، فما أن أخذت طريقي إلى الحافلة بعد أن هبطت من القطار حتى اجتاحني شعور بثقل غريب في ساقيّ وكأنما ربطتا بأحمال ثقيلة، وبقلب لا يقلّ ثقلاً. كان عليّ أن أجرّ قدميّ لكي أتخذ مكاني في الحافلة التي تحركت على الفور محدثة اهتزازة قوية مفاجئة وكأنما تخشى أن أراجع نفسي وأغادر الحافلة لأعود أدراجي.

ظلت سحائب الغبار تغطي الطريق الرملي الذي تتخذه الحافلة مساراً لها وتترنح وهي مسرعة مخلفة وراءها قرى صغيرة ورامجارة تقترب تدريجياً. نصل أولاً إلى بئر "بانجي شاوهان" ومن ثم نعبر ممراً طويلاً ضيقاً تحفّ به من الجانبين نباتات الكابوتروبس" الضخمة دون أن تكون هناك أية نباتات أخرى. وما أن نقطع هذا الممر حتى تبدو لأنظارنا شجيرات "رامجارة". وبعد برهة قصيرة لا تجاوز ما يلزمك كي تحشو غليونك بالتبغ حتى نصل إلى موقف الحافلة الذي سيكون مزدحماً

دون شك بمن ينتظرون الحافلة، بعضهم يبغي الوصول إلى مناطق أبعد، وآخرون في انتظار بعض الركاب. حين وصلت في السنة الماضية كان كل من "دابو" و"كيسناو" بانتظاري ليستقبلاني. وما أن رآني كيسناو حتى أخذ يصفق.. ويرقص ويدور حول نفسه فرحاً وهو يصيح بأعلى صوته "جاء خالي.. جاء خالي". أما "دابو" فقد رفعت تنورتها بيدها وأسرعت راكضة إلى البيت تبشّر أمها بوصول أخيها.

كان الركاب يتقافزون من فوق مقاعدهم مع كل اهتزازة للعربة، ثم يسقطون من جديد وكأنهم حبات قمح تتساقط من ثقوب غربال. أيقظتني اهتزازة مدوية أخيرة من غفوتي. وصلت الحافلة إذن إلى رامجاراة وأخذ الركاب يهبطون أو يصعدون. نزلت بدوري واتخذت طريقي وأنا أحمل حقيبتي بيدي. على مبعدة من موضع الازدحام رأيت فتى يقف فوق موضع مرتفع بعض الشيء. هل يكون هذا كيسناو؟ كلا. لا يمكن أن يكون كيسناو، فشعر هذا الفتى مشعث، وخطوط من القذارة تتجمع فوق يديه وقدميه، ولا يستر جسده إلا قميص وسخ. كان يمص إبهامه ويحدق بالعربة بنظرة ساهمة تبدو وكأنها سابحة في عالم آخر. حين اقتربت منه تبين لي، ولدهشتي، أنه كيسناو نفسه. ناديته ببطء كيسناو، ولكنه لم يلتفت إليّ على الإطلاق بل كانت أنظاره ما تزال معلقة بالعربة. ناديته ثانية بصوت أعلى. "ابن أختي"!! التفت باتجاهي هذه المرة، عينان واسعتان بمقلتين بيضاوين وبؤبؤين صغيرين وسيلين من آثار دموع جفت على خديه. حدّق بي للحظة ثم ابتسم فجأة وكأنه تذكر شيئاً كان قد نسيه وأجاب: "أتيت يا خالي؟ إنني آتي إلى هنا يومياً لاستقبالك".

"ولهذا أتيت لأراك يا حبيبي".

"ولكن أين أمي يا خالي؟ يقول لي أبي كل يوم بأنها في المستشفى وأنك ستأتي معها".

جال بنظره وبدا عليه القنوط. من الصعب أن أقدم له أية إجابة، وهل يمكنني إجابة هذا المخلوق البريء! كيف لي أن أهز قناعة يختزنها في داخله؟ كيف لي أن أقطع خيط الأمل الرفيع الذي يمده بأسباب الحياة، ذلك الحبل الذي يتعلق به في أعماق بئر عميقة. استجمعت نفسي وقلت له: "أمك مازالت مريضة يا حبيبي ولا تستطيع الخروج من المستشفى إلا بعد أن تسترد صحتها كاملةً". ثم رفعته بين ذارعيّ.

"متى ستغادر المستشفى؟ أنتظرها كل يوم وأنتم تكذبون عليّ وتغيظونني". بدأ

يبكي وقد خاب أمله فاحتضنته وحاولت تهدئته وهو ينشج. وبصعوبة كبيرة حاولت أن أستخدم كل ما يمكنني من ألاعيب لأسرّي عنه. "انظر يا حبيبي، إنك ولد ذكي، أليس كذلك؟ أمك كانت مريضة منذ وقت طويل فكيف يمكن أن تشفى إن لم تتلق علاجاً؟ سأعيدها إلى هنا حال شفائها. لقد أرسلت لك "شنطة مليئة بالألعاب وتقول لك لا تعطِ حتى واحدة منها لدابو!"

خفّف ذلك عنه قليلاً فمسح الدموع عن عينيه وقال: "أرجوك يا خالي، خذني إلى أمي. لن أتعبها. لا أحب شيئاً في غيابها. أبي يهددني هنا ودابو التعيسة تضربني كل يوم، أما أمي فلم تكن تفعل ذلك..."

"ما رأيك يا حبيبي أن آخذك إلى جدتك، أم أمك، فهي تحبك حباً هائلاً، ولن يضربك أحد هناك".

رفض وسكت للحظة ثم قال: "لا أريد أن أذهب إلى جدتي، أريد الذهاب إلى أمي". ثم أمسك يدي وقال: "خالي، الأولاد يقولون لي إن أمي ماتت، ولكنهم يكذبون أليس كذلك"؟. كان وكأنه يوجه لي لطمة عنيفة فقلت له: "الأولاد يكذبون كذبة سمجة ويحاولون مضايقتك".

كنا قد وصلنا إلى البيت فأنزلته على الأرض. يا إلهي، كم هي مزرية حالة البيت. كان دائماً مرتباً نظيفاً مغسولاً تسعد لرؤيته، يصلح سكناً للملائكة، أما الآن فقد أصبح وكأنه سكن للأشباح، تلك الأكوام من القاذورات والأوساخ، طبقات فوق طبقات من براز الطيور تحت شجرة النيم[1]" في ساحة الدار، أوانٍ متسخة، عبوات الماء مكشوفة وذباب يعج في كل مكان. جو من الكآبة الغريبة الصامتة يخيم على البيت كله.

ناديت دابو فأتت راكضة من بيت الجيران، لم تتعلّق بساقيّ هذه المرة كما اعتادت، وبدت تلك الفتاة التي لم تتجاوز العاشرة أو الثانية عشرة من عمرها وكأنها أصبحت عجوزاً خلال الأشهر الستة الماضية، وجهها يعبّر عن السقم والجوع وملابسها وسخة وشعرها مشعث متشابك وكأنه عش للطيور. حاولت ملاطفتها واضعاً يدي على رأسها فبدأت تنشج وتبكي بصوت مرتفع. ولم أستطع تهدئتها إلا

---

[1] . شجرة النيم: شجرة ضخمة تنبت في شرق الهند، يكسو جذعها صمغ لزج وقشر يستخدم كمقو وتنتج ثماراً وتستخرج منها زيوت طبية ذات رائحة خاصة."

بصعوبة كبيرة.

نظفت البيت على الفور ثم استرحت على سرير نقّال تحت شجرة "النيم". لم أكن أحسّ بأنني على ما يرام، فالذكريات المرتبطة بأختي محفورة في كل ركن وزاوية في البيت. كان يتراءى لي وكأنه مشغولة بالمطبخ وأنها على وشك أن تناديني، أو كأنها تحلب البقرة وتكاد تنادي كيسناو ليأتيني بالكأس، أو كأنها تطحن الحبوب تحت السقيفة وأنها على وشك الشروع في غناء تلك الأغنية التي تخاطب بها أخاها.

كنت مغرماً بتلك الأغنية وهي مغرمة بغنائها لي. أطلب منها وأصرّ على أن تغني لي كلما أتيت فتبدأ بالغناء بصوتها الشجي، وبدا لي وكأنها تجلس أمامي الآن وتغني تلك الأغنية حتى في تلك الساعة المزعجة من النهار :

صوت الطبول الضخمة يرن في الحدائق

وصوت المزمار يتردد في المدينة

وصل أخي

يحمل لي ذلك الوشاح الحريري

وشاح يملأ السلة إن وضع بها

وما أخف وزنه إن وزنته

تتساقط الجواهر منه إن ارتديته

ولكن طوله يمتد خمسة وعشرين شبراً

صوت الطبول الضخمة يرن في الحدائق

بينما كنت أستمع لأغنيتها حين أتيت في العام الماضي ارتجف صوتها فجأة واختنق وامتلأت عيناها بالدموع. أمسكت بيدها وتساءلت: "ما بك؟" بثتني شعورها بأنني كلما أتيت أصرّ على أن تغني لي هذه الأغنية، ولكن هل ستكون على قيد الحياة حين تأتي المناسبة الحقيقية لكي تغنيها لي؟

تساءلت: "لماذا تخطر لك هذه الخواطر السيئة"؟

أجابت: "مجرد خاطر يا أخي الحبيب! على الإنسان ألا يعتمد على هذا الجسد الفاني، فهو موجود اليوم ولكنه قد لا يكون موجوداً في الغد، وأولئك الذين يتحرقون لشيء ما لا يواتيهم الحظ لنيله في العادة.

أحسست وكأن أشواكاً تنبت في حلقي. بدأت الغربان تصيح على الشجرة. فكرت بكسناو، أين ذهب؟ كانت دابو مشغولة بتقطيع الخضار في المطبخ وحين سألتها قالت إنه ربما كان نائماً في الغرفة المجاورة. دخلت الغرفة فوجدته نائماً فوق ملاءات ممزقة منشورة على الأرض وهو يحتضن وشاحاً بين ذراعيه. أخذت أحدق بوجهه البريء لفترة طويلة. كان يبدو وكأنه يرضع عندما أخذ يحرك شفتيه وهو نائم.

قالت دابو: "ينام كل ليلة على هذا الشكل يا خالي. لا يستطيع النوم إن لم يأخذ ثياب امي لينام عليها ويغطي نفسه بها. ظل مستيقظاً طوال الليل عندما نام مع أبي مرة، وهو يقول إنه يشم رائحة أمي في هذه الملابس ويغرق في النوم على الفور، ولهذا لا يغسلها أبي."

تذكرت العجل الصغير لبقرتي الشقراء الذي كان في اليوم العشرين من عمره عندما نفقت أمه. ظل يتشمم المكان وموضع المذود الذي كانت البقرة مربوطة به لثلاثة أيام بلياليها ثم نفق بدوره في اليوم الرابع، وهو يخور طالباً أمه. وكيسناو، هذا الفتى الصغير الذي لا يتجاوز الخامسة من عمره والذي يماثل ذلك العجل فقد أمه أيضاً، وليس يستطيع النوم إن لم يتشمم رائحة جسدها.

ما لبث أن استيقظ فقلت له: "هل يمكن أن أحممك يا حبيبي؟ هل ترى مدى وساخة جسمك وقذارة قميصك؟ ألا تحسّ بذلك؟ كنت دائماً ولداً مرتباً نظيفاً ساحراً، فماذا حصل لك؟"

لم يتفوّه بكلمة واحدة بل تبعني بهدوء. وعندما بدأت أنزع قميصه تبدل مزاجه فجأة وقال بغضب جامح: "لا تخرجه من رأسي بل من الكمين". فعلت ذلك بالطريقة التي يفضلها، وعندما أجلسته إلى جانب الدلو وحاولت أن أصب الماء من الإبريق فوق رأسه اختطف الإبريق من يدي ورماه وهو يقول: "لماذا تصب الماء فوق رأسي مباشرة ولا تفرك يديّ وقدميّ أولاً. لا تعرف أن تحمّم وأنت إنسان كبير، كانت أمي تصب الماء على يديّ وقدميّ أولاً ثم تفركها بلطف، وبعد ذلك تغسل وجهي وتربّت عليه، وفي النهاية تصب الماء فوق رأسي. أما أنت فلا تعرف كل ذلك ولذا تصب الماء فوق رأسي حالاً... تسمّى هذا حماماً! هذا ما تفعله دابو أيضاً ولهذا لا أحب أن أستحم".

لم أستطع أن أمنع نفسي عن الضحك حتى في هذه المناسبة الحزينة وقلت: "حسناً، سأحمّمك كما تفعل أمك تماماً، هل يرضيك هذا؟" صببت الماء على يديه

وقدميه وأخذت أفركها وأنا ما أزال أخشى غضبه "كنت أخاف أن يضربني بالإبريق المعدني، غير أن الأمور سارت على ما يرام. وبما أنها تمت كما يشتهي فقد أخذ يتحدث: "أمي كانت تضعني في حضنها وبعد ذلك تجعلني أشرب الحليب.. تضع إصبعها فيه أولاً لتتأكد بأنه غير حار، وإن لم يكن حلواً بما فيه الكفاية فهي تضيف إليه المزيد من السكر. أما أبي فهو يجبرني على الجلوس أمامه ويلح عليّ بأن أشرب الحليب وهو يقول: "اشربه... اشربه"، وهذا ما تفعله دابو التعيسة وهي تردد: "لماذا لا تشرب" تبدو هذه البنت وكأنها وحش بحيث أود لو أقتلع شعرها. والأشنع يا خالي أنها تضع السمن فوق الحليب وأكاد أتقيأ عندما أرى ذرات السمن تسبح فوق الكأس. كنت على وشك التقيؤ مرة. يضربني أبي إن لم أشرب. أرجوك يا خالي ابق هنا حتى تأتي أمي هل يمكنك ذلك؟"

حاولت مواساته وقلت له: "أصبحت فتى كبيراً الآن يا حبيبتي ولم تعد ترضع من ثدي أمك، فلماذا تحنّ لأمك طوال ساعات الليل والنهار؟ اعتكر مزاجه من جديد وقال: "إن لم أكن ولداً صغيراً فهل أنا كبير مثلك؟ أمي ما تزال تعود لترضعني من صدرها".

تذكرت وأنا أغسل يديه أنه يمصّ إبهامه ويبقيه في فمه بحيث تحولّ لونه إلى البياض وانعدم فيه الدم. لم تكن لديه تلك العادة من قبل سألته: "متى تأتي أمك لترضعك يا كيشاو؟"

"متى! تأتي كل ليلة، تقف تحت شجرة النيم في باحة الدار ثم تقترب مني ببطء وتعانقني وتحتضنني بين ذراعيها وترضعني من ثدييها".

"تأتي كل يوم؟"

"أجلن كل يوم. لا تتأخر يوماً واحداً. لم تأت يوم نمت مع أبي وخلاف ذلك تأتي كل يوم".

أنهيت غسله وألبسته قميصه. وعندما سرّحت شعره ووضعت الكحل في عينيه بدت عيناه ساحرتان فقلت له: "يجب أن تظل نظيفاً كل يوم يا حبيبي.. ستحبك أمك إن فعلت. أما إن بقيت وسخاً وغير نظيف فلن تأتي إليك". بدا وكأنه يأخذ هذا الكلام مأخذ الجد فأحنى رأسه وقال "سوف أستحم كل يوم وألبس ملابس جديدة أيضاً".

كانت الشمس قد غابت والحرارة التي ملأت باحة الدار انتقلت إلى الفرن في المطبخ، بدأت الطيور تزقزق على الشجرة وأخذ العجل يخور متشوقاً للبقرة.. كان

الوقت قد حان لعودة زوج أختي إلى البيت.

كنت أعرف كل التفاصيل عن شعوره إزاء موت أختي، ولولا الطفلان اللذان غلّلا يديه لهجر حياة البيت. كانا بمثابة قيد لا يمكنه كسره يربطه بالبيت وهذا ما أجبره مرغماً على الاستمرار في العمل في حانوته وعلى تناول الطعام في الصباح المساء، عاد حين أوشك الظلام أن يخيّم.. حيّاني وانشغل بأعماله، وبعد الغروب، وبعد أن انتهى من حلب البقرة تبلّغنا طعامنا، سواء أكان ما أعدته دابو حسناً أم سيئاً، ثم أخذنا نتكلم. وعندما تحدثنا عن أختي اغرورقت عيناه بالدموع وقال: "يمكنني احتمال حزني وألمي مهما كان حزني عميقاً وممّضاً، ولكنني لا أحتمل رؤية الطفلين وهما يعانيان. قد أتمكن من التخفيف عن دابو وإقناعها بألا تأخذ الأمر بتلك الصورة البائسة، ولكنني لا أعرف كيف أجعل هذا الفتى يفهم ويتبصّر. لا يرتاح ليلاً ولا نهاراً. خيط الأمل الدقيق هو الذي يبقيه على قيد الحياة وإلا فإنه سيموت دون شك. ومنذ اليوم اليوم الذي حملتها فيه إلى محرقة الموتى وهو يذهب إلى موقف الحافلات كل يوم دونما انقطاع لينتظر وصول أمه، قد تتأخر الحافلة عدة دقائق، أما هو فلا يتأخر عن موعد وصولها على الإطلاق..

اختنق صوته ثانية وهو يتكلم واغرورقت عيناي أنا بالدموع.. بقيت في رامجارة سبعة أيام، وعندما غادرتها في اليوم الثامن كان كيسناو نائماً. فكرت بإيقاظه ولكنني أحسست بصدمة تضربني في دماغي، من يدري، ربما كان يحلم بأمه وهي تقف تحت الشجرة، وربما كانت قد بدأت ترضعه وهي تحمله بين ذراعيها، قبلته بلطف على خده ومضيت.

□□□

الرقعـة

تأليف: سوريش جوشي

■ ترجمة : د.نايف الياسين ■

كان الأفق الغربي مغطى بالغيوم، بحيث لا يتمكن المرء من رؤية الوهج الأحمر للشمس الغاربة. قبل ذلك بقليل، ومض بريق ضوء أحمر، لكنه تلاشى في العتمة قبل أن يصبح مرئياً. بدا وكأن أفعى كانت قد أنشبت نابيها وصبّت كامل محتويات كيسها من السم الداكن. كانت الظلمة تحيط ببراباشنكار من كل الاتجاهات.

رفع براباشنكار كيس أوراق التنبول وفرده. زر عينيه لينظر داخله، ووجد أن كل ما بقي فيه عبارة عن نصف ورقة جافة ومنكمشة. كان في اليومين السابقين يذكّر هسموخ بأن يحضر كمية أخرى من التنبول، لكن دون جدوى. وبعناية كبيرة قسم الورقة إلى نصفين، أعاد نصفاً إلى الكيس وبدأ يلف النصف الثاني. ثم وضعها في فمه، وفي نفس الوقت، أضاف قبضة من التبغ أيضاً.

سقطت حزمة ضوء من المصباح في الخارج عبر الغرفة الأمامية، وعليه انتزع معطفه عن المسمار، وارتداه، ووضع القبعة على رأسه. كان معتاداً أن يشرب قليلاً من الماء قبل أن يخرج. عندما كانت بارفاتي حية، كانت تقف حاملة كأس الماء حالما يحين موعد خروجه. أما في السنة الماضية، فكان عليه القيام بأشياء

كهذه – كثير من الأشياء – بنفسه. اقترب براياشنكار من المصطبة حيث الماء، وفي اللحظة التي استدار فيها، بعد أن شرب الماء، شعر وكأن شخصاً سحبه من كم معطفه وأوقفه. لم يستطع إلاّ أن يسأل، "لماذا، يا أم هسموخ، ما الأمر"؟ أسئلة كانت تهدر نفسها في الظلمة.

بعد أن مات ابنه مانيشانكار، أصبح براياشنكار شارد الذهن، واعتادت بارفاتي بشكل ما على سحبه من كمه والتحدث إليه. تذكّر المرة الأولى، لابد أن ذلك كان بعد زواجهما بسنتين. كان أبواه عندئذ لا يزالان على قيد الحياة، وكانوا جميعاً يعيشون معاً. كان براياشنكار قد انتهى من تناول فطوره وعلى وشك المغادرة إلى عمله عندما أوقفته بارفاتي بسحبه من كمه ونقلت إليه الأخبار السارة. كانت ستصبح أماً.

كانوا قد عاشوا معاً مع كل العادات والقيود الكامنة في العائلات الكبيرة. كان من النادر أن يلتقيا لبعض الوقت ويقولا بضع كلمات أحدهما للآخر دون أن يكون أحد بقربهما. في الليل، وفي الوقت الذي يكون براياشنكار قد انتهى من قراءة الغيتا لوالديه، تكون بارفاتي جالسة على حافة سريرهما منهكة من عمل اليوم الطويل. كانت بالكاد تبقى مستيقظة، وجفونها مهدلة مثقلة بالنوم. كان براياشنكار هو ذاك النوع من الرجال الذي يكتفي بكلمة عما يمكن أن يقال بأربع.

في اليوم الذي ماتت فيه بارفاتي، كانت قد استوقفته بنفس الطريقة، وسحبته من كمه لتقول: "ألا يمكنك أن تتغيب عن العمل اليوم؟"، ولكن مباشرة، وبعد أن أدركت أن براياشنكار لا يستطيع احتمال كسر روتينه، سحبت ما كانت قد طرحته قائلة، "بالطبع لا. لا أعلم كيف خطر لي ذلك. هاك، اشرب قليلا من الماء ثم اذهب"؟

ولذلك، وعندما علّق معطفه، الذي كان قد اهترأ عند الكوع، بمزلاج الباب، توقف وسأل، "ماذا، يا أم همسوخ، ما الأمر؟" لكن لم يكن الجواب صوتاً مألوفاً. وهكذا تابع براياشنكار وكأنه يتحدث لنفسه، "هل كنت تقولين أن المعطف تمزق؟" لبرهة

من الزمن، وقف براباشنكار في مكانه قلقاً يفرك راحتيه ببطء. لكن فجأة، وكأنه لاحظ النظرة اليائسة على وجه بارفاتي، تكلم قائلاً، "قولي لي أنت، ما الذي يمكنني فعله حيال ذلك؟ تعلمين أني لا أستطيع أن أطلب من كنتنا مرة بعد مرة أن تقوم بذلك من أجلي. حسن، سأرقعه بنفسي، هل يلاؤمك هذا؟ وكرر كلمة "رقعة" لنفسه ثلاث أو أربع مرات.

ومن جديد ضاع في أفكاره. كانوا قد خسروا بيتهم في حريق، ولم يكونوا يملكون إنشاً واحداً من الأرض. كان أبوه كاهناً، ولم تتزوج أخواته بعد. وهكذا، ولم يكن قد أتم الخامسة عشرة من عمره، بدأ براباشنكار بالعمل في لف التبغ في حزم صغيرة في دكان. كان قد اجتاز الامتحان المحلي النهائي. وبعد خمس سنوات من العمل المضني، حصل على عمل كمدرّس في مدرسة ابتدائية في قرية نائية غير معروفة وبراتب قدره خمس عشرة روبية في الشهر. واستغرقه تدبير الأسرة وتزويج أخواته حتى السنة الخامسة والثلاثين من عمره. وفي النهاية أصبحت الظروف مواتية لزواجه هو. ومباشرة بعد الزفاف، ذهب إلى بيت أهل عروسه لإحضار بارفاتي إلى منزله. تذكر حديثه معها حينئذ. كان قد قال، "لم أعد شاباً، لقد جفت كل أحلامي. هل يناسبك أن تعيشي معي؟" أجابت بارفاتي مباشرة بما كانت صديقة لها قد علمتها، "بالنسبة لي، أنت كل ما أريد من الآن فصاعداً، فما الذي عساني أن أبحث عنه أكثر من هذا؟". كان براباشنكار قد أضاف، "لكن في منزلنا الأشياء مبعثرة إلى درجة أنك اذا حاولت أن تربطي ثلاثة أشياء، فإن ثلاثة عشر شيئاً آخر ستتساقط. وبدلاً من الاستمتاع بحياتك، ستقضين معظم وقتك وأنت تخيطين الرقع على الأشياء. وكان جواب بارفاتي سريعاً: "حسن، سأخيط أي عدد من الرقع تريدني أن أخيطه. لن أتعب من ترقيع الأشياء".

لكن أين هي الآن؟ حتى هي تعبت في النهاية. بحث براباشنكار عن ثقاب ليشعل القنديل أمام إله العائلة. لم يعثر على أي عود ثقاب، لكنه وجد في إحدى العلب إبرة وخيطاً حملهما معه إلى الشارع أمام منزله. وفي ضوء مصباح الشارع،

قدّر حجم الرقعة. أخرج قطعة قماش من مجموعة القطع البالية التي كان يحتفظ بها تحت فراشه. لم تكن القطعة من لون معطفه. لكن كيف للمرء أن يجد قطعة من نفس القماش؟

ركّز براباشنكار بصره على الإبرة في ضوء مصباح الشارع، حاول أن يضع الخيط في فتحة الإبرة. رطّب طرف الخيط على لسانه وبرمه كي يجعله صلباً بعض الشيء. حاول مراراً وتكراراً لكنه لم يكن يرى بشكل جيد يمكّنه من تمرير الخيط.

في هذا الوقت، لاحظه صبي كان يلعب قرب مصباح الشارع. لبرهة من الزمن، اكتفى بالنظر بترقب إلى محاولات براباشنكار الفاشلة. ثم اقترب وجلس. في البداية، شرع الولد في نزع قطع من الملاط الذي كان يغطي الجدار، ثم حدّق في كفاح براباشنكار المستمر. في تلك اللحظة رآه براباشنكار وسأل، "من أنت؟ أنت مانو، ابن واياشنكار، أليس كذلك؟" قال الصبي، "نعم يا أبت"!

شعر براباشنكار بالزهو لجواب الصبي المؤدب وقال: "لو سمحت، هل لك أن تدخل الخيط في الإبرة من أجلي؟" قال مانو، "على شرط واحد يا أبت. عليك أن تروي لي قصة". ابتسم براباشنكار وقال: "كانت جدتك هي البارعة في رواية القصص، أما بالنسبة لي ..." قاطعه مانو قائلاً، " لا يا أبت، أنت تختلق الأعذار، وهذا لن يجدي. لابد أن جدتي قد روت لك الكثير من القصص. أرجوك إرو لي واحدة منها فقط". استسلم براباشنكار للهزيمة، وقال "حسن جداً، مرر أنت الخيط في الإبرة، وأنا سأروي لك حكاية."

وفي الحال مرر مانو الخيط في الإبرة. وضع براباشنكار قطعة القماش على الكم وبدأ بالخياطة بأفضل شكل استطاعه. "لقد حدث هذا قبل العديد من السنوات..." هكذا بدأ براباشنكار.

سأل مانو، "قبل مائة عام؟" "لا، لقد حدث هذا قبل ألف عام،" قال براياشنكار. "كان هناك ملك. وكان للملك ابن اسمه شيرايو، طويل العمر، وكان وسيماً منذ طفولته. ما كان بوسع أحد أن يراه دون أن يحبه، كان فاتناً. وكلما كبر كان جماله وفتنته يكبران معه، وكلما نظر إليه الملك والملكة سقطت الدموع من أعينهما."

قال مانو، "هذا غريب، أليس كذلك؟" ما دام جميلاً جداً، كيف كان للملك والملكة أن ينظرا إليه دون أن يبتهجا بدلاً من ذرف الدموع؟".

قال براياشنكار، "نعم يا عزيزي، لأنه كان جميلاً جداً، كان الملك والملكة قلقين. كانا يخشيان أن يأتي يوم يذوي فيه جمال ابنهما. هذا ما جعلهما يبتئسان ويبكيان. عندما بلغ الأخير السادسة عشرة من العمر، ابتهجت كل المملكة. في هذا الوقت، وصلت الملك أخبار عن قدوم رجل حكيم يمتلك قوى خارقة إلى العاصمة. كان يقيم خارج المدينة تحت شجرة أثاب ضخمة، ويشعل ناراً مقدسة تتوهج ليل نهار."

"ذهب الملك والملكة للقائه. وقدّما هدايا من الفواكه في أوعية من الذهب، وسألا: "هل لك يا سيد أن تمنحنا أمنية واحدة؟" أجاب الحكيم، "ما هي أمنيتكما، أخبراني؟" قالت الملكة، "إن أميرنا هو ابننا الوحيد. ونحن نتمنى أن يبقى شاباً وجميلاً كما هو الآن إلى الأبد." قال الحكيم، حسن جداً، لكن فكرا في الموضوع من جديد. أجاب الملك، "إننا لا نفكر في شيء آخر ليل نهار. ولا حاجة بنا إلى التفكير في الأمر من جديد". قال الحكيم، "ليكن. سأعطيكما الآن رداءً سحرياً من الحرير ليلبسه، ولا ينبغي أن يخلعه أبداً عن جسده. وطالما بقي الثوب عليه، فلن يكون للزمن أي تأثير عليه، ولن يُظهر جسده أي علامة من علامات الكبر."

لم يستطع الملك والملكة تمالك نفسيهما من الفرح. انحنيا بشدة أمام الحكيم ومسحا الغبار عن قدميه. ثم أضاف الحكيم، لكن هناك شرط واحد يتعلق بهذا الرداء. إذا حصل وفكّر أي منكما بالسوء نحوه، ولو إلى أضعف الحدود، سيظهر ثقب في الثوب. وسيكبر الثقب ويكبر." لدى سماعهما ذلك، طغى ظل من القلق

العميق على وجهي الملك والملكة. ثم قال الملك، "إن ابننا عزيز جداً علينا بحيث لن تخطر فكرة كهذه ببالنا" لكن إذا حصل ذلك بالصدفة... والتقطت الملكة طرف الحديث وسألت، إذا حدث شيء كهذا، ألا يمكننا أن نضع رقعة على الثوب؟" قال الحكيم، يمكن لذلك أن يحدث، لكنه سيكون في غاية الصعوبة." لماذا؟ سأل الملك والملكة بصوت واحد. قال الحكيم، "أي شخص يوافق على وضع الرقعة عليه أن يتخلى عن سنوات من عمره بعدد القطب التي يضعها. وثمة شرط آخر. لا ينبغي أن يكون الشخص الذي يمنح هذه السنوات من عمره قد ارتكب إثماً واحداً طوال هذه السنوات. يجب أن تكون هذه السنوات نقية تماماً من أي شائبة؟

"لدى سماعهما هذا، توقف الملك والملكة لبرهة، وفكرا في الموضوع. قالا، ليكن ذلك. إننا نوافق على كل من هذه الشروط؟ قال الحكيم، "فكرا في الأمر مرة أخرى، ففي اللحظة التي يظهر فيها ثقب في الرداء، ستظهر آثار كل السنين التي مرت من حياة ابنكما على جسمه. وإلى أن يتم إصلاح ذلك الثقب، سيكون جسمه قد استنفد كل قوته ومادته. رغم ذلك، طالما بقي الثوب عليه فلن يموت".

"لكن الملك والملكة لم يكونا راغبين في الاستماع إلى المزيد، فطلبا الثوب الحريري بلهفة. أعطاهما الحكيم اياه بعد أن رسم صليباً معقوفاً كبيراً في مركزه تماماً. وبذلك عاد الملك والملكة إلى القصر، وأقاما وليمة كبيرة. وهناك، وفي مراسم تثبيت خاصة ووسط الكثير من الأبهة والعظمة، ارتدى الأمير الثوب الحريري."

"ماذا حدث بعد ذلك؟"

تابع برايانشكار عملية قطب الرقعة وقال، "مضت السنون. وكبر الملك والملكة، لكنه شيرايو بقي شاباً ومليئاً بالمرح. كان يستمتع بالحياة إلى أقصى حد. كان يتزوج أميرة ويعيش معها، وحالما تكبر يتركها ليتزوج غيرها. لم يكن لذلك نهاية."

"في أحد الأيام، وبينما الملك والملكة يجلسان في شرفة، سمعا امرأة تبكي بحرقة. وعندما نظرا، وجدا أنها كانت إحدى الأميرات اللاتي كان الأمير قد تزوجهن

وهجرهن. حاول الملك أن يواسيها، لكنها عضت على لسانها وقتلت نفسها. حزن الملك والملكة حزنا شديداً لدرجة أنهما لم يستطيعا إلا أن يقولا، من الأفضل للمرء ألا يكون له شباب على الإطلاق من أن يرى هذا." وكما تنبأ الحكيم تماماً، ظهر ثقب في الثوب الحريري الذي كان شيرايو يرتديه، وفجأة ظهر على الأمير تغيّر كبير. تدلى جلده على شكل طيات رخوة وتشكلت قروح دامية على كل جسده. كان الناس يلقون نظرة واحدة عليه ويشيحون بوجوههم ويهربون. أتى شيرايو إلى الملك والملكة متعثراً ومترنحاً وصرخ، أرجوكما أنقذاني، أنقذاني من هذا." وانحدرت الدموع بغزارة من عيني الملكة. اقتربت منه وبدأت بترقيع الثقب بنفسها. لكن الثقب لم يُسد، إذ إن الملك والملكة لم يكونا نقيين تماماً من أية ذنوب.

ثم حاول أفراد الحاشية في القصر لكن دون جدوى. وكان الثقب يكبر كل يوم. حياة من فيها من السنين التي لا تشوبها شائبة من الذنوب بالقدر الكافي لإصلاح ذلك الثقب؟ وبسبب العذاب الذي لاقاه الملك والملكة من النظر إلى وجه ابنهما المريع، ما لبث الملك والملكة أن ماتا. وانطلق شيرايو...

سأل مانو، "لكن لماذا لم يخلع الرداء ويرميه؟" أجاب براباشنكار، "كان لا يزال يأمل أن يجد شخصاً يستطيع إصلاحه بحيث يعود إلى شبابه مرة أخرى. يتحدث الناس قائلين أنه في بعض الأحيان وفي ظلمة الليل، يأتي رجل كبير منهار يرتدي الأسمال، وبالكاد يستطيع المشي إلى أمام منازلهم ويسأل، "هل تستطيع أن تصلح هذا الثوب؟" وينتظر قليلاً لسماع الجواب ثم يمضي."

استمر مانو بالتفكير في ذلك. ولبعض الوقت لم ينبس ببنت شفة. وفجأة خطرت له فكرة. لمعت عيناه وقال، "يا أبت، أنت تبقى مستيقظاً لساعة متأخرة من الليل، جالساً على هذه الدرجات. إذا رأيته هنا، أرجو أن تناديني. سنقوم أنا وأنت بنزع ذلك الثوب عنه ونرميه. على الأقل فإن ذلك سينهي تشرده، أليس كذلك."

"نعم" قال براباشنكار

شعر مانو بالارتياح بعد هذا، ونهض وذهب إلى بيته. وجلس براياشنكار في مكانه لبعض الوقت. ومع متابعته لرتق كمه، انغرست الإبرة عميقاً في إصبعه، فسحب الخيط والإبرة، ونهض. واختفى داخل بيته المظلم.

□□□



■ بقلم: كيكي ن. داروالا ■

قصـــائد

■ ترجمة : عيسى سمعان■

الأخوند في أصفهان

شعر: كيكي ن. داروالا

كان ذلك بعد الاعتدال الربيعي، حين تكتسي أزهار التوليب
بلون دم الحسين،
حين جاء أخوند عبد الله يزدي
إلى أصفهان.
"إذا مكث هنا لمدة أطول
ستسوء أحوالنا"، قال أهل البلدة.
ذلك أن ورعه صارم

وإجازاته الأمور سوط لاهب.
الشوارع لبثت دون قناع أمامه،
حتى تلك التي لا ترى فيها بياض عينٍ في ضوء النهار ،
رأى الفالجير يفتح كتاب حافظ
لأجل نبوءاته، لكن ليس الكتاب المقدس،
والتسجير منكباً فوق طسته من الماء
لأجل كهانته المزيفة، لكنه لم
يشاهده قط يتوجه صوب الكعبة.
مرةً كانت المصابيح مضاءة
بدأت الخمرة تتدفق
مثل دماء من جسد قيصر .
النرد تدحرج على قارعة الطريق
مواكباً الهتاف والكلام البذيء.
حفت به أثواب العاهرات بصفاقة.
ليس الوجه فقط ما حسرن عليه، بل الرعب،
حتى عظم الكتف كان يبرق،
وكما لو أن ذلك لم يكف،
فتلك الأشياء البغيضة المثيرة للشهوات
ظهرت على الشوارع،
أنصاف عراة الصدور وأشباه أصحاب البطون.
الأخوند قال لمريديه:

"فلنخرج من هذا المكان
قبل أن يقذفه الإله بصاعقة
ونقع أسرى حرائق المدينة".
ولوا الأدبار مع انتهاء أول نوبات المراقبة
لكن عندما عسكروا عند الفجر
قال مريد: "أولاء الأصفهانيون يسعدون المولفيين والدرك معاً.
ويقدم واحدة في ركاب العالم
وأخرى في ركاب الزمن الآتي".
توجه بعين عقله صوب أصفهان
ورأى سجاجيد الصلاة بالآلاف
ممدودة من قبل رجال البلدة.
كانوا يشكرون الإله
لتحريرهم من الأخوند!
طرق الليل مختلفة
عن طرق الفجر، قال.
تحت النجوم أنت تهرب من الشر
وغضب الله المنتظر.
في الصباح يقول (الله) لك،
إن المبصقة التي مضمضت فيها الخطيئة
فمها المنخور هي وعاء للورد.
لقد ذوت معاً، أذان الصلاة

وألوان الفجر.
"ارفعوا الأوتاد!" صاح بهم،
إنا لأصفهان عائدون".

***

قصيدة الألفية

شعر: كيكي ن. داروالا

ما علاقتنا بالألفية،
نحن الذين سنرتعش
ونختفي؟

ما علاقتنا ببكرة من خيوط الزمن،
التي تنحل خيوطاً مثل ساري[1] درويادي،
تنحل، وتنحل، وتنحل؟

هل أرقامنا وحزوزنا
تقدر على تلطيخ أو ثلم
وجه الزمن الجامد؟

[1] الساري: لباس هندي معروف (المترجم)

■ بقلم: كيكي ن.داروالا ■

إنها حولنا، تلك
التي ترى القدر يتغضّن على حواجب أعيننا
ويسقط ظل، مثل غراب صيدَ،
عبر صدور الأمم،

مفسّرو تفالات القهوة هنا
وأوراق التاروت وأولاء المسجلون
لرقى سيبيل.

محاسبو الديئونة في كل صقع، والسفاحون.
الهلوسات ووسطاء الوحي كثر.

لِمَ نجد أنفسنا
في موسم النبوءات
دون أنبياء حولنا؟

***

صلاة منقلب القرن

شعر: كيكي ن. داروالا

دع طيور القطب،
أصدقاء الرياح القطبية
تنعم بوقتها، يا إلهي،
لمئة السنوات التالية،
لست حتى أعرف
شيئاً عن وجود الطيور القطبية.
أنا جاهل
بحيوات الطيور قرب القطبين
كجهل الطيور بأمور الخير والشر.
ليت جهلي أيضاً
يعدل البراءة.
لكن صلواتي ليست عالقة
ببوصلة بحار ما،
وحين أشرع بالنزول
وظهري نحو نجمة القطب،
فإني أقود صلواتي من يدها.
وهنا في بلد المطر الدافئ
دع وحيد القرن

يجري دائراً في المستنقع
والألفية التالية
والتالية.

عسى أن السمّور والشيهم (من القوارض)
يحفران طريقهما
إلى جنة عالمهما السفلي.
وعسى الفيل يريق أنيابه
كيلا نريق دمه.

وصلاة صغيرة من نور السماء، يا إلهي:
عسى يعرف الدوري الزجاج
من الجو الصافي في الخارج

***

معبد هاثور

شعر: كيكي ن. داروالا

حين تبغي السلام
أرسلْ مبعوثيه.
ما أرسلته الملكة حتشبسوت

إلى شعب البونت
كان عقوداً من خرز
وأساور من ذهب،
كبيرة تناسب
الملكة المصابة بالتضخم
في تلك البلاد القصية.
ومالك البونت، المعمم
كبير الكرش أسود
مثل تاجر من بازار
في مدغشقر، رفع يده
تباركاً وسلاماً، واهباً
جلود النمر والعاج بالمقابل.

لكن حتشبسوت رغبت في
الحنة لشعرها، والبخور.
ملك البونت وهب كل أشجار البخور.
"خذيها إذا وجدت سبيلاً لنقلها."
كل هذا على الجدران، مرسوم
بألوان مؤكسدة.

كذلك على الجدران تثوي دراما،

دراما المحو.
آنية البخور قدمت
لإلهة البقر الوديعة، هاثور.
لكن أين حتشبسوت؟
لقد امّحت من الوجود.
تحوتمس العظيم قاتلها .
لزام عليك أن تكون عظيماً إذا قتلت
الملكة الوحيدة التي
رامت مصر طردها من معبدها
قبل كليوباترا.

ولاستباق تقمصها من جديد،
ولجعل القادم نفسه قصير العمر،
مؤكد أن طريقة قذف
ستمحوها من كل فريسكو.
لذا تحوتمس نهب لحدها
وحطم جرار المصريين القديمة
تلك التي حوت أمعاءها
وحطم أثرها الفرعوني.
وبينا يقبَل هاثور وأنوبيس
آنية بخورهما

فإن الملكة المتضرعة تعيش بغيابها.

ولكن،
مع تلال أحجار التالك
شبيهة الستارة الخلفية،
عبر شرفة ومنحدر
يتدفق المعبد نحو أسفل مثل شلال.



***

محاضرة أزهرية

شعر: كيكي ن. داروالا

هم سذّج، أولاء القائلون
إن ثروة الحاكم
والمحكوم سواسية.
خذ طاعون 1350،
ذاك الذي سافر مثل قافلة
من الصين عبر هضاب البامير
إلى خان يدعى مصر،

نزل هنا، أعاد ملء قِرَب مائه

ورحل إلى أوروبا من جديد.

عشرون ألفاً قضوا كل يوم في القاهرة،

المملوك، والأمير والفلاحون.

لكن بينا طلع الورم على أبدان الناس

والماشية نبتت لها بثور

والنيل اكتسى

بأسراب السمك الميت بيض البطون،

ازداد السلطان غنىً!

حين يموت الجميع

من يرث العرش

سوى السلطان مجسّد الدولة؟

الجزية هي مصدر دخل آخر

والطاعون لا بد أنه وفّر

غير المسلم . دائماً يفعل.

أنلوم خازن الدولة

إذاً، عند صلاته، توسل للإله ليرسل

مزيداً من الأوبئة ومزيداً من الملحدين؟

***

من "حكايا الشمل"

شعر: ك. ساتشي داناندان

1 . الرجل الذي تذكر الكل

(عن ليبتسي)

هواتسي، شاب من سونغ
ابتلي يوماً بمرض النسيان.
نسي أن يجلس وهو في غرفته
وأن على الشارع يمشي.
نسي طعامه وثيابه ونومه
نسي النهار ، والليل، والأقرباء، والأصدقاء.
ثم نسي اسمه.
وهكذا هواتسي الذي كان إلى الحين أحدهم
صار يوماً لا أحد.
لم يقدر النطاسيون على برئه،
وكذا السحرة.

وأخيراً عملاً بنصيحة
مينسيوس، المعلم الأكبر،

صوّموه لأيام ثلاثة بلياليها.
ثم تذكّر طعامه.
وضعوه على الجليد،
عندها تذكّر ثيابه والشراشف.

ثم وضعوه في الحاضر،
ولذا تذكّر ماضيه.
وضعوه في الماضي،
ولذا تذكّر مستقبله.
وتدريجاً تذكّر الجميع.
أفاق بصرخة مدوية
ليخبر مينسيوس بهذا:
"عندما كنت لا أحد، كنت عديم الوزن.
النسيان كان لي حرية،
دون كلفة بالحياة ودونما حدود.
الآن أعدتم لي كل أوزاري
الماضي منها والمقبل.
الألم والعزلة يضربان كل كياني.
هلا تكرّمتم، خذوا ذاكرتي".
لكن مينسيوس لم يقو على أن يعيده
لنسيانه، ولذا، نحن البشر من ذرية هواتسي

ما نزال نحمل لعنة
تذكّر الجميع،
لنبقى أحداً ما،

**

2 . الكفيف الذي اكتشف الشمس

شعر: ك. ساتشي داناندان

(عن سو . تونغ بو)
كيف هو ملمس الشمس؟
سأل الكفيف حامل النور
في الموكب.
"مثل مشعل".
لمس الكفيف المشعل المشتعل،
وعندما في ساعة متأخرة من الليل
صب أحدهم ماء حاراً على وجهه،
فكّر "هي ذي الشمس".

"كيف تبدو الشمس؟
سأل الكفيف عضو الفرقة الموسيقية.
"مثل جرس"
قرع الكفيف الجرس
وفي الصباح الباكر

قرعت الأجراس معلنة موت أحدهم،
"هي ذي الشمس" كان تفكيره.

"كيف تبدو الشمس؟"
سأل الكفيف الصياد
في اليوم التالي.
"مثل البحر."
غطس الكفيف عميقاً في البحر.
الجروف المرجانية لسعت يديه،
حملته أفراس البحر وطارت به.
ضيفاً من اليابسة، أقام
في قصر حوريات البحر.
وأخيراً رقد على مهاد السكون المائي
المصنوع من أصداف ولآلئ وطحلب،
فكّر:
"الآن عرفت كيف هي الشمس.
لكنني عاجز عن شرحها لأولاء
ممن ليس لديهم سوى عيونهم.
ربما غير المتعلم
يمكن أن يتعلم،
لكن كيف لي أن أعلّم

ذاك الذي عرفتُه وشعرت به؟

ما يزال الكفيف يتوسد مهاد المحيط
ليرحّب بالبحارة الجدد.

**

ترجمة الشعر

شعر: ك.ساتشي **داناندان**

ترجمة الشعر
هجرة وانتقال،
كما السمكة تغطس في الماء
ينتقل المترجم خلل
العقول. على ضفة كل
كلمة، في كثيف الرمل،
يركع، يدرس
لون كل صدفة
ينفخ في كل محارة.

ترجمة الشعر
هي الانتقال الرئيس المربك لحكايا

■ concents ■

الفيكرامادينيا[*]. المترجم يسند رأس شاعر آخر
على جذعه. كل بيت
هو زقاق أنهكته
الحرب، البؤس، السأم.
زقاق جانبي من موسيقى على امتدادها
يمر استعراض الخالدين، والآلهة
والشجر. حفرة تفتح
حيثما ينتهي بيت شعر. أرواح
الموتى تطفئ لظى عطشها
في بركة السكون تلك.

يا من تسلكون هذي الدرب،
لطفاً اخلعوا نعالكم
واتركوا أرديتكم هنا
يجب أن تتسللوا إلى الداخل عراة
مثل الريح في الوادي.

يوماً حلمت أني (توقفت عن الكتابة هنا. تكملة القصيدة غير موجودة. ملاحظة المترجم)

[*] *الفيكرامادتيا: هو تشاندرا غوبتا الثاني. اشتهرت امبراطورية غوبتا في الهند برعايتها للثقافة والفن (المترجم)*

••

2- آخر الأباطرة

(إلى أوم براكاش سنغال)

شعر: ك. ساتشي داناندان

آخر الأباطرة أخرس.
صوته يأتي من خلف الستار.
إشارته لا تعني الكثير،
الراشدون يقرؤون معاني فيها.
حين يضع دمية كي ينام
يعلنون حظر التجول في العاصمة.
حلمه مسكون بصغار
الأرانب البيض، لكنهم
يقولون إنه يحلم بالمعارك.
إذا ما تشاجر مع القطيطة السوداء،
يعلنون الحرب على
البلد المجاور.
ما كان ليحدث شيء للبلد
لو لم يكُ هناك.
لكن كيف للناس أن يعيشوا

■ concents ■

دون امبراطور،

ولو كان طفلاً، ليقودنا؟

***

غاندي والشعر

شعر: ك. ساتشي داناندان

في يوم وصلت

قصيدة ناحلة إلى معتكف غاندي

لتلقي نظرة خاطفة

على الإنسان.

غاندي وهو يغزل

وخيطه صوب رام

لم ينتبه للقصيدة

المنتظرة على بابه

خجلى لأنها ليست بهاجان[*]

القصيدة الآن تتحنحت

---

[*] ***بهاجان:*** *واحدة من أشكال صوتية موسيقية عديدة في شمال الهند. هي أغان تعبدية كتبت في ق 15 من قبل الشعراء القديسين وهي تغنّى بالهندوسية مديحاً لشتى الآلهة الهندوس (المترجم)*

ونظر إليها غاندي من طرف عينيه
خلل تلك النظارتين اللتين شاهدتا جهنم.
"هل سبق وغزلت خيطاً؟" سأل،
"سبق وجررت عربة قمامة؟
سبق وتحملت دخان
مطبخ في الصباح الباكر؟
هل سبق وتضورت جوعاً؟"

قالت القصيدة: "ولدت في الغاب،
في فم صياد.
صياد سمك رباني
في كوخ.
لكن لا أجيد أي عمل، فقط أغني.
في البدء غنيت في الساحات:
ثم صرت ممتلئة صحة ووسيمة
لكنني في الشوارع الآن،
نصف ميتة من الجوع."

"هذا أفضل"، قال غاندي
بابتسامة بارعة، "لكن عليك الإقلاع عن هذه العادة
من الكلام بالسنسكريتية بعض الأحيان.

امض إلى الحقول. أصغ إلى

لغة الفلاحين".

استحالت القصيدة حبة قمح

ولبثت تنتظر في الحقول

مجيء الفلاح

ليقلب التربة العذراء

المرطبة بجديد الهطول.

1993

***



تلعثم

شعر: ك. ساتشي **داناندان**

التلعثم ليس بعاهة،

إنه أسلوب كلام.

التلعثم هو الصمت الذي

يقع بين الكلمة ومعناها،

مثلما العرج هو

الصمت الواقع بين

الكلمة والفعل.

هل التلعثم سبق اللغة
أو أعقبها؟
هل هو مجرد لهجة أو
اللغة نفسها؟ هذه الأسئلة
تجعل علماء اللغة يتلعثمون.

كل مرة نتلعثم
إنما نقدم تضحية
لإله المعاني.

حين يتلعثم شعب بأكمله
يصبح التلعثم لغتهم الأم:
كما حالنا اليوم.

الإله نفسه لا بد أنه تلعثم
حين خلق الإنسان.
لهذا كل كلمات الإنسان
تحمل معاني مختلفة.
لهذا كل شيء ينطق به
من صلواته حتى أوامره
يتلعثم

كما الشعر.

2000

•••

الطبل

الطفل يتشوق لمعرفة
من أين يأتي صوت الطبل.
مرة رفعتُ غطاءه و
استرقيت النظر.

وجدت غابة في الداخل
والوحوش تسعى
والسماء تمطر دون توقف
والنهر في فيضانه
والريح تزداد عويلاً
تحت السماء الداكنة.
إنه متوحش يركب بيسوناً(*)
يطلق بوقه.

(*) البيسون: الثور الأمريكي.

أعدت الغطاء
بيدين مرتجفتين.

والآن كلما سمعت طبلاً
أصل إلى غاية برية
في مطر منسكب على
جزيرة وسط محيط
وأنتظر هناك
لتهدأ العاصفة
لتبزغ الشمس حيّة من
منقار الرخّ وليصل
صديقي من البرّ
بورود
وقلم.

2000

□□□

قدر يمتطي المنكبين
تأليف: إشوار شاندر

■ ترجمة : عبد الكريم ناصيف■

منذ الصباح الباكر كانا يجلسان صامتين، ولا يفعلان شيئاً، من حين إلى حين كانت المرأة العجوز تسأل الرجل العجوز إن كان يرغب في تناول شيء من الطعام وكان العجوز يكرر فقط ما كان قد قاله من قبل "لست جائعاً".

ابنهما، فيكرام، كان قد غادر في السادسة صباحاً، وكان قد أخبر والديه، وهو يغادر، أن "طلاب الكلية أصدروا نداء يطالب بإضراب هذا اليوم... أنا فقط سأقوم بجولة لأرى إن كانت هناك أي حوانيت مفتوحة.. ثم .. نعم.. لا تقلقا علي إن تأخرت".

بعدئذ، وبسرعة، شغّل دراجته البخارية وانطلق. لم تتح الفرصة للعجوز أن يسأله لماذا أصدر الطلاب نداءهم للإضراب، ولماذا ينقلون الإزعاج للمواطنين إن كان الخصام محصوراً بجماعتهم.

في اليوم السابق، حين جاء فيكرام بدراجة أحدهم إلى المنزل شك الرجل العجوز بأن شيئاً ما يطبخ في السر، وكان ذلك يحدث دائماً بتلك الطريقة، "النموذج ذاته للعملية". إذ ما إن يخطط الطلاب للقيام بإضراب حتى يأتي فيكرام بدراجة أحدهم. بعدئذ، ولكونه زعيماً للطلاب، يغادر باكراً في الصباح التالي، ذلك هو الأمر. وطوال اليوم يظل يتجول هنا وهناك، ذاهباً إلى أمكنة لا يعلمها إلا الله.

وتذكر العجوز كم كان سعيداً يوم فاز فيكرام بانتخابات الكلية. بل إن العجوز،

وطوال اثني عشر يوماً تقريباً، لم يستطع العمل في مكتبه، إذ كان يترك كرسيه كل بضع دقائق ليذهب ويجلس مع زميل من الزملاء المعروفين، يتحدثان عن تفاهات عذبة ثم يبدأ، مرفوع الهامة فخراً وكبرياء، فيخبر الزميل أن ابنه فيكرام انتخب قائداً في كليته، وقد فاز في الانتخابات بأغلبية الأصوات الساحقة.

ولعل الرجل العجوز كان يتجاوز الحد، وعن طريق الخطأ يروي القصة بكاملها مرة ثانية لاثنين من زملائه، وحين يقولان له إنه سبق وحكى لهما القصة من قبل، كان يكتفي بالابتسام معتذراً عن خطئه.

بالحقيقة، كان الرجل العجوز قد فكر بالمستقبل البعيد. لقد خطر بباله أن فيكرام لم يفز إلا بانتخاب واحد حتى الآن، لكن بعد حين من الزمن، سيطلب إليه أن يتقدم لانتخابات البلدية، بتلك الطريقة، وببطء لكن بصورة مؤكدة سيكون ابنه شخصية هامة جداً ذات يوم..

بيد أن اليوم الذي تحطم فيه حلمه إلى شظايا قد جاء.. ذلك اليوم، وبسبب شجار حدث بين صف من الصفوف وأحد المحاضرين أعلن الطلاب الإضراب، بعدئذ ساء الوضع واستدعيت الشرطة، تبع ذلك مناوشات بين الشرطة والطلاب. أصيب ابنه إثرها بأذى ونقل إلى المستشفى، وقد كُسرت ركبته كسراً استغرق ثلاثة أشهر إلى أن شفي فيما الزيارات اليومية إلى المستشفى جعلت الرجل في حالة عطالة تماماً.

في تلك الأيام الضاغطة، أدرك الرجل أن ابنه أخطأ في جعلهم ينتخبونه قائداً، لقد آذى نفسه وجر على العائلة قدراً كبيراً من الإزعاج والمشاكل. فخطر في باله أن يقدم لابنه شيئاً مما يدور في ذهنه، وأن يطلب إليه الانقطاع عن الدراسة والبحث عن عمل في مكان ما.

غير أن فيكرام لم تستهوه الفكرة، وجهة نظره أنه سيحاول ضمان معدل جيد في الفحص ومن ثم يساوم من أجل عمل أفضل، ولكونه زعيم الطلاب، فقد كان على صلة بكثير من الناس الذين يحسب حسابهم والذين يتبوءون مناصب رفيعة. لقد كانت له اتصالات ممتازة أيضاً. لهذا، فإن حصوله على منصب جيد ليس بالمشكلة.

لم يصرّ الرجل العجوز. هو الذي كان يعمل والذي كان سيتقاعد من عمله بعد خمس سنين فقط. على أنهم لم يكونوا يعيشون في حالة عوز أيضاً. فالمال الذي

يأتي به إلى المنزل، أياً كان، يكفي لعيش مريح، إذ أن أسرته لم تكن كبيرة، ولدان: الصبي فيكرام، وابنة، أي أسرة صغيرة من أربعة افراد. فيكرام أكبر من أخته التي كانت في الصف العاشر، وكان العجوز قد أخذ مسبقاً قراراً بأن يرتب زواجهما كليهما في الوقت نفسه. بذلك ينفق المال على زواجهما مرة واحدة فقط. في ذلك الوقت، سيكون على أي حال قد صار متقاعداً، وسيكون فيكرام قد استلم عملاً جيداً.. وهكذا سيعيش العجوز وامرأته في راحة تامة. تلك كانت أحلام المستقبل التي يحلم بها الرجل العجوز ويوشي بها أفكاره..

لكن أمس حدثت ضجة أخرى في كلية فيكرام.

إذ قالت عمادة الكلية إن ولداً سيئاً صفع الأستاذ وهي تهمة أنكرها الفتيان الآخرون، بل أصروا، بالحقيقة على أن الأستاذ هو الذي صفع الطالب، ومع تشعب أبعاد المشكلة، وصل الموقف إلى نقطة طالب فيها الطلاب بعد أن دعوا للإضراب بطرد الأستاذ، وإلى أن يتم ذلك ما من طالب سيدخل الصف، بذلك حدث المزيد من الهياط والمياط، وفي النهاية انضم طلاب المعاهد الأخرى إليهم واستمر الإضراب.

هذا اليوم، دعا الطلاب إلى متابعة إضراب شامل في المدينة، وخرج فيكرام على دراجته البخارية في مهمة استكشافية إذ بوده أن يكتشف ما إذا كان الإضراب مطبقاً أم لا، خصوصاً من قبل أصحاب الحوانيت.

صار الوقت الظهر ولم يعد فيكرام، أخته عادت باكراً لأن هناك إضراباً والمدارس مغلقة، فاستلقت متراخية بعد أن تناولت فطورها، بيد أن العجوزين لم يتناولا شيئاً، كانا ينتظران مجيء فيكرام كي يتناولوا وجبتهم الصباحية معاً. وكانا فقط يجلسان صامتين ليتحركا مجفلين كلما تناهى إلى سمعهم أصوت دراجة بخارية. إذ يظنان أن فيكرام عاد إلى البيت لكن حين تتجاوز الدراجة بابهما ويخفت صوتها وهي تبتعد، يجللهما الحزن ويكتفيان فقط بالنظر يائسين إلى عقارب الساعة وهي تتكتك قاطعة في طريقها الثواني والدقائق ثم يسمحان لنفسيهما بأن يتحولا إلى شبحين غارقين في أعماق الصمت.

كان الوقت يمر كعادته، وكانت الزيارات المتقطعة للصبيان تنقل إليهما آخر تطورات الموقف. إذ قالوا لهما أن الإضراب نجح نجاحاً تاماً. وأن الحوانيت مغلقة وما من شيء يباع حتى في أكشاك الممرات. على أن العجوز لم يكن في حالة الذهن المناسبة لكي يفهم ما يحدث، لقد تجاوز الموقف، القائم، حدود فهمه، ولم

يستطع أن يقرر ما إذا كان ينبغي أن يكون سعيداً لنجاح الطلاب هذا أم يبقى مجرد مراقب صامت.

في حوالي الثانية عصراً توقف غلام يركب دراجة بخارية عند بابهم وأعلم العجوز أن الشرطة ألقت القبض على القادة الطلابيين وفيكرام واحد منهم. "لكن لا بأس، كل شيء سيكون على ما يرام. أنا فقط مررت في طريقي مروراً، رغم أنني كنت أفضل إعلامكم بهذا التطور. فنحن جميعاً نقف وراء فيكرام وما من شيء سيحدث له، كما أننا سنهتم بكل شيء".

بعدئذ غادر الفتى ليبقى العجوز في حيرة واضطراب، لبس حذاءه، أسقط بعض قطع العملة في جيبه ثم أسرع إلى مخفر الشرطة، حين وصل إلى هناك، رأى حشداً كبيراً يرفع لافتات وشعارات فاقترب من الحشد، حيث عرفه كثير من الفتيان. أحدهم اقترب منه ثم سأله: "لماذا أنت هنا يا عم؟"

ضيّق العجوز عينيه محاولاً أن يبحث عن فيكرام في خضم الحشد الصاخب ثم سأل "أين هو؟ أين فيكرام؟" فأجاب فتى آخر.

"فيكرام، ألقت الشرطة القبض عليه".

فقال، وهو يتغلغل في الحشد أبعد وأبعد، "سأمضي إلى الداخل وأقابله" غير أن فتى آخر سأله: "وما عساك تفعل في مخفر الشرطة؟".

"حسن.. سأعمل على إطلاق سراحه"

بيد أن فتى بدا أشبه بقائد، مشى الهوينى باتجاهه، وبكل احترام وتهذيب قال: "انظر عم! هذه معركتنا التي نخوضها. فيكرام قائدنا وواجبنا نحن أن نطلق سراحه، فلا تتدخل في هذه المعركة، يا عم! أرجوك".

خيبة أمل أصابت العجوز فقال: "لكن.. لكن.. إذن.. اسمحوا لي أن أراه.. إنه ابني، وأظن أن من حقي أن أراه.. بالتأكيد أناسوف.." غير أن أحد الفتيان تقدم ثم قاطعه قائلاً: "أجل، يا عم! هو ابنك، لكن هو قائدنا أيضاً، وإنه بطلنا، إنه بطل.. ولسوف نعمل على إطلاق سراح بطلنا. فاذهب من فضلك إلى المنزل واسترح قليلاً عم، دع هذا كله لنا كي نقوم به".

بعدئذ.. ساعده الفتى للخروج من الحشد، يائساً تطلع العجوز إلى بوابة المخفر الحديدية، ثم، بقلب مثقل وخطا مترنحة مشى طريقه عائداً إلى البيت.

في طريقه إلى البيت فكر وفكر بتلك الورطة، أي نوع من المعركة هي؟ فهو لم يسمح له حتى برؤية ابنه، لو أنه تأكد فقط من أن الشرطة لم تتبن منهج الدرجة الثالثة، وتضرب ابنه بلا رحمة، لكن هؤلاء الفتيان.. لم يسمحوا له بفعل أي شيء.

في الرابعة عصراً ، وصل أحدهم على دراجة بخارية. كان يشهق منقطع الأنفاس. قام فقط بإعلام العجوز أن الشرطة أطلقت سراح فيكرام، والآن، سنسير في مسيرة كبيرة إلى مقر الرئيس في البلدة، وقد بعثني فيكرام كي أنقل لكم أن عليكم ألا تقلقوا إذا ما تأخر".

ابتسامة خفيفة تراقصت على شفتي العجوز، فقد أسعده أن يعلم أن الفتيان وفوا بوعدهم، لقد خلصوه بعد كل شيء من براثن الشرطة، تنفس العجوز الصعداء، ثم فكر بأن الفتيان سيقومون بمسيرة كبيرة إلى مقر المسؤول الأول في البلدة، يسلمونه نوعاً من المذكرة ويعودون إلى منازلهم.

لكن الرياح لا تجري بما تشتهي السفن.

ففي التاسعة مساء وقفت سيارة جيب خارج منزله، في إثرها عربات ودراجات بخارية، فذعر الرجل العجوز شاعراً أن خطأ ما حدث، وظل يحملق في الحشد بكثير من الحيرة، لم يستطع أن يفهم لماذا يتجمع حشد ضخم كهذا، وفي هذا الحشد أين ابنه فيكرام يا ترى؟ في تلك الأثناء وصلت امرأته العجوز وأخت فيكرام، فترجل فتى من الجيب، وببطء، بكثير من البطء، وبصوت ثقيل أجش، أعلم العجوز قائلاً: "لقد ذهبنا إلى مقر المسؤول كي نسلمه مذكرة بطلباتنا لكنه رفض أن يقابلنا. تبع ذلك شغب واضطراب واختلط حابل الحشد بنابله. وصلت الشرطة ولجأت إلى إطلاق النار لتفريق الحشد، فأصابت رصاصة فيكرام، هناك الكثير من الإصابات وقد نقل المصابون جميعاً إلى المستشفى لكن لسوء الحظ فقدنا قائدنا. فيكرام مات..

صرخة مدوية انطلقت من فم العجوز.. دون أن يستطيع التحكم بها.. فيما بدأت أخت فيكرام تولول لكن شيئاً ما توقف داخل العجوز، فوقف هناك ساكناً كالحجر، لقد بدا وكأن شيئاً ما انزلق من بين يديه.. ثم بعد صمت طويل.. انبثقت الكلمات من شفتيه "أين فيكرام؟"... أين هو؟ .. أين ابني؟

شد الفتى أعصابه، وبكل جدية قال: جثمان فيكرام يتمدد هناك في حرم الكلية. كثير من عاملينا هناك، فقد قررنا أن نخرج بموكب جنازته غداً، ولسوف يعامل معاملة الشهيد، هذه الليلة سنعتصم أمام مبنى المسؤول، وجثمان فيكرام في مقدمتنا.

صباحاً سيعقد اجتماع تعزية، ثم ينطلق موكب الجنازة من هناك، ليتوقف هنا قليلاً وهو في الطريق إلى المحرقة".

لم يبد على محيا العجوز أي انفعال، لعله لم يسمع شيئاً فناظراه كانا معلقين في الأعلى بالسماء. لم يقل الفتيان شيئاً.. لم يفعلوا شيئاً، فقط تطلعوا إليه متعجبين ما الذي حدث له.

بعد حين من الزمن قال العجوز بصوت منكسر "خذوني... خذوني إلى فيكرام".

في تلك اللحظة لم ينطق أحد بكلمة واحدة، لكن حين رأوا أن الرجل مصمم كل التصميم، خرج فتى ذو لحية من الحشد ثم وقف وجهاً لوجه أمام العجوز، وبصوت ثقيل لكن لطيف تكلم "عم! بودي أن أتوسل إليك أن تقلع عن فكرة رؤية جثمان فيكرام الآن. الحقيقة هي أن الجو السائد مشحون بالعنف والغليان.. توتر فظيع يسود هناك .. ولعل رؤيتك وأنت تبكي ستجعل حشود الطلاب تخرج عن طورها، حضورك ربما، ربما يولّد شعوراً بالانتقام، وقد يفلت زمام الأمور وتتفجر أحداث عنف". بعدئذ طوى يده ثم تابع "لهذا أرجوك أن تقلع عن فكرة الذهاب إلى هناك".

بضع لحظات أطرق العجوز مفكراً، ثم وهو يبلع ريقه، تنحنح قائلاً:

"ستأتون بالجثمان إلى هنا صباحاً، على ما أظن؟" فرد الفتى:

"أجل عم! أرجوك! سنأتي به".

وبغصة في حلقه شوهت صوته سأل العجوز:

"في أي وقت ستأتون به هنا؟" فقال الفتى ذو اللحية:

"حوالي العاشرة سنكون هنا على طول مع موكب الجنازة".

ومرة ثانية افتقد العجوز صوته حيناً من الزمن، فيما وقف الفتيان صامتين ناظرين إليه نظرات الخوف. أحد الفتيان وهو يحطم الصمت، سأله: "عم، هل نمضي الآن؟".

لم ينطق العجوز، بل اكتفى بإيماءة من رأسه وبأسلوب معين اعتبره الفتيان نوعاً من الموافقة".

مرة ثانية دوى صوت المحركات الذي يمزق الأسماع مالئاً الجو. لقد ذهب الفتيان. انتهى الشغب وكذلك حياة فيكرام. يظل العجوز مع جيرانه المباشرين فقط،

هم الذين سمعوا ما قاله الفتيان، فاقتربوا من العجوز مقدمين له العزاء. حينذاك فقط انهمر سيل من الدموع على وجنتيه ثم احتضن ابنته وشرع ينشج أشد النشيج. حمله الجيران وأدخلوه إلى المنزل.

في حوالي العاشرة صباح اليوم التالي بات بالإمكان سماع الصوت الصاخب من بعيد. خرج الجيران من منازلهم، فيما كان الحشد يتقدم نحو منزل الرجل العجوز. في المقدمة كانت سيارة جيب محملة بالأزهار والأكاليل وقد وضع عليها جثمان ابنه فيما كان الآلاف من الطلاب رافعي اللافتات والشعارات يسيرون خلف الجيب.

عرف العجوز أن فيكرامه آت. سيناريو اليوم السابق تشكل وبرز طيف أمام عينيه. في السادسة صباحاً كان فيكرامه قد غادر راكباً الدراجة البخارية واليوم في الصباح التالي فقط، يعود إلى المنزل ميتاً! طبعاً مع حشد كبير، فأي عودة إلى المنزل!!

توقف الحشد عند باب منزل العجوز، كان الفتيان قد زينوا الجثمان بالأزاهير. وهكذا بخطا ثقيلة مضى العجوز إلى الجيب، عيناه مغرورقتان. تتبعه امرأته العجوز وابنتهما. وحده وجه فيكرام كان ظاهراً. بقية جثمانه أخفتها الأزهار والأكاليل. أحد الفتيان، وهو من حملة الأكاليل، تقدم نحو العجوز مقدماً له واحداً ثم قال: "ضعه على الجثمان يا عم، عمة، وأنت أيتها الصغيرة، أنتما أيضاً".

كانت العجوز على حافة الإغماء، لكن الرجل كان قد سيطر على نفسه فيما أضواء العدسات تلمع. أحد الفتيان انفصل عن الحشد ثم اقترب من العجوز قائلاً: "عم، ألا تريد أن ترافقنا إلى المحرقة؟".

غصة كبيرة كادت تخنق الرجل العجوز. بعدئذ خرجت كل كلمة من فمه بالإكراه "من؟ ... أنا؟ كيف يمكنني أن أذهب يا بني؟ هل من والدي يذهب إلى محرقة مع جثمان ابنه؟ لا بد أن يكون والداً سيء الحظ من..."

الفتيان كلهم كانواصامتين. بعد بضع دقائق رفع جثمان فيكرام من الجيب وجيء به إلى باب منزله، وبعد انتهاء الطقوس، حمل الفتيان الجثمان على أكتافهم مرة ثانية واهتز الحشد كله مائجاً بالهتافات:

"يعيش الشهيد الخالد الأخ فيكرام"

حيناً من الزمن، ظل الفتيان يكررون الشعار، بعدئذ تحركوا، في إثرهم الجيران.

فبدا للرجل العجوز وكأن الفتيان يحملون على أكتافهم جثمان أحلامه.

نظر إلى الموكب المبتعد ثانية والدموع ملء عينيه، بالآلاف كان الطلاب يرفعون أيديهم هاتفين بالشعارات المرة تلو المرة، خطر ببال العجوز أن ابنه كان، بعد كل شيء، "أحداً ما" شخصاً ما عظيماً حقاً، وإلا ما كان موكب جنازته سيكون بتلك الضخامة، وفي الحال سرى في كيانه كله شعور بالفخار، ثم وإحساس بالعزاء يطغى عليه، انغمس عميقاً في أفكاره تلك التي لم يقطعها سوى شعار يمزق القلب راح يتكرر المرة تلو المرة وتعلو به أصوات الفتيان Ram nam Sunghai الله معك، الله معك..

أدار العجوز رأسه ناظراً إلى زوجه وابنته المرتجفتين كلياً، فانتابه شعور بأن مستقبل بيته، الذي كان يمتطي منكبيه، قد ترجل عنهما وتفكك، بعد ذلك شرع يلفه النسيان..

مترجمة أصلاً عن السندية

□□□

الكذبة القديمة ذاتها

تأليف: نصيرا شارما

■ ترجمة : موسى عاصي ■

خفق قلب راجوبي فرحاً وهي تترجّل من قطار في محطة كبيرة، قبضت على يد زاهيدا بإحكام. بسملت ونظرت حولها وسارت إلى الأمام. بلل العرق زاهيدا.

كانت الحرارة عالية. وضايقتها الثياب الحريرية ووخزتها المجوهرات النحاسية. قالت راجوبي مؤنبّة: هيّا أيتها الفتاة.

ترنّمت زاهيدا وأرجحت قدميها بهدوء: أحسّ بدوار .

قالت راجوبي: دعينا نجلس. قبضت على يد زاهيدا بقوة وسحبتها إلى مكان أقلّ ازدحاماً، وجلستا تتكئان على جدار مخزن. راودتها فكرة، فاستدارت وشدّت على يد زاهيدا.

أين ذلك الخائب؟ قال إنّه سينتظرنا هنا، وإنّه سيصل قبلنا. إلى متى نستطيع الانتظار في قطار فارغ؟

تناولت راجوبي كيس تبغها وأخرجت بعض التبغ الممزوج بالزيزفون.

قالت زاهيدا وهي تمسح العرق عن وجهها بيديها اللتين تغطيهما الحنّاء: أنا ظمآنة يا خالة.

أعلنت راجوبي وهي تُخرج زجاجة من حقيبتها وتسير ناحية صنبور الماء: سأتعرّف عليه بالتأكيد، فقد رأيت صورته. لكنّها استدارت بعد أن سارت خطوتين وخاطبت زاهيدا:

رأيتِ صورة العريس المنتظر... فلا تخجلي إذا رأيته خلال غيابي فناديني. مشت راجوبي إلى الأمام على رصيف التفريغ مستخدمة يديها وفمها وهي تقول: ناديني.

كاد الظهر يأفل، لم يأت العريس ولا أهله. تناولتا الطعام الذي تزودتا به كلّه الليلة الماضية، ولم تتناولا الإفطار.

بدأت معدتاهما تهدران، لم يكن لدى راجوبي إلاّ بطاقة إيابها وورقة مئة روبية، عبّر وجه زاهيدا أنّها سئمت الانتظار. تثاءبت غير مرّة وحكّت رأسها وساقيها بالتثاوب. تدلّى شعرها على جبهتها وتصبب العرق منها، أخفى احمرار وجنتيها وشفتيها لون وجهها. فقَدَ وجه العروسة السطوع الذي اعتلاه البارحة. حدّقت راجوبي مليّاً في عيني زاهيدا حزينة وتنهّدت نهدة عميقة. انتابت راجوبي نوبة نزق فجأة. أين اختفى الوغد؟ الفتاة تكابد محنة حقيقية ولا يعرف مكانه إلاّ الله.

انتحبت زاهيداً مع سدول الظلام في المحطة. تملّكت راجوبي رهبة مخيفة.

ارتعشت خوفاً من فكرة قضاء الليل في محطة قطار خالية في مدينة غريبة، ومع عريس شاب. تنامى حبّ زاهيدا في صدرها. ماذا يخفي المستقبل لهذه الفتاة اليتيمة المسكينة؟ نبذل قصارى جهدنا لإسعادها، لكنّ الأمور تتفاقم سوءاً، تشي الحالة التي نعيشها الآن بأنّ رمضان تخلّى عنها وركل الدلو وسفح الماء. قدرت أن تصرف ورقة المئة روبية مسلوبة الفؤاد. تحوّل الصباح إلى ظلام، وبات عليهما مؤاساة معدتيهما.

سال لعابها وهي تقف في طابور شراء الطعام، خاصة عندما اقتربت ووقع نظرها على أصناف البطاطا المحمّرة الحارة ومنكّهاتها. أغراها منظر شرائح البطاطا ترتفع في الزيت، وعضّها الجوع أكثر، عادت حاملة شطيرتين من البطاطا في كلتا يديها.. ووجدت زاهيدا غارقة في غفوة خفيفة.

هيّا يا حبيبتي .. ليس هذا وقت النوم، مسحت زاهيدا العرق عن وجهها لدى سماعها اعتراض راجوبي الرقيق وراحت تضبط المئزر على رأسها.

أيتّها القطة الصمّاء! إذا واصلتِ انتظار زوجك خجولة، فمن يأكل هذه؟ وضحكت راجوبي، ووضعت الشطيرة من يدها اليسرى على صندوق الثياب وناولت ما في يدها اليمنى إلى زاهيدا.

هذه لكِ.. سأحضر بعض الماء البارد.

لم تستطع زاهيدا انتظار عودة راجوبي. ثقبت أعلى شطيرتها بإصبعها وراحت تلتهم بلقمات كبيرة.

أنهت زاهيدا طعامها مع وصول راجو بي عائدة بالماء. تجشّأت وفردت قدميها وراحت ترقب النشاط البالغ في المحطة هادئة، نسيت أنّها عروس، وأنّها في السابعة والنصف مساءً ستتزوج من شخص اسمه سالم، لم تره إلاّ في الصورة، طبقاً للعادة، جاء رمضان حاملاً عرضاً من دلهي، رتّبت راجوبي كلّ شيء في كالكوتا، وعد الجيران أن يدفعوا مبلغ مئة وخمسين روبية مكافأة إلى رمضان، فرح الجيران كثيراً بزواج زاهيدا. بدا الشاب مناسباً جداً، إضافة إلى أنّه يشغل وظيفة لائقة في دلهي، ولذلك أسهم جميع الجيران الأثرياء في تقديم الثياب الفاخرة والقلادات الخرزية الزاهية والأقراط كمهر، وزيّنوا صندوق العروس، مما أسعد زاهيدا كثيراً، قبل رحيلهما إلى دلهي، وحدث هذا كلّه فجأة. نسيت زاهيدا الآن أنّها تهزّ قدميها. وقف قبالتها متسكعان يدّخنان ويحدّقان إليها. خافت من الاستهانة الظاهرة في عيونهما. سحبت

قدميها، غطت جبينها بمئزرها وأشاحت وجهها عنهما.

قالت راجوبي: رائعة هذه البهارات الموجودة مع البطاطا. لحست شفتيها مستمتعة بطعمها، ورشفت جرعة ماء كبيرة.

لاحظت زاهيدا تربض وجلة فضحكت أولاً، ثمّ وجدت منفذاً للإعراب عن الاستياء، مالكِ تغطّين وجهك تارة وتسفرين عنه تارة أخرى. ما نوع هذا التمثيل؟

استجابت زاهيدا لسخرية راجوبي وقالت: أنا خائفة من هذين الرجلين يا خالة.

استدارت راجوبي: ممن؟

همست زاهيداً: من هذين الرجلين الواقفين هناك تحت الساعة.

أولاد الخنازير! ضغطت راجوبي على أسنانها وشتمتهما.

رأت زاهيدا راجوبي تنهض لغسل يديها، فسكت معصمها وقالت: لا تذهبي إلى أي مكان يا خالة.

قالت راجوبي: رويدكِ أيتّها الحمامة، لا تخافي.. وحررت يدها ومشت بضع خطوات. تحرّك الرجلان ناحية زاهيدا، في اللحظة ذاتها، ينفثان دخان سيجارتيهما، رأت راجو ذلك فوثبت كالهرّة راجعة إلى جوار زاهيدا، تُطلق عيناها شرراً وهي تحملق في الوغدين خائفة، شاهدا راجو وقد تبدّل سلوكها، فأدركا أنهما لن يُحرزا نجاحاً هنا. وفوق ذلك، ليست الحالة سامية جداً لاهتمامهما. ابتعدا قليلاً وأطلقت راجو نهدة نجاة، ومسكت رأسها بيديها واستسلمت لقلقها. ما هذه المحنة التي أواجهها من جرّاء قدومي إلى هنا؟ لا تملك نقوداً لشراء بطاقة إياب لزاهيدا، إذا اضطرتا للعودة معاً، فضلاً عن أنّها إذا اضطرت للإنفاق على ترتيبات الزفاف فلن تستطيع البقاء في أي مكان، اللعنة على رمضان علي الذي سيطرت كلماته عليها. حذّرها الجميع قائلين: إنّ دلهي بعيدة جداً. كان من الأجدى أن تجدلها عريساً من الجوار.. كم كانت حمقاء في موافقتها بناء على رؤية صورة سالم فقط، أمّا وقد...

أجل يا خالة! ماذا يشغل بالك؟

ارر..... ما الذي يمكن أن يُشغل بالي؟ استدار الصباح مساء، ولم يأت رمضان ولا سالم. أحسّ بالخوف ينخر معدتي!

إن لم يأت أحد إلينا.. فأين نقضي الليلة؟

من يستطع تعيين مكان لنا؟

دعينا نرجع يا خالة! ينتابني القلق.

القلق؟ تمالكي نفسك، لا شيء نخاف منه، مازال أمامنا الغد. قد يأتي من يأخذنا صباح غد... فالعظماء ينسون مواعيدهم أحياناً! لم يكن واضحاً إذا كانت راجوبي تواسي زاهيداً أم تواسي نفسها.

فتحت راجوبي كيس تبغها بعينين نصف مغمضتين، وحشت بعض التبغ ومسحوق النبتول في فمها، وأضافت مقداراً معتدلاً من الجير من ثنايا حقيبتها الداخلية الصغيرة. جالت بعدسات بصيرتها، وهي تمضغ التبغ، وحاولت أن تحدد مكاناً تستطيعان قضاء الليل فيه، وفكّرت كيف ستقدّم زاهيدا إلى الرجل المناسب قبل رحيل قطار الغد. إنّها امرأة في النهاية، ويجب أن تبني بيتاً ذات يوم، إن لم يكن سالم فهناك برلمات، وإن لم يكن برلمات فأي شخص آخر، مُقْعد يفي بالغرض. يحمل الرجل معنى هاماً للمرأة حقاً، فهي تحتاج إلى عونه حتى لو كان كالباب المخلوع. عندما تعتمد المرأة على رجل تستطيع قضاء حياتها مرفوعة الرأس.

قالت زاهيدا بصوت ينمّ عن وجل: يا خالة! خلا الرصيف من الناس.

تبينت راجوبي دبيب الخوف في عينيها، ولم تمض سوى فترة وجيزة حتى أحسّت هي التشوش يتسلل إليها.

جرى كلّ شيء تحت ضوء الرصيف الخافت. خلت خطوط السكّة الحديدية من كلّ شيء وكلّ شخص، وعمّ الظلام. إذا صرختا فمن يستجيب لصراخهما ويغيثهما؟ بدا جلياً أنّ الشمس أخذت معها حيوية النهار الفعّالة معها. لم يبق أمل بوصول قطار. اقشعر جسد راجوبي في الشهر الصيفي الحار وكأنّها تلقّت وخزة هواء الشتاء البارد. سمعت حكايات عديدة عن العواصم والمدن الكبيرة، استطاعت عيناها القديمتان تمييز الفرق بين دلهي وبين كالكوتا بدقة. كان ذلك هو السبب الذي جعلها تطلب من رمضان علي أن يشتري لها بطاقة إياب. نصحها والد سوغرا قائلاً: وإنّ من الأفضل أن يأتي الشاب إلى كالكوتا ويتزوج من الفتاة ويأخذها، بدلاً من أن تذهب زاهيدا إلى دلهي. لكنّ رمضان علي رأى أنّ عائلة سالم لا ترغب في إنفاق الكثير من المال. أذعن الأهل لإرادة سالم الصلبة أن يتزوج من زاهيدا، بعد أن رأى في نظرة سريعة شعرها السبل وعينيها الواسعتين، وعد أن يدفع مكافأة من خمسمئة روبية إلى رمضان، وقد دفع مئتين مقدّماً وثمن بطاقتي القدوم وثمن بطاقة الإياب لراجو، لكن.. لماذا لم يظهر بعد هذا كلّه؟

قالت زاهيدا مضطربة، وهي تنظر إلى الرصيف الساكن: دعينا نذهب إلى هناك ونجلس يا خالة.

تأمّلت راجوبي في وجه زاهيدا مليّاً فتراءى فيه زاهيدا في الثانية من عمرها تنتحب، بصورة يتعذّر ضبطها، إلى جوار جثمان أمّها المجنونة. من كانت أمّها؟ وماذا كانت ديانتها؟ بدت الأسئلة من غير معنى في هذا الوضع حيث تغدو الحياة والموت، خلال الحركة السريعة لقافلة البشر، قضيتين مرتبطتين بعلاقة حميمة. انتفض الخضري جارهم في ماتيا بورج ورفع الفتاة الصغيرة، ووقف مرتعشاً وهلة وسط الزحام، حمل رجال المجلس البلدي الجثمان وانطلقوا. أصبحت تلك الطفلة ابنة للجيران الذين بدؤوا تربيتها باسم زاهيدا. كيف تتمكّن راجوبي أن تنسى العلاقة مع الطفلة الصغيرة كواحدة من الجيران؟ وفضلاً عن ذلك، كانت أكبر أفراد الجماعة عمراً، فرحتْ كثيراً من أعماقها عند خطوبة زاهيدا. عانقتها وأخذت تربت على كتفها بمودّة.

هدر عدد كبير من القطارات، لا يعرف عددها إلاّ الله، ودخلت إلى الرصيف الخالي.. استيقظ الحمّالون والباعة الجوّالون في اللحظة ذاتها، قدرت راجوبي، وسط الحشد الذي يحيط بهما، قدرت ألاّ تقضي الليلة هنا، ولذلك لا بدّ أن تبحث عن مكان عام ما أو مسجد أو مقرّ لقضاء الليل. وصممت أن تبحث هناك عن بيت يأوي زاهيدا ويناسبها. أمامها فسحة بين اليوم والغد! ستفتح في وجهها ألف بوابة، إن شاء الله، لا بوابة واحدة! لا يفيد الجلوس. مسكت يد زاهيدا ونهضت. تنكّبت حقيبتها، وحملت زاهيدا صندوق الجهاز الصغير، وشقّا دربهما وسط الزحام. كان المشهد في الخارج مختلفاً. أحاط سائقو سيارة الأجرة وسائقو الحافلات بالقادمين فخافتا من ذلك، وذهبتا ووقفتا في ركن تنتظران تشتت الحشد. شنّفت راجوبي أذنيها. اختارت، وهي تسير بعض أسماء الجيران الذين تناديهم عادة. اكتنزت بضعة أسماء في ذاكرتها. شاهدهما، بعد أن تفرق القادمون، أصحاب العربات التي تجرّها الرجال، فنزلوا إليها. توقّعت تحديد المسافة من مقدار الأجرة. لذلك بدأت تساوم على الأجرة. كم تريد لقاء إيصالنا إلى كاشي ديودي؟ وتسأل آخر: كم تتقاضى لقاء إيصالنا إلى تشيتلي كابرا؟

سأل أحدهم مستاء: إلى أين تودّان الذهاب؟

حاولت راجوبي إنقاذ الموقف. أعرف المكان جيداً لكنّ اسمه غاب عن ذهني.

قالت زاهيدا فجأة: خالة، يا خالة، كان رمضان شاشا يذكر اسم جامع ما، أليس هذا صحيحاً؟ أليس هو مكان إقامته؟ هل تذكرين؟

ارر .... فندق دلشاد، أجل قرب جامع جاما... تذكّرت الآن. تذكّرت. دعينا نذهب. من يوصلنا؟

قال أحدهم: الأجرة عشرين روبية. مسحت راجوبي أنفها عند ما سمعت الرقم، وراحت تتأمّل.

ادفعي ما شئت يا أماه... فأنا ذاهب في هذه الدرب وفي هذه العربة الجديدة. جرّ الرجل عربته إلى الأمام.

صعدنا إلى العربة. وصل النشاط في السوق إلى ذروته.

رفعت زاهيدا مئزرها عن جبينها وراحت ترنو إلى السوق منبهرة، ونقلّت بصرها من جهة إلى أخرى. جلستا في العربة وبدأت راجوبي تحدّث نفسها، فهي ترسم الخطط باستمرار.

كم يُنذر هذا بسوء طالع زاهيدا؟ يقتصر الأمر على سؤال واحد وإجابة من كلمتين عن الزواج، وهذا ما سأنجزه في الصباح.

توقفت العربة محدثة رجّة أعادت أحاسيسها إليها. يوجد طابور من المتسوّلين أمام جامع دلشاد يوزعون الطعام عليهم. وهاهو جامع جاما يرتفع في الجهة المقابلة، وهو منار بالمصابيح الكهربائية. أخرجت بعض الفكّة من محافظة نقودها وحدّقت لحظة في وجه الحوذي متأمّلة وسألته فجأة:

ما اسمك؟

ديبيك.

هل أنت متزوج؟

بركاتك يا أماه، عندي طفلان.

لا يناسب هذا الفتى مشروعي أبداً، وحتى اسمه ديبيك.

كان بإمكاني أن أعقد صفقة لولا وجود الطفلين.. لكن .. التوبة التوبة.. لأنّ إنزال زوجة ثانية على الأولى أشبه بفتح بوابات الجحيم، ووقفت راجوبي تغمغم بذلك أمام حانوت مغلق.

انخفضت جلبة السوق ببطء. أخذت رغيفين وبعض اللحم وجلست مع زاهيدا على حافة المعبر تطردان الكلاب وتأكلان. تناقص عدد المتسَولين أمام الفندق، بات بالإمكان رؤية الدرب. فُتحت أبواب الحوانيت. وقفت راجوبي طويلاً تقدّر المسافة، ثم ذهبت إلى الخبّاز وسألت: هل تعرف رمضان علي؟

قال: وهو يُخرج الأرغفة من بيت النار: كثيرون يحملون هذا الاسم. من منهم تريدين؟

عسير هذا يا أخي.. إنّ رمضان الذي أبحث عنه واحد من كبار السن أسمر ولحيته بيضاء. يرتدي دائماً قميصاً ترتسم المربّعات عليه، وقبّعة شبكية.

لا أعرف أحداً بهذه المواصفات. حمل الخباز طبقاً كبيراً ودخل إلى الحانوت.

عانقت راجوبي اليأس، لكنّ عينيها وقعتا بغتة على شخص يرتدي قميصاً عليه مربّعات، ويقف خلف أوراق شجرة اللبلاب. وثبتْ راجوبي ناحيته ونادت فرحة: رمضان.. رمضان علي! لماذا لا تسمع؟

استدار الرجل وسأل: من هناك؟

اعتذر يا سيّدي.. اعتقدتُ من ظهرك أنّك رمضاننا. أحسّت راجو بي أنّها على وشك البكاء عندما رأت وجه الرجل.

استدار الرجل ونظر ملياً اليها وطوى ورقة من النبتة ودسّها في فمه وسأل: ما الأمر يا أختاه؟

ليس هناك ما هو خاص. لم تعرف راجوبي إذا كان ينبغي أن تخبره الحقيقة أو أن ترجع صامتة.

لاحظ الرجل أنّ ألماً مبرحاً في داخلها ينعكس على وجهها.

لا ننام هانئين مادام أحد جيراننا يعاني محنة.. أليس هذا صواباً يا غردالو؟

أحنى الرجل رأسه موافقاً، وقال: نعم هذه تقاليدنا.

سأبقى هنا فترة وجيزة جداً. إذا قررت الوثوق بي يمكن لك البوح بما يعتمل في داخلك، ، وإلاّ فوداعاً. انزوى الرجل المتوسط العمر جانباً وراح ينفث دخان سيجارته ويرقب الطريق الخالية ويشيح ببصره من جهة إلى أخرى. راقبتكِ يا أختاه وعرفت مدى قلقكِ. لا بدّ أنّ ثمّة سبباً خاصاً يُجبرك على قرع الأبواب برفقة عروس حديثة العهد. إذا رغبتِ.. فبإمكانك الذهاب إلى بيت هذا السيّد. إذا لم يكن بإمكانك

الإفصاح عمّا في سريرتك له، فبإمكانك فرد مشكلاتك أمام النساء اللاتي في بيته.. طاوعيني.. واذهبي.. ولا تترددي.. سيرجع إلى بيته بعد الانتهاء من تدخين سيجارته. ثانياً: سيخيم الصمت على المكان في ظرف ساعة، ولا تتهاون شرطة الأمن عندها، وبعد ذلك.. يبدأ الاستجواب في رهبة الصمت وتنهال ضربات الخيزرانة مثل زخّ المطر.. ولدى رؤية ثياب الزفاف الحمراء لا يمكن لجم الثيران.. ولكِ أن تقدري. قال: يكفي هذا، وراح الرجل يُغلق حانوته. لاحظت أنّه يستعد للرحيل، ففكّرت أنّها يجب أن تثق بشخص ما في لحظة الخطر هذه.. أو..

سألت راجوبي سريعاً: كم يبعد بيتك من هنا يا سيّدي؟

إنّه في الجادة التالية، مير قاسم جان، في الساحة المربّعة خلف بائع العصير.

أنا ذاهب في الدرب ذاتها إلى بيتي يا أختاه، دعينا نذهب معاً، قال ذلك بعد إغلاق حانوته.

ما اسمك؟ ومن يقيم معك في البيت؟

اسمي غفور. بركاتك يا أختاه، بيتي مليء: أمي وجدتي وعمتي وزوجتي وأربع بنات وثلاثة أبناء.. مازال أبنائي صغاراً. تتراوح أعمارهم بين العاشرة وبين الخامسة، أنا الرجل الوحيد في البيت، لكِ أن تعتبريني ما شئت.

ماذا أعتبرك.. إنّك رجل حسن السيرة والسلوك، وأنت رجل بار.. وقد بعثك الله لإنقاذي، أفهم ذلك كثيراً. وزاهيدا مثل أختك الصغرى. سأحضرها. اجتازت راجوبي الطريق سريعاً إلى زاهيدا التي كانت جالسة على درجات حانوت مغلق.

سألت زاهيدا: هل وجدتِ أثراً لرمضان علي حتى ترجعي سعيدة جداً؟

اعتبريه شقيق رمضان علي. وجدنا سقفاً ننام الليلة تحته. وهل توجد غير المآثر التافهة في هذه البلدة السخيفة؟ تنكّبت حقيبتها ومسكت معصم زاهيدا وعادتا إلى الحانوت.

مشت راجوبي وزاهيدا نشيطتين في الزقاق المظلم على ضوء عود ثقاب.

أوقظ صوت خلخال زاهيدا الكلاب النائمة التي راحت تنبح بصوت عال. سار غفور في المقدّمة، يؤنبهما تارة ويلاطفهما أحياناً. غمغم مراراً، إنّ هذه الكهرباء مجرّد تضليل. لا يوجد مصباح تارة وينقطع السلك تارة. ألفنا ذلك الآن، لكنّ المرء يعجز عن فهم هذا النور.

هذا بيتي... سأراك غداً يا غفور باهي.. أتمنّى لكِ نوماً هانئاً يا أختاه، نطق بهذه الكلمات وتوارى في زاوية مجهولة من الجادة.

سألت راجوبي قلقة: كم يبعد بيتك؟ تعثّرت مرّة أو مرّتين وتنامى الألم في إصبع قدمها.

وصلنا... ذاك هو بيتي حيث الباحة المربعة وحيث تصدر الثرثرة.

كان البيت في نهاية الجادة وقد تدلّى مصباح ينشر ضوءاً أصفر خافتاً في الرواق، بدا مثل قمر مغبر. دخل الثلاثة إلى البيت. تلفّت راجوبي صدمة وهي تجتاز العتبة. بهر النور الساطع عينيها، تدلّى مصباح كبير من الباحة وصل نوره إلى الشرفة، تواجدت نساء من أعمار متباينة وأحجام مختلفة، وكنّ يكسّرن الجوز. وضعت عديدات منهن ضمادات بيضاء على أصابعهن، حكت وجوههن كلّهن لغة واحدة.

ماما... انظري من جاء؟

من يجيء إلى بيتنا غير بركات؟ صدرت ضحكة خفيفة ونهضت امرأة متثاقلة، يُشِر وجهها الإعجاب، من بين النساء ونزلت على درج الشرفة إلى الباحة. صافحتهما بالأيدي، وتفحصت راجوبي وزاهيدا مليّاً.

سألت الأم عندما دنت منهما: هل أنتما قادمتان جديدتان؟ ومن أين أتيتما؟

أجابت راجوبي مفتعلة ابتسامة: من كالكوتا.

رباه! ما الغاية من هذه الرحلة الطويلة؟

اعتبريها قسرية! اكفهّر الضياء الذي ارتسم على وجه راجوبي، وتنامى إرهاقها.

هذا هو قدرنا نحن معشر النساء، في هذه الحياة. لذلك بإمكانك أن تعتبري عجزنا مثل القبقاب في القدم وليس مثل القلادة في العنق..

عندما يبدأ الحذاء يوخز أو يهتك انزعيه واطرحيه بعيداً! من هذه العروس الفتية، ابنتك أم كنّتك؟

امرأة في محنة.

شامو! املأي إبريق الماء لغسيل الوجه وأفردي غطاء المائدة، لمست أمّ غفور وجه زاهيدا وقالت بابتسامة خفيفة: لماذا تقولين إنّها امرأة في محنة؟ هي الحياة كلّها.

تناولنا طعامنا قبل قليل يا أختاه.

إذاً سأُعِدّ كوبين من الشاي لكما، ليس الوقت مناسباً للشراب البارد. ألقت والدة غفور نظرة سريعة على ساعة الجدار التي أشارت عقاربها إلى أنّها الحادية عشرة إلاّ ربعاً، وسارت باتجاه المطبخ.

أشارت شامو بنت الاثني عشر ربيعاً أو الثلاثة عشر إلى إبريق الماء الملآن. أنزلت راجوبي حقيبتها عن كتفها ووضعتها على صندوق الثياب، ورشقت بعض الماء البارد على وجهها. أحسّت كأنّها تقف تحت صنبور مفتوح مرتدية ثيابها كلّها. فتحت زاهيدا الصندوق وأخرجت المناشف القطنية ونظرت إلى البنات الجالسات على الشرفة. جاءت راجوبي إلى جوارها وهي تمسح وجهها، وسألتها بلطف: ما المسألة؟

سأستحم يا خالة. أحسّ بحرارة فائقة.

صُعقت راجوبي: هذا نذير نحس.. عندما تستخدم العروس جهاز الزفاف قبل ممارسة الطقوس المعتادة.

نزعت زاهيدا قرطيها وقلادتها النحاسية وقالت: حافظي على المجوهرات.

حسناً.. حسناً، استحمي في الصباح. اغسلي وجهك الآن واستبدلي ثيابك.

أسرعا، الشاي جاهز! دعتهما شامو. وضعت الصينية فوق الطاولة الخشبية وفردت غطاء المائدة، عندما عادت زاهيدا كان الطعام فوق المائدة، وضعت النساء كلّهن كسارات الجوز في السلة وغسلن أيديهن وجلسن، قُدّم الطعام والشاي معاً، في صمت. لم يفتح أحد فمه أو قلبه

استند أفراد الأسرة كلّهم على الجدران في الباحة. احتلّت كل منهن لحافاً ووسادة وتم إطفاء النور. توضع سرير غفور فوق السطح. فهو حامي البيت. كانت مهمته تفقّد الغنمات في الحظيرة، متعبتان من عناء النهار المضني، مددت الاثنتان جسديهما المنهكين. بدأ الألم المبرح يحزّ في مفاصلهما. وكانت الفتيات متعبات بعد عناء النهار في تكسير الجوز، ووضعن أيديهن بأيدي بعضهن. لم تظهر علامات الإجهاد في أذهانهن. كانت تلك مصادفة غريبة. إذا طرحت أي منهن سؤالاً، تعرّضت لتقريع قاس من أمها أو جدتها.. لا تستطيع أن تنساه. لذلك غضضن الطرف رغم رؤية كلّ شيء، وفي النهاية، قبلن نصيحة أمهن الوحيدة ألاّ تستعملن عقولهن أبداً، وإلاّ فحيواتهن ستغدو سلّة ملأى بصغار الأفاعي السامة.

ساد الصمت وهلة في الباحة إلى أن كسرته والدة غفور بالصلاة بصوت عال رافعة رأسها إلى السماء: حمداً لله إنّ يومنا هذا انقضى بخير. هكذا ينبغي أن ينقضي الغد. ورددت بقية النساء: آمين. انفتحت عينا راجوبي الآن بالكامل بعد أن أغمضتا قليلاً. أخذ الخوف من الغد يدغدغها كما الهرة التي تربض فوق الجمر الساخن. توسّل قلبها لله ليبعث شخصاً يبدي اهتماماً بعهدها حتى إذا كان مجرّد مراءاة، وهي ستروي قصّة زاهيدا. لم يطرح أحد سؤالاً، وغرق الجميع في نوم عميق. وغرقت زاهيدا في نوم عميق هادئ كأنّها ابنة رجعت إلى بيت أبويها نافضة متاعبها.

بدا إنّها الوحيدة التي قلقت من اليوم التالي. هل تستطيع أن تقيم بيتاً لزاهيدا؟

عندما فتحت راجوبي عينيها واستعدّت للصلاة والدعاء، رأت أهل البيت كلّهم في طابور للصلاة. وكان غفور ينظف أسنانه بغصن التنبول. ما تزال حكايتها تضغط كثيراً على صدرها. قررت أن تخرج من السرير، وفي حال سألها أحد، أو لم يسألها أحد، قررت أن تفتح قلبها وتروي قصّتها للجميع، وتطلب العون، وإلاّ ستواجه مشقّة الإياب. لو قررنا الإياب فماذا يظنّ الناس في مايتابورج؟ سينهار صرح أحلامهما. ومن يدري إذا كانت زاهيدا سوف تتزوج بعدها. لم يحدث وتدافع العرسان على طلب يد زاهيدا! ولذلك يجب أن يأتي ذلك الطفل السيئ الشرير إلى هنا. إذا لم تتزوّج الآن، فيعني أنهم سيفقدون الثقة التي دامت طويلاً في رمضان علي. إضافة إلى أنّ الفرصة التي أتيحت لخروج البنت وبناء بيت سوف تضيع، تملّكها هذا الصراع التأمّلي، نظّفت راجوبي أسنانها وغسلت وجهها بالصابون بحيوية. أخرجت ثوباً نظيفاً وارتدته. عندما جلست لاحتساء الشاي بحثت عيناها عن زاهيدا. أشارت شامو ناحية الحمام حيث كانت ثياب زاهيدا معلّقة. احتست راجوبي جرعة من الشاي الساخن، استعادت شجاعتها، وقررت أن تطرح السؤال التالي بصورة مباشرة: ماذا حصل بالنسبة لوعدك الليلة الماضية يا غفور؟ لكن قبل أن تتمكّن من فتح فاها، أومأ غفور لها لكي تخرج. عندما وصلت إلى الرواق رأت طاولة وكرسيين وبعض الأوراق التي تركها غفور هناك. لم تر راجوبي ذلك كلّه في الليل. طلب منها أن تجلس، ورنا إليها بحنان وقال: أخبريني الآن مشكلتك يا أختاه!

إنّ مشكلتي بسيطة جداً. يعقد رمضان علي منافسات زواج للبنات دائماً في كالكوتا. وهو الذي حقق الصفقة بين سالم الدهّان وزاهيدا. كان المفترض أن تجري مراسم الزواج في الساعة السابعة من مساء البارحة. هذه هي صورة الولد، وهذه هي

بطاقة إيابي.. لا أعرف بماذا وعد الولد رمضان، لكننا وعدنا معاً . نحن والجيران، وحسب إمكاناتنا المحدودة . أن نُقدّم مبلغاً محدوداً له. الفتاة يتيمة، وفرّنا لها على حسابنا ثياباً وأشياء أخرى للزواج. ترك المنديل علامة وقال إنّ الخاتم والسوار سيُقدّمان بعد وصولها إلى دلهي. انتظرنا النهار برمّته ولم يظهر رمضان أو سالم... وليس ما يدعوني لإخفاء مشكلتي عنكم.. باختصار، ورغم أنّ الجواهر نحاسية، ورغم أنّ الحلوى لم تُترع بالفاكهة الجافة والسكر النقي، فإنّ جيوبنا التي فرغت على الحنّاء والبهارج الأخرى هدتنا. أصبحت راجوبي عاطفية قبل أن تصل إلى النهاية.

والآن.. ما حاجتك؟

إذا كان ثمّة شاب مخلص في ذاكرتك، فاضمن التصريح للاثنين بالنكاح لكي أرجع سعيدة إلى بيتي.

في مثل هذه الأونة القصيرة؟

لست قادرة على المكوث طويلاً، ولا أستطيع إعادتها. أتوسّل إليك، فكّر بحالة العجز التي تكابدها.

إرر... لا تورطيني.. لست مسؤولاً أن أفعل ذلك كلّه. لكن، سأفعل ما بوسعي. قال غفور هذا وخرج، مسحت راجوبي دموعها واستعادت الأمل بأنّ غفور سيحّل مشكلتها بالتأكيد.

شاهدت المشهد الذي حيّاهما الليلة الماضية بجلاء الآن. جلست النساء الفتيات والهرمات في دائرة يكسّرن الجوز بصمت مطبق. انشغلت والدة غفور بأعمال البيت الرتيبة الخفيفة.

تمددت جدّة غفور عاجزة على السرير الصغير تعد حبّات سبحتها في زاوية من الشرفة، التقط ابن غفور سلّة الجوز الذي كسّروه البارحة، ونزل على الدرج من الشرفة. رافقت الأم ابنها إلى الباب وأوصته أن يسير بهدوء وحذر وأن يضع النقود في جيبه الداخلي. ألقت راجوبي نظرة واهنة على نساء البيت وراحت تتأمّل بتركيز. أي نوع من النساء هنّ؟ لا تسألن شيئاً ولا تخبرن شيئاً؟.

نادت أم غفور الجميع إلى الإفطار! هيّا يا بنات، هيّا إلى الطعام!

أشرقت الشمس. اعتلت وجه زاهيدا نضارة غريبة. كانت مثل حرباء وقد اغتسلت في أول أمطار الموسم وراحت تطفر بين أوراق الشجر الساطعة. لماذا لم

يظهر عليها ذلك السطوع عندما صارت عروسة؟ اعتبرت راجوبي هذا فأل خير وبدأت تأكل. قالت والدة غفور برقة، خلال تناول الطعام: الآن ستخبراننا شيئاً عنكما وستستمعان إلى شيء ما عنا... لا بدّ أنكما تساءلتما البارحة.. أي نوع من البشر هؤلاء، لا يسألون عن حالتنا؟ لكن صدقوني عندما ينوء القلب بأعباء كبيرة، لا يمكن استيعاب مشكلات الآخرين بيسر. لقد قسّيت قلبي بين الأمس واليوم، وهيّأت نفسي، والآن فقط امتلكت الشجاعة الوافية.. لذلك أعلنا ما في قلبيكما وصرّحا به.

انتهى الإفطار. نهضت فتاة بعد أخرى. بقيت والدة غفور وراجوبي جالستين على المقعد الخشبي، حدّقت والدة غفور في وجه زاهيدا بعين ملؤها التساؤل. أشارت راجوبي مقترحة أنّها تعاني ثقلاً في السمع. تنحنحت بعدها وقالت: المشكلة تافهة، لكنّها تعقّدت.

روت راجوبي قصّة زاهيدا. أطلقت أم غفور أنّة عميقة بعد أن استمعت بروّية. أحنت رأسها وهزّته، كأنّها استغرقت في التأمّل. رفعت رأسها بعد وهلة وندبت: لماذا يجب أن تبقى قصّة كل بنت كما هي؟

ساد الصمت وهلة طويلة بينهما، تواصل صوت تكسير الجوز، وتناولت والدة غفور صورة من على الرف وأحضرتها. مسحت الغبار عنها بطرف ثوبها، قالت: وهي تُريها إلى راجوبي: هذه صورة أخت زوجي الكبرى. كان اسمها افشان، الآن هي ميتة. يجب ألاّ يتكلم المرء كثيراً عن الموتى، لذلك زمّت شفتيها. لا يُغيّر الكلام شيئاً. لن ترجع افشان. لكنّ ما يجب أن أقوله هو أننا ينبغي ألاّ نؤيّد أحداً يرغب في الزواج من فتاة دون رؤيتها. واذا عجزنا عن إيجاد طريقة أفضل، فعلينا ألاّ ندع هذا يحصل أبداً. تستطيع المرأة أن تعيش الحياة المقدّرة لها على الأقل. كان غفور صغيراً آنذاك.. في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة. قطع عهداً على نفسه خلال جنازة عمّته أن يساعد كلّ امرأة. والعهد قضية هامة وينبغي صونه، لكنّ الواقع مغاير جداً، أعرف أنّ ليس بالإمكان تغيير حياة أحد أو مصيره، لكننا نستطيع بالحكمة فقط أن نقدّم بعض العون والإرشاد لمن هم في محن. هذه هي خدمتنا الوحيدة. بعد ذلك يبقى الأمر لله في الأعالي ولعبده.

انقطع الحديث بعودة غفور. نظرت راجوبي إليه مترقّبة. هزّ غفور رأسه خائباً، إنّ هذه المهمّة مستحيلة في مثل هذا الوقت القصير. إذا أردت الانتظار هنا، فبإمكانك ذلك. والقرار قرارك بالكامل.

لا بدّ من وجود شخص يبحث عن زوجة ثانية، أو.. يوجد عجوز أعمى في تشيلتي كابرا. إنّه العازب الوحيد الباقي الآن.

وبّخ غفور ساخراً.

هلاّ أريتني إياه؟

اغتاظت أم غفور من لهفة راجوبي غير المستساغة، هل ترغبين فيه لنفسك؟

يجلس زوجي الهرم في البيت... والمشكلة تخصّ زاهيدا.

المشكلة أكثر منها قضية زواج، هي قضية البقاء على قيد الحياة. إذا خرجت فتاة للعمل فلا تواجه سوى المتاعب والمتاعب. فإلى متى، وكم مرّة تستطيع النجاة؟ أعرف تماماً أنّ زواج البنت ينهي مسؤوليتنا، وبعدها تبدأ قضية مصير الفتاة.

اسخري من غيري يا ابنتي.. إذا كان مقدّراً لها أن تعاني، فعليها أن تعاني، ولكن عندئذ، يجب أن تمتلك الشجاعة والحرية لمواجهة مصاعب الحياة بخيارها، هذا بدلاً من تقديمها ضحية في المسلخ القديم ذاته. بدا التوتّر واضحاً على حاجبي أم غفور.

يجب أن نتتبع تقاليد الناس.

هل تسلّمينها إلى موت في الحياة باسم احترام تقاليد الناس؟

لا أحد يموت يا أختاه! الكلّ أحياء. نهضت راجوبي غاضبة وقالت: هذا كثير. تفحّصت بعض الأعذار التي عرضها غفور. في مثل هذا الوقت القصير، كان بمقدورها بالذات أن تجد رجلاً، فالسوق برمتها تعجّ بالرجال.

سألتها أم غفور بلهجة تحذيرية: إلى أين أنت ذاهبة؟

إلى العجوز الأعمى ذاته.. سأنهار إذا فقدت بطاقة إيابي قيمتها! ماذا سنأكل؟ أين سنعيش؟ من ذا الذي سيتحمّل عبء إعالتنا؟ رأت عيناي القديمتان العالم يتغيّر في أزمنة الحاجة. نصيحة أستطيع أن أسديها. قالت راجوبي بثقل: دعوني أعرف كيف يتعهد شخص ما أن يخوض معارك الحياة بالطريقة التي نخوضها! غمر وجهها الحزن مقروناً بالغضب.

لقد جُنّت هذه العجوز الهرمة. ولذلك تتعمد إثارة المتاعب. ضربت أم غفور رأسها بكلتا يديها.

لا خيار آخر أمامنا، هيّا يا زاهيدا، وتنكّبت حقيبتها، وشدّت يد زاهيدا وقالت:

أيّتها التعيسة! كيف صادفتِ هؤلاء الناس الذين لا ينفعون بشيء؟ لا يدرون إلى أي قاع يغوصون؟ أشارت نظرة واحدة إلى وجه زاهيدا أم غفور وانفجرت غاضبة.

لا تقولي شيئاً! أحضرنا ابنك إلى هنا ووعد أن يساعدنا! لم أحضر بنفسي متوسّلة طالبة صدقة على بابكم. إذا رغبت في النقود لقاء الشاي والإفطار فخذي هذه، ليست راجوبي متوتّرة، لكنّها ليست تلك العاجزة التي يجب أن تستمع إلى كلمات بلا معنى من أي كان. مثل النساء كلهنّ، يتصرفْن وكأنّهن لا يعرفن أنّ كلّ فتاة تعانق رغبة خفية في داخلها لكي تصير عروساً. لا تستطيع أي فتاة أن تجلس على الرصيف وتكسّر الجوز، تابعت راجوبي سيل كلمات غاضبة.

هذه امرأة من النوع ذاته، لا يمكن تقبّل كلماتها. لا يمكنها التعبير عن ذاتها. نافذة الصبر. عاجزة عن الانتظار. عاجزة عن البحث عن أصول الرجال بصمتها. دع هذه المرأة البلهاء ترحل! ارتعشت أم غفور من رأسها حتى أخمص قدميها وصرخت. قرعت طبول الحرب على الرجل وألقت المرساة تحذيراً له. للإبحار في بحار المتاعب هذه، تثور الحاجة إلى نساء، وليس إلى رعديدات عاجزات عن الحياة دون رجال.

مسكت راجوبي يد زاهيدا خجلة وخرجتا ووقفتا في الجادة. أوشكت على البكاء، أرادت أن تضرب رأسها. وأكثر من ذلك، أرادت أن تسدد ضربات كزخ المطر على ظهر زاهيدا بكلتا يديها. اللعنة على رمضان الذي أوقعها في هذا الشرك من المتاعب بينما يعلن أنّه يفعل خيراً. والآن، كيف تستطيع الخروج من هذا المأزق؟ ما لا تعرفه هو أنّ الفتاة اليافعة لا تكون سعيدة مع رجل هرم، ولكن كيف تتمكّن امرأة من النجاة من الشباب الأوغاد الذين يجعلون حياة النساء مآسي؟ إذا ذهبت للعمل، فهي مضطرة لتحمّل تجاوز ربّ البيت. وإذا كان ربّ البيت باراً، فعليها أن تواجه ظلم زوجته. إذا افتتحت حانوتاً، فيجعل الزبائن حياتها مأساوية. إذا قدرت أن تعمل في الخياطة والتطريز في بيتها فعندئذ لا تمتلك اليد الماهرة ذاتها والصفاء ذاته مثل أيدي أهل السوق. ما خيار المرأة التي لا تمتلك سوى مهارة تدبير البيت؟ من يرغب في ولادة الأطفال؟ من يرغب في التربية وتجميل المظهر؟ يتوجب أيضاً أن نفهم دوافع المرأة ورغباتها. وهل يمكن تقييم النساء كلّهن بالمسطرة ذاتها؟ يحتاج هذا النوع من النساء إلى بيوت يحتجن إلى العون. يحتجن إلى أسقف. ويمكن كسب المعركة حتى إذا كان الرجل رجلاً بالاسم فقط.

ملّت زاهيدا وهزّت كتف راجوبي وسألت: بماذا تفكّرين وأنت واقفة هنا يا خالة؟

أجابت راجوبي بغموض: أحاول استقراء مصيرنا، وحدّقت في زاهيدا ومشت إلى الأمام. كانت تغلي غضباً.

ارر... تخيّلي السعادة التي منحني إياها زوجي. قد يكون منحني ثمانية أطفال، ولكن هل ذقتُ طعماً للسعادة لأن لي زوجاً؟ أفرغت ما في مخزني. وزاهيدا سوف تواجه قدرها. إلى متى نستطيع الهروب؟ تابعت راجوبي سيرها مستغرقة في التفكير.

راجوبي! راجوبي! لم تسمع الصوت الذي ناداها باستمرار من الخلف. رنّ الصوت في أذني زاهيدا بعد وهلة وجيزة رغم ثقل سمعها.

خالة.. أي.. يا خالة! انتظري لحظة، شخص ما ينادينا من الخلف. ضربت زاهيدا على ثوب راجوبي في محاولة لكي تجعل صوتها مسموعاً أكثر من أجراس العربات ونداء صيادي الصقور وأبواق السيارات.

رحمتك اللّهمّ! إنه رمضان! وجدت رمضان فجأة أمامها. أطلقت راجو بي نهدات ثقيلة. حلّ الماء البارد محلّ الغضب.

اقتاد رمضان المرأتين خارج الزحام ووقفوا أمام حانوت خياطة، تعالا، دعونا ننزوي جانباً.

أين ضعتَ يا رمضان؟

. أفسد القطار الباكر الموعد برمته بسبب تأخّره عشرين ساعة. بحثنا عنكما في المحطة ولم نعثر على أثر لكما. ذهبنا إلى بيت سالم نجرّ ذيول الخيبة، فسادت العطالة. تهجّموا عليّ وأنّبوني بعنف. تجمع الأخوة كلّهم هناك. اعتقدوا أنني خدعتهم. جنيت ما كان يجب أن أجنيه على شكل شتائم.

. لذلك دعونا نذهب الآن. لماذا التأخير.

. استغلّ أهل فتاة من الجيران، أكبر عمراً من سالم، الموقف وعقدوا قرانهما. كان نصف الطعام معدّاً. أنفقوا الأموال كلّها. إنّ إقامة حفل زفاف ثان يعني هدر مبلغ ألفي روبية. كيف كان بمقدوري إيقاف حفل الزفاف، وعلى أية أرضية؟ ارتبك سالم وغضب. انتزع عمّ سالم ساعة يدي استيفاء للمئتي روبية التي دفعوها لي مقدّماً. لم يكن في جيبي بيزا واحدة. تمكنت بصعوبة بالغة من تأمين خمسين روبية.

وعندها فقط تمكّنت من تأمين بعض الخبز والشاي لإفطاري هذا الصباح.

. إذا كان البشر أمثالكم في مثل هذه الحال من العسر الشنيع فماذا أقول عن نفسي؟

. المال يأتي ويذهب. ليس مشابهاً لمن يعقد اتفاقية تكفي لملء الجيب. إنني على وشك تدبير الأمر.

. لدّي بطاقة إيابي وخمسة وسبعون روبية، ولكن أين أجد ثمن بطاقة لزاهيدا؟

. سأعاني أيضاً من موقفي في كالكوتا. يشهد الله إنني عقدت مئة صفقة زواج، ولم يحصل معي كما حصل اليوم، لقد وقعت تحت عبء الديون.

وقفا صامتين وهلة طويلة. استطال وجه راجوبي بسبب الخيبة. واصلت زاهيدا المتضايقة تحدّق في الاثنين. لم تستطع أن تفهم شيئاً. كانا يتكلّمان همساً. ولم تستطع أن تتبيّن شيئاً من حركة شفاههما.

. لديّ فكرة تضع حدّاً للأزمة التي خرجت من أيدينا.. ما تزال أمامنا بعض ساعات لرحيل القطار. نستطيع بيسر أن نجد ولداً ما.

سطع الأمل ثانية في وجه راجوبي: لا بدّ أنك تعرف كثيرين من الناس!

. أعرف الكثيرين حقاً، لكن شريطة أن يوافق ذكر على الزواج. الكلّ يتطلّع إلى الزواج من أفراد عائلته. لن نتورّط في زواج ثان أو ثالث. أجني النقود، لكني لا أعتمد السبل غير المناسبة.

، جميل ذلك كلّه. من ذا الذي يرغب في ارتكاب الأخطاء، لكن فتّش عن مخرج على الأقل! نحن في ورطة قاسية. سمعت أنّ ثمّة عجوزاً أعمى يملك المال في تشيتلي كابرا. ابحث عنه وارحم امرأة ترزح تحت هذا العبء.

لا يمكن الوصول إلى نتيجة بالوقوف، فالوقوف لا يحلّ الأزمات، عندما أرجع سأجد مغفلين . سأجد كثيرين صباحاً ومساء، وسيتحدّث الناس وستواجه هذه الفتاة مصيرها. كما هي الحال، ضايقها أولاد الجيران. ويستطيع كلّ واحد الآن أن يفعل معها ما يشاء.

. إنك تصنعين جبلاً من رابية صغيرة، لن يحدث شيء من هذا. تغيّر الزمن. إنّه عصر الكسب ذاتياً.

كبحته راجوبي: لماذا لا تقول جهارة إنّك ستجعل من هذه الفتاة، أو تجعل من نفسها عاهرة؟

. معاذ الله... ما هذه التفاهات السامة التي تتفوّهين بها؟

نظرت زاهيدا خلسة محاولة أن تقرأ التعابير على وجهيهما. تبدّى الغمّ واضحاً على وجهها البريء. وامتلأت عيناها بنظرة ترّقب وتساؤل. استدار الاثنان ونظرا إلى زاهيدا ووضع كلّ منهما يداً بحنان على كتفها وساروا إلى الأمام. فتحت زاهيدا فمها لتسأل شيئاً لكنّها أغلقته خجلاً وأحنت رأسها. عبروا بضع جادات، ووصلوا أخيراً إلى تشتيلي كابرا. تنامى الزحام في السوق. سأل رمضان الجزار عن عنوان العجوز الأعمى، فهزّ رأسه. كان الأمر أشبه بمن يحاول رؤية الدرب في الظلام.

كاد تردد رمضان يفسح مجالاً لمغامرة راجوبي. عرفوا أخيراً من بائع الصحف أنّ الرجل يعيش في البيت القرميدي في الجادة التي تتعالى فيها شجرة النيم، أحبّت راجوبي أن تطرح أسئلة كثيرة لكنّ رمضان جعلها تصمت موجهاً إليها نظرة تحذير، ودمدم، هيّا الآن، انظري بنفسك وبعد ذلك استفسري.

لم يكن البيت كبيراً لكنّه قويّ ومصنوع من الإسمنت والقرميد. لم تبرز الحاجة لقرع الباب لأنّ رجلاً وسيماً على مقربة من الستين من عمره جلس وسط الغرفة المفتوحة يحاول قراءة شيء ما بعناء. لم يمتلك رمضان الجرأة للتقدّم حالما رأى وجهه الصارم. وكذلك توقفت راجوبي عن السير.

من هناك؟

صمت الاثنان.

من على الباب؟

أنا رمضان.

رمضان من؟ ماذا تريد؟ ومن معك؟

تراجعا إلى الخلف لا يدريان ماذا يفعلان. تبادلا النظرات. وكذلك شنّفت زاهيدا أذنيها. تلقت راجوبي صدمة قويّة. قالت من غير حراك: لقد جئنا بناء على دعوتك.

دعوتي؟

استجابة لعرضك للزواج، عرضك الذي أرسلته عبر رمضان. أحضرت الفتاة من كالكوتا. ماذا تريدنا أن نفعل الآن؟

هل أنتم عقلاء؟ ما نوع التفكير الذي يسيطر عليكم؟ لقد قصدتم عنواناً خاطئاً.

هذا هو العنوان.. هيا يا رمضان، اذهب واحضر المأذون، وأنا سأعدّ الفتاة خلال هذه الآونة. إننا نهدر الوقت من أجل الزفاف.

لا حول إلاّ بالله... ما هذه التفاهة التي تتفوهين بها.. ما هذه الرغبة غير المناسبة في هذا العمر؟ اخرجوا من هنا! اخرجوا!

إنّها يتيمة يا سيّدي وقد يدمّرها رفضك. من سيتزوجها؟ ستدمّر حياتها. خرّ رمضان عند قدميه وراح ينتحب.

أعتقد أنني سأستعين بالشرطة.

بالتأكيد! اطلب الشرطة. سندلي نحن أيضاً بإفادتنا. إذا لم تتضايق كرامتك في هذا العمر، فلماذا نخاف. هيا يا رمضان سنرفع شكوى خداع واحتيال في مخفر الشرطة.

ماذا تريدون أيها الناس؟

فعلنا كما أردت أيّها السيد.

ما الجريمة التي ارتكبتها؟ كيف أعتديت عليكم؟

لم نأت لإنزال العقاب بك لقاء أي جرم بل جئنا نقدّم لك طعماً من الفاكهة السماوية. الفتاة شابة وفيّة. تعرف كيف تدبّر منزلاً. ستخدمك. وبالمقابل، ما عليك إلاّ أن تطعمها، وبالتالي تعيش قانعة.

إذاً دعها تقيم كابنة.

ذلك يلحق العار لاحقاً، وليس لنا. من الأجدى أن تلعب طبقاً للقواعد، مادام يوجد متسع من الوقت. لذلك من الضروري أن تنطق بكلمتين عن النكاح.

هذا مستحيل.

إذاً سأصرخ وأنادي بماذا فعلت بهذه الفتاة الشابة.

اخرسي! مسح حبيبات العرق التي ظهرت على جبهته وقال: أين الفتاة؟

هنا. هنا.

ما اسمك؟

سمعها ثقيل.. واسمها زاهيدا

حسن.. اسمعي يا زاهيدا.. اقتربي. سأل بصوت عال: هل توافقين على الزواج منّي؟

نعم؟ ارتبكت زاهيدا.

قرصت راجوبي ذراع زاهيدا، قولي موافقة.

داهن رمضان علي مغرماً: قولي موافقة يا سيّدي.

نظرت زاهيدا إلى رمضان وراجوبي بعينين متعبتين ومعبأتين بالدمع وقالت: لا.. لا... وهزّت رأسها رافضة، ورجعت خطوة إلى الوراء واستدارت. شاهدها رمضان وراجوبي على وشك الهروب، فمسكاها بإحكام، حاولت تحرير نفسها أولاً، لكنها وجدت نفسها مترهّلة.

قالت راجوبي في أذنيها منذ مدّة: التعقّل يا زاهيدا. لا، لا، لا! لم تمتلئ عينا زاهيدا بالخوف وحسب، بل انساب منهما بحر من الحقد. قبض رمضان على معصمها. انكسر سوار معصمها. سقط على الأرض. غرزت أسنانها كلّها في يده فتلّوى من الألم، مما جعله يخفف من إحكام قبضته، وسكت راجوبي زاهيدا من ضفيرتها الطويلة.

اتركيني يا خالة.

أريد أن أعرف إلى أين أنت ذاهبة؟

سأذهب حيث أشاء، قالت زاهيدا ذلك، وفتحت يد راجوبي وسحبت ضفيرتها وتوارت في الزحام.

تبادلت راجوبي النظرات مع رمضان، ولم يرد أي منهما على سؤال العجوز: ماذا حدث؟ حملا الصندوق الصغير وذهبا خلف زاهيدا. ليس العثور عليها أمراً يسيراً الآن. تضاعف الزحام في السوق. احتكّت أكتاف الناس بعضها ببعض. وعندما تعبت راجوبي المرتبكة من السير، أدركت أنّها أخطأت في القرار الذي ألزمت فيه نفسها بتزويج زاهيدا. من كان يدري ماذا كان سيحدث في بلد غريب؟ توقفت ومسحت العرق عن وجهها وقالت: دعيها تموت، لا يهمني! حان موعد قطاري. خذني إلى المحطة.

سأل رمضان مذعوراً: المحطة؟ ماذا تقولين للناس عندما تصلين؟

قالت راجوبي مقتنعة: ماذا أقول غير الذي حدث؟ سأقول إنني فعلت ما ذهبت لفعله.

سأل رمضان بلهجة يكتنفها الذهول: أمن الصواب أن ترددي هذه الكذبة؟ بلله العرق. امتلأ خوفاً مما قد تصنعه هذه المدينة الظالمة للفتاة الشابة.

قالت راجوبي بصوت عميق، وهي ترفع إصبعاً ناحية السماء: تخرج الأمور من أيدينا أحياناً يا رمضان.

حاول رمضان مواساة نفسه في نبرة متعبة: يضطر المرء أن يختبئ خلف هذه الكذبة إذا ما رغب في البقاء حياً.

صعد الاثنان، غاضبان ومهزومان في عربة تقلّهما إلى المحطة. بحثت عيونهما باستمرار عن وجه في الزحام على طول الطريق. ما أن جلست راجوبي في القطار حتى غُصّت عيناها بالدموع من غير سبب واضح، مسحت عينيها بمئزرها. تحرّك القطار حالماً أرادت أن تقول إذا عثرت على الهاربة في مكان ما.. وسأل رمضان خانعاً: هل بإمكانك إقراضي عشر أو عشرين روبية يا راجو؟

اعتبرتها قرضاً فتركت ما أرادت قوله في صدرها، وخففت الدموع من عينيها وأخرجت ورقةَ عشرين روبية ووضعتها في كفّ رمضان، تحرّك القطار مبتعداً. توارت المحطة عن ناظريها. وتوارت بعدها البيوت والمباني وبعد ذلك توارت المناطق المكشوفة والمسطحات الخضراء. أحسّت راجوبي بإنهاك تام. أحسّت بألم ينخر في أنحاء جسدها. رشقت بضع قطرات من الماء على وجهها وأسندت رأسها على النافذة. تنفّست نفساً عميقاً وبدأت تمسح وجهها المبلل. جاء عندها مفتش البطاقات، الذي كان يدقق بطاقات الآخرين، إلى قربها، وقف أمامها وسأل: بطاقة!

أخرجت محرمتها من جيبها ومنها أخرجت بطاقتها. شاهدها وأعادتها إلى مكانها. أقحمت بعض التبغ في فمها مبتسمة ودمدمت في قرارة نفسها، ألف شكر لله لأنّ البطاقة موجودة، لو ضاعت، فأين كانت راجوبي تطوف هائمة بثيابها البيضاء في هذه المدينة الشيطانية؟

تحرّك القطار كثعبان يتلوى في غابة كثيفة، وضعت راجوبي حقيبتها تحت رأسها وخلدت إلى نوم عميق. رافقتها زاهيدا خلال الأيام الماضية. عاشت الآن في حلم هذه المدّة، عاشت اللحظات الماضية نفسها. هاهي تجلس في باحة بيت غفور، تعمل أمامها كوكبة من النساء الشابات والهرمات في تكسير الجوز كأنهنّ مرغمات

على تحويل الجوز من العالم كلّه إلى فصوص. رأت فتاة تخفي وجهها خلف شعرها الأشعث فاقشعرت من المنظر. حدّقت زاهيدا في وجهها بعينين متعطشتين للدماء: فتحت راجوبي عينيها مذعورة. بدأ النهار يشرق خلف النافذة. اندفعت الكلمات بصورة غير متعمدة، أحلام الصباح تتحقق دائماً، ولدى قولها ذلك واست نفسها بأنّ زاهيدا ستذهب إلى هناك. يجب أن تذهب حقاً إلى هناك. يجب ألاّ ينتابني القلق. توقّف القطار برجّة في محطة هاوراه. نسيت راجوبي كلّ شيء آخر، التقطت حقيبتها وصارت جزءاً من الزحام.

روت راجوبي قصّة زاهيدا لدى عودتها إلى ماتيابورج، إلى الجيران بإيقاع ماتع جداً، فوهبت حياة جديدة للكذبة القديمة في القصّة المروية منذ زمن سحيق... العائلة جميلة.. وغصّت عيناها بالدمع. من هي التي لا تسفح الدمع عند وداع ابنتها إلى الزواج. وهكذا انغمست في حزن تراكمي عميق، رأت في كلّ وجه فتاة زاهيدا تهيم بلا هدف. عانقت كلّ فرد لوقت طويل، وبكت وقلبها ينفطر حزناً.



الطيور
تأليف: ذيرمال فيرما

■ ترجمة: خالد حداد ■

بعدما عبرت لاتيكا الممر المظلم توقفت قليلاً. استندت إلى الجدار **ورفعت فتيل مصباحها**. على الدرجات **بدأ ظلها بتكوين شكل** مشوه غير منتظم. **ومن الغرفة رقم** 7 كان لا يزال بالإمكان سماع أصوات ضحك الفتيات الحاد **وثرثرتهن**. **قرعت لاتيكا** الباب. وتوقف الضجيج على الفور.

. من هناك؟..

. وقفت لاتيكا بلا حراك. استمرت أصوات همس مكبوت لبعض الوقت في الغرفة. ثم علا صوت قعقعة المزلاج، ودخلت لاتيكا. على ضوء لهب المصباح المرتعش بدت وجوه الفتيات مثل صور مقربة ثابتة على شاشة عرض سينمائية.

. لماذا الغرفة مظلمة؟..

كان صوت لاتيكا يحمل بعض الحدة.

. لقد فرغ المصباح من الوقود، يا سيدتي.

كانت تلك غرفة "سودها"، لذلك كان على "سودها" نفسها أن ترد. ربما كانت الفتاة الأكثر شعبية في الفندق. فقد كانت فتيات الغرف الأخرى، خلال العطل كلها، وكل يوم بعد العشاء، يجتمعن في غرفتها. كانت الثرثرة والمزاح يستمران حتى وقت متأخر من الليل.

. لماذا لم تطلبي وقوداً من كريم الدين؟..

. لقد أخبرته يا سيدتي عدة مرات. لكنه لا يتذكر فحسب.

ترددت موجة من الضحك عبر زوايا الغرفة. وتلاشى فجأة جو الانضباط القمعي الذي غلف المكان مع دخول لاتيكا.

كان كريم الدين خادماً في الفندق. وكانت قصص كسله وتهربه من العمل تنتقل بين أجيال الطالبات. وفجأة تذكرت لاتيكا شيئاً ما. رفعت مصباحها عالياً وأدارت عينيها بسرعة في الغرفة. كانت الفتيات يجلسن في حلقة، متجمعات بجانب بعضهن بعضاً. كانت الوجوه مألوفة كلها، ولكن في ضوء المصباح الشاحب بدا وكأن شيئاً ما قد تغير، وكأنها كانت تراهن للمرة الأولى.

. جولي، ماذا تفعلين في هذا البناء حتى هذا الوقت المتأخر؟..

كانت جولي تجلس عند رأس أحد الأسرة، قرب النافذة. خفضت بصرها. وتراجع ضوء المصباح وسقط على وجهها.

. هل وقعت السجل الليلي؟

. نعم، يا سيدتي.

. إذاً...؟

تصلب صوت لاتيكا، وبدأت جولي، بخجل، تنظر خارج النافذة.

منذ مجيئها إلى هذه المدرسة، شعرت لاتيكا أن هذه القاعدة بالذات والخاصة بالفندق لم تكن موضع احترام رغم التأنيب والكلمات القاسية.

. إن عطلتنا، يا سيدتي، تبدأ غداً، وقررنا أننا الليلة...

ودون أن تكمل جملتها، نظرت "سودها" إلى "هيمانتي" وبدأت تبتسم.

. هيمانتي ستغني لنا الليلة. ألا تريدين أن تنضمي إلينا أيضاً لبعض الوقت؟..

شعرت لاتيكا بنوع من القلق. هل كانت حقاً مفسدة للبهجة؟.. لقد كانت طوال سنوات تعيش في محطة التل هذه، لكنها كل سنة كانت تعجز عن تمييز لحظة عبور أيام الحصار والصيف، ثم الخريف، والانعطاف داخل عطلة الشتاء.

ومع إحساسها بأنها مثل اللص تسللت بصمت خارج الغرفة. وفقد وجهها توتره. وابتسمت لنفسها.

. ألن تبقى واحدة منكن لترى تساقط الثلوج معي؟..

. ألن تذهبي، يا سيدتي، إلى ديارك خلال العطلة؟..

كانت عيون الفتيات مثبتة على وجهها.

. لم يتقرر شيء بعد. إنني أحب الثلج.

تذكرت لاتيكا أنها قالت الشيء نفسه في السنة الماضية وربما السنة التي قبلها أيضاً. شعرت بأن الفتيات يراقبنها بأعين مرتابة، وكأنهن لم يصدقنها. لف رأسها، وكأنما كانت مجموعة من السحب الملطخة توشك أن ترتفع من ركن مجهول وتضمها. ضحكت قليلاً ثم هزت رأسها.

ـ جولي، أريد أن أتحدث معك. قابليني قبل عودتك إلى بنائك. حسن، ليلة سعيدة.

وأغلقت لاتيكا الباب وراءها.

. ليلة سعيدة، يا سيدتي. ليلة سعيدة، ليلة سعيدة.

بدلاً من أن تصعد لاتيكا الدرجات من الممر توقفت واستندت إلى الحاجز. خفضت فتيل المصباح ووضعته في إحدى الزوايا. في الخارج، كانت طبقات الضباب الزرقاء قد ازدادت كثافة. وتدفق داخلاً حفيف أشجار الصنوبر المنتصبة فوق المرج خارجاً، بلطف حيناً، وبحدة أحياناً، ممتزجاً مع صخب الاستعداد للعطلة التي ستبدأ غداً، ثم تاه ثانية داخل ذهن لاتيكا، أغلقت عينيها. وشعرت بأن ساقيها مثبتتان إلى جسدها مثل قائمتين من الخيزران، وأن مفاصلها تنحل ببطء. لم يكن الدوار في رأسها قد تلاشى بعد، لكنه بدا الآن أنه لم يعد مقتصراً على رأسها، بل أصبح جزءاً من الضباب خارجاً.

ساعد ارتفاع الأصوات على الدرج في تنبيه لاتيكا من أحلام يقظتها. لفت الشال حول كتفيها ورفعت المصباح. كان الدكتور مخرجي يصعد برفقة السيد هيوبرت، وهو يدندن لحناً إنكليزياً. كان الدرج مظلماً، واضطر السيد هيوبرت أن يتلمس طريقه بعكازه وهو يصعد. هبطت لاتيكا بضع درجات وخفضت المصباح.

. مساء الخير، يا دكتور. مساء الخير، سيد هيوبرت!

. شكراً لك، يا آنسة لاتيكا!..

جلجل صوت السيد هيوبرت بامتنان. وتابع صعوده بجهد، وراح يلهث وهو

يستند إلى الجدار. وعلى ضوء المصباح، كان شحوب وجهه قد اكتسب لوناً يشبه النحاس.

وقال الدكتور بهدوء، وبصوت صفير محاولاً التقاط أنفاسه:

. ماذا تفعلين وحدك هنا، يا آنسة لاتيكا؟..

. إنني أدقق فقط في أمور الفتيات. ما الذي جعلك تصعد الدرج في هذا الوقت من الليل، يا سيد هيوبرت؟..

ابتسم هيوبرت ونقر على كتف مخرجي بعكازه.

. اسأليه. فهو الرجل الذي سحبني إلى هنا.

ـ آنسة لاتيكا، كنا نصعد لدعوتك، سنقيم الليلة حفلة موسيقية صغيرة في غرفتي، وسيعزف فيها السيد هيوبرت مقطوعات لشوبان وتشايكوفسكي، ثم نشرب قهوة بالقشدة. وبعدها، إذا سمح الوقت، سنعترف بجميع الذنوب التي ارتكبناها في هذه السنة.

ارتفعت ابتسامة وراحت تتراقص على وجه الدكتور مخرجي.

. اعذرني أرجوك، يا دكتور، فأنا لا أشعر بأنني في حالة جيدة.

. حسن. في تلك الحالة عليك أن تأتي بأي شكل.

أمسك الدكتور لاتيكا من كتفها وأدارها باتجاه غرفته.

كانت غرفة الدكتور مخرجي في النهاية الأخرى للبناء، بارزة تقريباً داخل السقف. كان هو نصف بورمي، وكان هذا واضحاً من أنفه المسطح وعينيه الصغيرتين المفعمتين بالحيوية. وبعد الهجوم الياباني على بورما لجأ إلى محطة التل الصغيرة هذه. بالإضافة إلى ممارسته الخاصة كان يقوم بتعليم مادة النظافة وعلم وظائف الأعضاء في مدرسة الدير، ولذلك مُنح غرفة في الفندق. لقد قال بعض الناس إن زوجته ماتت خلال رحلة العودة من بورما، ولكن لم يكن ممكناً قول أي شيء من هذا على وجه التأكيد، لأن الدكتور لم يتحدث عن زوجته أبداً.

في وسط المحادثة، كان يقول أحياناً:

. قبل أن أموت، سأزور بورما بالتأكيد ولو مرة.

وللحظة كانت تغطي عينيه غشاوة. وعلى الرغم من رغبتها، لم تستطع لاتيكا

أن تطرح عليه أي سؤال. كانت تشعر بأن الدكتور لم يرغب في أن يثير أي شخص ذكريات ماضيه أو يظهر عطفاً عليه. وفي اللحظة التالية مباشرة، كان يتخلص من كآبته، وينفجر في ضحكة فاترة باهتة.

إن الحنين إلى الوطن هو المرض الوحيد الذي ليس له علاج لدى أي طبيب. كانوا يضعون طاولة وبعض الكراسي على السطح. وفي داخل الغرفة وضع الدكتور مخرجي بعض الماء في الإبريق ليصنع القهوة.

قال الدكتور مخرجي، وهو يضيء المصباح الكحولي:

. سمعت أننا في السنتين أو السنوات الثلاث القادمة سيصبح لدينا كهرباء في هذا المكان.

. إنني أسمع ذلك طوال سنوات! لقد وضع البريطانيون بعض الخطط المتقنة أيضاً، ولا أعرف ماذا جرى لها.

ثم اتكأ هيوبرت في كرسيه المريح وأخذ ينظر نحو العشب خارجاً.

أحضرت لاتيكا شمعتين من غرفتها. وبعدما ثبتتهما على طرفي الطاولة، أشعلتهما. تقلص الظلام على السقف أمام ضوء الشموع الشاحب. حل صمت ثقيل على المكان كله. والقى تنهد أشجار الصنوبر في الريح آثار أصداء الصفير نحو الأسفل والأعلى، في الأودية الضيقة وعلى المنحدرات.

. ربما يبدأ الثلج باكراً في هذه السنة، فهناك برد جاف في الهواء الآن.

وتوهج سيغار الدكتور مخرجي مثل نقطة حمراء في الظلام.

وقال هيوبرت:

. لا أعرف لماذا كان على الآنسة وود أن تصر على هذا القداس المسرحي الخاص. هل من الضروري أن تصغي الفتيات إلى خطبة الأب إلموند قبل الذهاب في إجازة إلى ديارهن؟...

. كنت أصغي إليه طوال السنوات الخمس الماضية. ولم تتغير كلمة واحدة في خطبة الأب إلموند.

كان الدكتور لا يستطيع تحمل الأب إلموند.

مالت لاتيكا في كرسيها، وصبت القهوة في الأقداح. في كل سنة قبل أن تغلق المدرسة في العطلة، كان ثمة أمران ثابتان في البرنامج، القداس الخاص في

الكنيسة، وبعده نزهة في الأصيل. وتذكرت لاتيكا سنتها الأولى في المدرسة عندما ذهبت إلى النادي مع الدكتور بعد النزهة. كان الدكتور قد دخل الحانة. وكانت قاعة الرقص تمتلئ بضباط فوج كوماون. وبعد مشاهدة لعبة البليباردو، ألقيا نظرة داخل المكتبة إلى اليمين، عندما ظهر الدكتور مخرجي آتياً من الخلف.

. آنسة لاتيكا، هذا هو السيد غيريش نيغي.

توقف وسط ضجيج القهقهات والضحكات العالية الآتية من غرفة البليباردو. كان غيريش نيغي يضع إصبعاً على صفحة كتاب، وينظر خارج نافذة المكتبة. واستدار إلى الخلف في تلك اللحظة وقال:

. مرحباً، يا دكتور.

في تلك اللحظة فقط، لا يعرف المرء لماذا ارتعشت يد لاتيكا بعض الشيء، وسكبت بضع قطرات حارة من القهوة على ساريها. ولم يلاحظ أحد في الظلام أن خواءً ناعساً قد غطى وجهها.

في عصف الريح، كان لهيب الشمعة يومض، ويبدا ضخماً فوق مستوى السقف، وعلى طريق كاثكودام، كانت الحافلة الأخيرة المتجهة إلى الشمال تمر، وهي تحمل البريد. وتحت أضوائها العالية كانت الشجيرات المحيطة بالطريق تلقي ظلالاً على جدران المنزل، سرعان ما تنساب إلى الأمام ثم تختفي.

وسألها الدكتور:

. آنسة لاتيكا ، هل ستظلين هنا خلال العطلة؟...

بقي سؤال الدكتور معلقاً في الهواء. في تلك اللحظة بالذات كانت موسيقى شوبان الهادئة، وهي تنساب من تحت أصابع هيوبرت، قد بدأت تذوب ببطء في الظلام على الشرفة مثل دوامات ناعمة تومض على سطح الماء وتتموج بعيداً، بعيداً نحو شاطئ بعيد. شعرت لاتيكا أن أسراباً من الطيور كانت تنحدر من قمم الثلج البعيدة، وتطير بعيداً نحو أراضٍ مجهولة. كانت في تلك الأيام تراها غالباً عبر نافذتها . مثل قمم لامعة مربوطة بخيط تطير في خطوط متعرجة طويلة، بعيداً عن عزلة السلاسل الجبلية باتجاه مدن غريبة ربما لن تذهب إليها أبداً.

بدأت لاتيكا تغفو في كرسيها. وكان سيغار الدكتور مخرجي يتوهج بصمت في الظلام. وتساءل الدكتور، هل كانت تتقدم في العمر؟ كان وجه الآنسة وود،

الرئيسة، يسبح أمام عينيه: كانت امرأة ذات خدين مجوفين، بلا أسنان، ولها كيسان من اللحم يتأرجحان تحت عينيها، وتثور في سخط غاضب أمام أدنى استفزاز، وتصرخ بصوت أجش. كان الجميع يعتبرونها عانساً. وبعد بضع سنوات كانت لاتيكا ستصبح مثلها بالضبط أيضاً. وسرت رعشة عبر جسدها، وكأنها لمست شيئاً قذراً. وتذكرت أنها قبل بضعة أشهر تلقت رسالة حب من هيوبرت. رسالة عاطفية، ممتلئة بالمناشدة وبأمور يعلم الله ماهي. لم تفهم كلمة واحدة منها. وشعرت بالمتعة أمام تصرف هيوبرت الطفولي المضحك هذا، لكنها في الواقع أحست بالسرور أيضاً. فهي لم تكن قد تجاوزت بعد العمر الذي يمكنها فيه أن تجذب الناس. لم تغضبها رسالة هيوبرت؛ لكنها جعلتها تشعر بالحنان فقط. ولو أرادت، كان بإمكانها أن توضح الأوهام التي كان يرزح تحتها، لكن قوة ما منعتها من عمل ذلك، قوة ساعدت في محافظتها على ثقتها في نفسها، وكأن تصورها الخاطئ عن السعادة كان مرتبطاً بأوهام هيوبرت.

لماذا هيوبرت وحده؟..هل كان بإمكانها أن تحب أي رجل بالتأجج الذي فقدته، والذي كان يخيم عليها مثل ظل، لا يتلاشى ولا يمنحها الراحة؟ شعرت وكأن مجموعة السحب كانت تنحدر ثانية فوقها، وأصبحت ساقاها باردتين وبلا حياة ثانية.

نهضت منتفضة عن الكرسي، وقالت:

. اعذرني، يا دكتور، فأنا أشعر بأنني متعبة جداً...

وخرجت دون أن تكمل جملتها.

ظلت الشرفة للحظة غارقة في الصمت. كانت الشموع توشك أن تنطفئ. سحب الدكتور مخرجي نفساً جديداً من سيغاره.

. جميع الفتيات متشابهات. حمقاوات وعاطفيات.

فقدت أصابع هيوبرت توترها على لوحة مفاتيح البيانو. وظل صدى متردد من الجملة الموسيقية الأخيرة يرفرف في الجو لبعض الوقت.

ـ هل لاحظت، يادكتور، أن الآنسة لاتيكا كانت لبعض الوقت تتصرف على نحو غريب؟...

كان في لهجة هيوبرت نبرة عدم مبالاة مدروسة. فهو لم يرد أن يحمل الدكتور أدنى فكرة حتى عن مشاعره نحو لاتيكا.

فالدكتور قد يحول إلى سخرية بهدير من الضحك تلك المشاعر الرقيقة التي كان يحملها منذ وقت طويل جداً.

وسأل الدكتور:

. هل تؤمن بالقدر، يا هيوبرت؟..

انتظر هيوبرت وهو يحبس أنفاسه. لقد عرف أنه قبل أن يقول أي شيء كان الدكتور سيتفلسف. مال الدكتور مقترباً من سور الشرفة. تحت ضوء القمر الشاحب، كانت ظلال أشجار الصنوبر تسقط على العشب. وأحياناً كانت حشرة سراج الليل تختفي في الهواء بعد أن تنثر ضوءاً أخضر في الظلام.

. أتساءل أحياناً لماذا يعيش البشر. ألا يوجد لديهم أي شيء أفضل يفعلونه؟.. آلاف من الأميال بعيداً عن وطني، أنا منفي هنا، من يعرفني هنا... إنني حتى قد أموت هنا. هيوبرت، هل فكرت سابقاً أن ذهابك وأنت غريب إلى أرض أجنبية أمر خطر جداً...؟

نظر هيوبرت إلى الدكتور بشيء من الدهشة. كانت تلك المرة الأولى التي يرى فيها الدكتور مخرجي من هذا المنظار. كان متحفظاً دائماً حول أموره الشخصية.

. ليس هناك أي شخص يعتمد علي، وهذا يمنحني شعوراً غريباً بالسعادة. لكن موت بعض الناس يبقى لغزاً حتى النهاية ذاتها. ربما كانوا يتوقعون الكثير من الحياة. إننا لا نستطيع حتى أن نعتبر حياتهم مأساوية لأنهم لا يشعرون بظاهرة الموت حتى النفس الأخير.

فسأل هيوبرت، بانزعاج:

. عمن تتحدث، يا دكتور؟..

تابع الدكتور تدخين سيغاره، ثم ثبت عينيه على لهب الشمعة المحتضرة.

. تعرف أن لاتيكا اعتادت منذ فترة أن تذهب إلى النادي بانتظام. وهناك تعرفت على غيريش نيغي. لقد أخبرني بكل شيء في الليلة السابقة لسفره إلى كشمير. إنني لم أخبر لاتيكا أبداً بشأن ذلك اللقاء. ولكن في ذلك اليوم من كان يعرف أنه لن يعود أبداً.؟... والآن... الآن ماذا يهم هذا؟ دع الموتى يموتون.

كانت ضحكة الدكتور الجافة الباهتة تمتلئ ببلاهة فارغة.

. غيريش نيغي؟... من كان هذا؟...

. كان نقيباً في فوج كوماون.

. يادكتور... إن لاتيكا ...

لم يستطع هيوبرت أن يقول أكثر. وتذكر فجأة الرسالة التي كتبها إلى لاتيكا. كم هي غريبة وبلا معنى، وكأن كل كلمة منها كانت تلتوي في قلبه. وببطء، أسند رأسه إلى البيانو. لماذا لم تخبره لاتيكا بذلك؟..هل كان الأمر يستحق أن تخبره به؟...

. لاتيكا.... إنها طفلة، وغبية. هل يموت المرء مع الموتى؟..

بعد صمت قصير كرر الدكتور سؤاله ثانية.

. ولكن يا هيوبرت، هل تؤمن بالقدر؟..

مع هبة الريح، توهج لهب الشمعة بحدة ثم انطفأت. على الشرفة لم يستطع كل من هيوبرت والدكتور أن يرى وجه الآخر ولكن ظل كل منهما ينظر باتجاه الآخر. كان صوت تدفق جدول جبلي على الأرض، بعيداً بعض الشيء عن المدرسة، مسموعاً بشكل واضح. وعندما ارتفع، بعد وقت طويل، صوت بوق فوج كوماون، نهض هيوبرت بسرعة قائلاً:

. يجب أن أذهب، يا دكتور، ليلة سعيدة.

. ليلة سعيدة، يا هيوبرت. أعذرني. إنني سأنام بعد أن أنهي سيغاري فوراً.

في الصباح امتلأت السماء بالغيوم. وما إن فتحت لاتيكا نافذتها حتى دخلت غرفتها كتلة من الضباب وكأنها كانت ترتجف طوال الليل في البرد، وانتظرت هذه اللحظة حتى تتمكن من اقتحام غرفتها. كان الطريق المؤدي إلى الكنيسة، بعد المدرسة، مختفياً في الغيوم؛ ولم يبق مرئياً سوى الصليب فقط، وقد ارتسم في صورة ظلية فوق شاشة الضباب وكأنما اختطه قلم رصاص.

حولت لاتيكا بصرها عن النافذة، ووجدت كريم الدين واقفاً في الغرفة وهو يحمل صينية الشاي. كان كريم الدين يخدم في الجيش سابقاً، لذلك وقف بوضعية الانتباه. كانت منذ أن استيقظت قد ظلت تغفو بشكل متقطع، بسبب الكسل الصرف. وكي تتغلب على ارتباكها، قالت له:

. الجو بارد، أليس كذلك؟.. لا أشعر برغبة في ترك السرير.

. آه، يا سيدتي، هذا ليس برداً. دعي عيد الميلاد يأتي وستظل أسنانك تصطك

من البرد. ذاك هو الشتاء الحقيقي.

ثم وضع كريم الدين يديه تحت ذراعيه وتقوقع على نفسه وكأن مجرد التفكير بتلك الأيام قد جعله يرتعش. كان قد صبغ شعره حول أطراف رأسه الأصلع، وجعله يبدو بلون التبغ البني. كانت لديه، في أي حديث، موهبة توجيهه إلى مستوى يستطيع معه التعبير عما يدور في نفسه بحرية.

. ذات سنة تساقطت الثلوج بشدة إلى درجة أن الطريق بكامله من "بوالي" حتى بيت الضيافة كان مسدوداً كلياً. كان الثلج كثيفاً جداً، يا سيدتي، حتى أن فروع الأشجار لفت نفسها حول الجذوع . هكذا.

ووضح ذلك بالانحناء إلى الأسفل واتخاذ وضعية الدجاجة.

. أي سنة تتحدث عنها؟..

. يمكنني أن أخبرك ذلك بعد الحسابات فقط، يا سيدتي. لكنني أتذكر جيداً أن البريطانيين كانوا لا يزالون هنا. لم يكن هناك علم وطني فوق أبنية الثكنات. كان أولئك البريطانيون أذكياء جداً: فخلال ساعتين أزالوا الثلج. في تلك الأيام كانت نفخة صافرة فقط تطلق خمسين فارساً من مكان مجهول. والآن،أصبحت جميع الحظائر مهجورة. كان أولئك الناس يعرفون كيف يجعلون الآخرين يخدمونهم. والآن كل شيء بات مختلفاً.

وبتعبير حزين نظر كريم الدين خارج النافذة.

لم تكن هذه أول مرة تسمع فيها لاتيكا من كريم الدين عن الأيام الخوالي الرائعة للحكم البريطاني . عن "أنغريز بهادور" الذي جعل المكان جنة.

. هل ستقضين عطلتك هنا هذه السنة أيضاً، يا سيدتي؟..

. يبدو ذلك يا كريم الدين، أخشى أنني سأزعجك.

. ماذا تقولين، يا سيدتي؟.. إن وجودك هنا يبقي معنوياتي عالية. وإلا لانطلقت الكلاب بحرية في المكان خلال فترة العطلة.

. أخبر البنّاء، من فضلك، كي يصلح السقف. ففي السنة الماضية ظل الماء أو الثلج يتسرب عبر الشقوق.

تذكرت لاتيكا أنها في الشتاء الماضي كلما سقط الثلج كان عليها أن تنسحب إلى إحدى زوايا غرفة للنوم.

رفع كريم الدين الصينية، وقال:

. السيد هيوبرت قد يغادر غداً. ليلة أمس أصابه المرض ثانية. جاء وأيقظني بعد منتصف الليل. كان يشتكي من ألم في صدره يبدو أن الشتاء لا يناسبه. قال إنه سيحاول السفر غداً في حافلة الفتيات.

أغلق كريم الدين الباب وخرج من الغرفة. فكرت لاتيكا بالذهاب إلى غرفة هيوبرت والاستفسار عن صحته. لكنها عندئذٍ لم تعرف لماذا ظل خُفّاها متدليين من قدميها واستمرت تنظر من النافذة نحو السحب المسرعة. عندما ينظر إليها وجه هيوبرت ويصبح متوسلاً ومختلفاً، تشعر بأنه يؤنبها بمناشدة عاجزة خرساء. وهي لا تستطيع أن تبدد وهمه أو تقول أي شيء عن نفسها في تبرير ذاتي. إنها تشعر أن أي حبل تتمسك به كي تخلص نفسها من الشَرَك، يتحول إلى عقدة.

كانت السماء قد بدأت تمطر بشكل خفيف، وأصبح سقف الصفيح صاخباً بصوت المطر. خرجت لاتيكا من الفراش، وأعادت تسويته بعناية. ثم سحبت قدميها في خُفَيها نحو المرآة الكبيرة، وجلست على المقعد أمامها وحلت شعرها. ولكن لبعض الوقت ظل المشط غارقاً في شعرها وراحت تنظر إلى نفسها في المرآة بعينين غافلتين. كان من الواضح أنها نسيت إخبار كريم الدين كي يتابع التزود بخشب الوقود. كان الخشب في هذه الأيام رخيصاً وجافاً. في السنة الماضية كانت غرفتها قد امتلأت بالدخان وكان عليها أن تبقي النافذة مفتوحة حتى خلال البرد الشديد.

نظرت لاتيكا إلى وجهها في المرآة. كانت تبتسم. في السنة الماضية، لتهرب من برد غرفتها ورطوبتها كانت غالباً ما تذهب خفية للنوم في غرفة الآنسة وود. كانت غرفة الآنسة وود تظل دافئة حتى بدون نار. وكانت تستغرق في النوم حالماً تستلقي على الأريكة النابضية ذات الريش. كانت الغرفة تظل فارغة خلال العطل، لكن الآنسة وود لم يكن لديها اللطف المعتاد بحيث تسمح لها باستخدامها خلال الشهرين. وكانت كل سنة تركب قفلاً على الباب. وفي السنة الماضية نسيت أن تقفل باب الحمام من الداخل، لذلك استعملته لاتيكا لتتسلل داخلاً.

في السنة الأولى كانت خائفة من البقاء وحدها. وخلال العطلة كانت المدرسة وغرف الفندق كلها يخيم عليها صمت شبحي. وعندما كان خوفها يشتد ولا تستطيع النوم، كانت تشغل كريم الدين ببعض الأحاديث التافهة، وحين تغفو كان يطفئ المصباح وينسل خارجاً. وأحياناً كانت تدعو الدكتور زاعمة أنها مريضة وتجبره على

النوم هناك، بعد إعداد سرير إضافي له في الغرفة المجاورة.

انتزعت خصلة شعر من مشطها ومشت نحو النافذة كي ترميها خارجاً. كانت مياه المطر تتساقط مشكّلة جداول غزيرة من السقف المنحدر نحو العشب الذي تحته.

في السماء الممتلئة بالسحب، كانت قمم الجبل تختفي وتظهر ثانية وراء الغيوم المسرعة وكأنها تشاهد من قطار منطلق. وضعت لاتيكا رأسها خارج النافذة وطرفت عيناها حالما لطمت وجهها هبة ريح باردة. حين تذكرت كل مهمة كان عليها القيام بها، تزايد كسلها. كان يجب دفع النقود إلى آذن المدرسة لحجز تذاكر الحافلة من أجل الفتيات. وكان يجب تخزين الأمتعة التي سيتركنها في المستودع. وكان عليها حتى أحياناً أن تساعد الفتيات الأصغر سناً في حزم أمتعتهن.

إنها لا تكره هذه المهام فعلاً. فكل شيء يتم مع مرور الوقت. خطأ هنا، وسهو هنا ك، لكن كل شيء يتم تصحيحه لاحقاً. إن كل عمل يخلف وراءه بعض القلق والإجهاد لكنه سيتم تنفيذه عاجلاً أم آجلاً.

ولكن عندما تغادر آخر حافلة محملة بالفتيات كانت تشعر فجأة ببعض التوعك. كانت تتجول بدون هدف عبر الممرات الفارغة، وتدخل حيناً إحدى الغرف، وحيناً غرفة أخرى. ولا تعرف ما تفعل بنفسها. ولم يكن ذهنها لينشغل بأي شيء سوى أن يهيم، دائماً.

بعد ذلك يسألها كل شخص بسهولة:

. آنسة لاتيكا، ألا تذهبين إلى ديارك خلال العطل؟..

وماذا يمكنها أن تقول؟..

دنغ! دنغ! دنغ! كان جرس القداس الخاص يقرع في كنيسة المدرسة، سحبت لاتيكا رأسها من النافذة. وبعد أن انسلت خارج الساري الذي ترتديه، وضعت منشفة على كتفها ودخلت الحمام بثيابها الداخلية.

يسار . يمين . يسار . يسار

كان تشكيل من الجنود الهنود في فوج كوماون يسير بانتظام في نسق رباعي على الطريق المؤدي إلى المعسكر. كان الوقع الثقيل والقاسي لأحذيتهم العسكرية يرتد على جدران الكنيسة وينتشر مهتزاً عبر قاعة الصلاة في الداخل.

. طوبى للودعاء.

كان الأب إلموند يقرأ خطبة الجبل، بصوت منزعج، وهو يتشدق بكل كلمة. تحت تمثال المسيح كان ضوء الشموع يسقط من طرفي الشمعدان على الفتيات الجالسات في الصفوف الأمامية. أما الصفوف الخلفية فكانت مغلفة بالظلام. كانت الفتيات يجلسن هناك، برؤوس محنية للصلاة، وهن يهمسن فيما بينهن. كانت الآنسة وود قد ألقت خطابها الوداعي، وهنأت الطالبات والموظفات على نهاية فصل دراسي ناجح. والآن، هي جالسة وراء الأب، كانت تدمدم بشيء لنفسها وكأنها تلقنه.

. آمين!..

وضع الأب إلموند الكتاب المقدس على المنبر ورفع كتاب الصلاة. وللحظة تحطم الصمت في القاعة. نهضت الفتيات، ورحن يدفعن المقاعد إلى الخلف عمداً، ويحدثن صوت صرير. وارتفع صوت ضحك من زاوية القاعة. توتر وجه الآنسة وود وقطبت حاجبيها. ومن جديد خيم الصمت على القاعة. وعبر الظلال الكئيبة للقاعة كان صوت الأب إلموند الحاد المرتعش مسموعاً.

. قال المسيح، أنا نور العالم. ومن يتبعني لن يمشي في الظلام لكنه سيكون عنده نور الحياة....

تثاءب الدكتور مخرجي من الملل والضجر. وسأل لاتيكا بصوت عال جعلها تنظر بالاتجاه الآخر من الارتباك:

. متى سينتهي هذا العمل؟

وطوال القداس الخاص، ظلت ابتسامة ساخرة خاصة على وجه الدكتور مخرجي، وهو يواصل شد شاربه بهدوء.

بعثت ثياب الأب إلموند موجة من المتعة لدى لاتيكا. عندما كانت فتاة صغيرة راحت تتساءل أحياناً إن كان رجال الدين هؤلاء يلبسون أي شيء تحت أرديتهم. وماذا لو أن الرداء ارتفع مصادفة؟..

يسار... يمين.... يسار! كان صوت الأحذية العسكرية وهي تسير بانتظام يرتد عن الكنيسة. وكان الصدى فقط يظل عالقاً في الهواء.

قال الأب إلموند، وهو يفتح كتاب صلاته:

. الترتيلة رقم 117.

فتحت كل فتاة في القاعة كتاب التراتيل ووضعته أمامها. وراح صوت حفيف الصفحات ينساب من زاوية إلى أخرى. نهض هيوبرت من مقعده في الصف الأمامي، وجلس على كرسي أمام البيانو. ولأنه معلم الموسيقى كان عليه أن يرافق جوقة المدرسة على البيانو كل سنة. تمخط هيوبرت في منديله. كان يفعل هذا دائماً ليخفي توتره. وبعدما ألقى نظرة مختلسة على القاعة، فتح كتاب التراتيل بيدين مرتجفتين.

. قُد بلطف إلى النور...

كانت أنغام البيانو، مكتومة، وخجولة، تتلاقى سوية. بينما راحت أصابع هيوبرت الطويلة الصفراء، والمغطاة بالوبر الكثيف، تفتح وتغلق. وأخذت أصوات الفتيات التي تشكل الجوقة تتشابك مع بعضها بعضاً، وتذوب في موجات ناعمة حلوة.

شعرت لاتيكا أن كعكة شعرها قد انحلت، وكأنما تدلت عند مؤخرة عنقها. وراحت، وهي تتجنب عيني الآنسة وود، تعيد ترتيب شعرها بمشابك الشعر.

. ياله من رجل عنيد... في الصباح منعته من الحضور إلى الكنيسة، ومع ذلك أتى.

تذكرت لاتيكا ما أخبرها به كريم الدين... الليلة الكاملة التي كان يسعل فيها... وكان يتحدث عن السفر غداً....

بعد أن مالت برأسها جانباً، حاولت لاتيكا عبثاً أن تلمح وجه هيوبرت. من ورائها، لا شيء أمكنت رؤيته بوضوح. كان رأس هيوبرت فقط مرئياً وهو يميل فوق البيانو.

. قُد بلطف إلى النور...

بدت الأنغام الموسيقية وكأنها تتسلق جبلاً عالياً، وبعد أن تنثر حفنة من الأنفاس نحو فراغ السماء الواسع، كانت تهبط. وكان الضوء الناعم المشبع بالمطر يتألق على اللوح الزجاجي المستطيل لنافذة الكنيسة. وسقط شعاع ضوء واحد منفرد بشكل مائل على صورة المسيح. وتتبع الدخان المنبعث من الشموع خطاً أزرق في الضوء، وأخذ يعوم الآن في الهواء. ومع التوقف المؤقت للبيانو، كانت لاتيكا تسمع حفيف أوراق الشجر، بعيداً من مكان ما. للحظة كان لديها وهم بأن عتمة الكنيسة الخافتة، التي تلتف عائدة من زوايا قاعة الصلاة الأربع، كانت تطوقها بقوة. وكأن

شخصاً ما قد أحضرها إلى هذا المكان معصوبة العينين، ثم أزال العصابة فجأة عن عينيها. شعرت بأنه لا يوجد شيء راسخ أو حقيقي تحت ضوء الشمعة العابق بالدخان . بما في ذلك سقف الكنيسة، والجدران، ويد الدكتور القوية والطرية على الطاولة . وأن أنغام البيانو التي تخترق ضباب الماضي قد أصبحت نفسها جزءاً من الضباب.

إنها ذاكرة مجنونة، وشعور غريب . خلف زجاج الكنيسة، في الريح الجبلية الجافة، كانت الفروع المرتجفة لأشجار الصفصاف الباكي تنحني أمام الريح، وتحتها كانت أوراق الصنوبر الناعمة المألوفة تصدر صوت حفيفها... هناك تماماً كان غيريش يقف، وهو يمسك في يده قبعة عسكرية بلون خاكي. كان له كتفان مرفوعتان عريضتان، إذا وضعت رأسك عليهما فإنه ينكمش على نفسه. "تشارلز بوير ". كان ذلك هو الاسم الذي أطلقته عليه. وكان يجعله يضحك بارتباك.

. من اختارك للخدمة في الجيش؟ أنت رائد في رتبتك لكنك أسوأ من الفتيات. إن وجهك يحمر عند أقل لمسة.

كل هذا لم تكن قد قالته، لكنها فكرت فيه فحسب . فكرت في أنها قد تقوله ذات يوم، لكن ذلك "اليوم" لم يأت.

الزهرة الحمراء (زهرة الدّفلى)

لقد أحضرتها

أليس كذلك

كاذب!

كانت سترته الخاكية تحمل زخارف حربية على جيبها. ومنها خرجت زهرة حمراء ذابلة.

لقد ذبلت

لم تزهر حتى

(بالحماقة!)

يد غيريش تتشابك مع شعرها. الزهرة لا تبقى، ثم يثبتها تحت الدبوس.

هناك!

استدارت. ولكن قبل أن تمكن من الكلام، هوت قبعة غيريش العسكرية فوق رأسها. ووقفت مسحورة هناك.

قبعة غيريش على رأسها . وعلامة حمراء صغيرة على جبينها.

عليها شعرة تائهة تطير . كان غيريش قد لمس العلامة الحمراء بشفتيه، ثم طوق الرأس الذي أصبح الآن بلا قبعة في كلتا يديه.

. لاتيكا !

. أكل البشر في كوماون!

كان غيريش يثيرها. وبدأت تضحك.

. لاتيكا . اسمعي!

كان صوته يبدو، مثل ماذا؟..

. أوميغا. إنني لا أسمع أي شيء.

. لاتيكا، سأعود بعد بضعة أشهر.

. لا... إنني لا أسمع شيئا.

لكنها تسمع . ليس ما يقوله غيريش، ولكن ما لا يقوله، ما لم يقله أبداً بعد ذلك.

. قُد بلطف إلى النور.

كانت أصوات الفتيات ترتفع وتنخفض مع صوت البيانو.

للحظة عابرة أدار هيوبرت رأسه ونظر نحو لاتيكا. بعينين مطبقتين، كانت تقف مثل تمثالٍ في حالة تأمل. هل كان هذا الوضع وهذه العاطفة له؟.. هل جعلته لاتيكا رفيقها في هذه اللحظات؟.. أخذ هيوبرت نفساً عميقاً، التقت معه كتلة من التعب.

. انظر . الآنسة وود تغفو في كرسيها.

همس الدكتور بصوت مكتوم. كانت نكتة الدكتور المفضلة أن الآنسة وود تنام وهي تتظاهر بالصلاة.

جمع الأب إلموند أطراف ردائه عن كرسيه. وبعدما أغلق كتاب صلاته قال شيئاً ما في أذن الآنسة وود. كان صوت البيانو يتلاشى، وفقدت أصابع هيوبرت توترها. في ختام القداس قرأت الآنسة وود أمراً. كان المطر غير المتوقع قد تطلب

تعديلاً في البرنامج. فلن يكون من الممكن الذهاب إلى معبد "جولا ديفي" للنزهة. وبدلاً من ذلك، بعد الفطور، كانت الفتيات سيجتمعن في المروج، على مسافة قريبة من المدرسة، وسيأخذن رزم غذائهن من مطبخ الفندق. كان الشاي المسائي فقط سيتم إعداده في المروج.

إن الأمطار في التلال متقلبة. فقبل فترة وجيزة كانت غيوم دخانية ترعد، وكانت البلدة بكاملها ترتجف وتمتلئ بالرطوبة. والآن كانت السماء الزرقاء المغسولة بالشمس تظهر من وراء الضباب وتنتشر. خرجت لاتيكا من الكنيسة، ورأت قطرات متألقة من المطر تسقط من فروع شجر الصفصاف الباكي.

بعد الخروج من الكنيسة، تجمعت الفتيات ضمن الممرات في مجموعات صغيرة وكبيرة. كان لا يزال باقياً على موعد الفطور ثلاثة أرباع الساعة ولم تكن أي فتاة راغبة في العودة إلى الفندق. لم تكن العطلة قد بدأت بعد ولكن ربما لهذا السبب بالضبط أردن تجربة الحرية في هذه اللحظات الأخيرة من الانضباط المقيد.

قطبت الآنسة وود حاجبيها بسبب سلوك الفتيات الصاخب، لكنها لم تستطع توبيخهن بحضور الأب إلموند. وهكذا كبتت غضبها، ثم ابتسمت، وقالت:

. غداً ستكون هؤلاء الفتيات كلهن قد ذهبن وستصبح المدرسة مهجورة.

كان وجه الأب إلموند الطويل الرائع قد اصطبغ بلون أحمر أعمق بسبب حرارة الكنيسة الشديدة. وبعدما علق عكازه على سور الممر، قال:

. من سيبقى في الفندق خلال العطلة؟..

. والدكتور مخرجي؟..

امتدت شفة الأب العليا بعض الشيء.

إن الدكتور يبقى هنا طوال السنة. صيفاً وشتاءً.

نظرت الآنسة وود بدهشة نحو الأب إلموند. لم تستطع أن تفهم لماذا أدخل الأب إلموند الدكتور في المحادثة.

. ألا يذهب الدكتور مخرجي إلى أي مكان خلال العطلة؟...

وضحكت الآنسة وود قائلة:

. سيكون من الصعب زيارة بورما في عطلة مدتها شهران، أيها الأب.

- إنني لا أعرف بماذا تفكرين، يا آنسة وود. لكنني لا أستطيع أن أفهم لماذا يجب على الآنسة لاتيكا أن تبقى في الفندق وحدها.

- ولكن، أيها الأب، تلك قاعدة في مدرستنا أن تستطيع أي معلمة البقاء في الفندق خلال العطلة، على نفقتها الخاصة.

. إنني لا أتكلم عن تعليمات المدرسة حالياً. إن الآنسة لاتيكا ستبقى وحدها مع الدكتور، ولأقل لك الحق، يا آنسة وود، إنني لا أحمل رأياً عالياً بالدكتور مخرجي.

. أيها الأب، عمَّ تتحدث؟.. الآنسة لاتيكا ليست طفلة.

لم تتوقع الآنسة وود من الأب إلموند أن يحمل مثل هذه الأفكار القاتمة عن أي شخص.

شعر الأب إلموند ببعض الارتباك من عنفها، وقال مراوغاً:

- آنسة وود، إنني لا أعني ذلك... تعرفين أن ثمة فضيحة تتعلق بالآنسة لاتيكا وضابط الجيش ذاك. كم يستغرق وقتاً كي تكتسب مدرسة سمعة سيئة؟..

. ذلك المسكين، إنه لم يعد موجوداً. كنت أعرفه، أيها الأب. ليجعل الله روحه ترقد بسلام.

ورسمت الآنسة وود إشارة الصليب.

شعر الأب إلموند بنفور شديد من غباء الآنسة وود إلى درجة أنه لم يقل أي شيء أكثر. وهو لم يكن ينسجم مع الدكتور مخرجي، لذلك أراد أن يقلل من شأن الدكتور في عيني الآنسة وود. ولكن هنا كانت الآنسة وود تذرف الدموع من أجل لاتيكا. وكان الاستمرار عديم الفائدة. لذلك تناول عكازه عن السور، ونظر إلى السماء الصافية المشرقة، وقال:

- لقد غيرت برنامجك بدون ضرورة، يا آنسة وود، فلا توجد أي دلالة على المطر.

عندما خرج هيوبرت من الكنيسة كانت عيناه بحالة عمى مؤقت من الوهج. وشعر أن شخصاً ما رش فجأة حفنة من الضوء المغلي اللامع داخل عينيه. وكانت أنغام البيانو لا تزال ترفرف في رأسه، مثل خيوط من القطن الطبي الناعم. كان العزف على البيانو يثقل دائماً بشدة على رئتيه فيزداد نبض قلبه.وشعر أنه كان، في محاولة الانتقال من نغمة موسيقية إلى أخرى، كأنما يعبر هوة مظلمة. وراح يفكر، ما

هذا الذي واجهته في الكنيسة اليوم، كم كان أمراً غير عادي. كنت أشعر أن كل نغمة على البيانو، تنبثق من الكهوف المظلمة للصمت الأبدي، وتشق طريقها بصعوبة عبر الضباب الأزرق المنتشر، منتزعة بعض المعاني نصف المنسية منه. كان كل توقف هابط موتاً صغيراً، وكأنه كان أثراً مفقوداً داخل الظلال المرتجفة لمجموعة كثيفة من الأشجار، موتاً صغيراً يورث بقايا إيقاعاته إلى الأنغام التالية.... والتي تموت لكنها لا تتحطم، لا تتحطم، بل تظل حية حتى في الموت، لتغمرها النغمات الأخرى.

. هل يأتي الموت هكذا، يا دكتور؟..

إذا سألت الدكتور فإنه سيسخر من هذا. أشعر أنه، خلال الأيام القليلة الماضية، كان يخفي شيئاً عني. إنني لا أحب صدى العطف في ضحكته. لقد حاول منعي اليوم من المجيء إلى القداس الخاص. وحين سألته عن السبب، دمدم الرد بصورة مبهمة. ماهو هذا الشيء الذي يخجل الدكتور من إخباري به؟ ربما كنت أتحول فقط إلى شخص مرتاب بطبيعته، وهذا كل شيء.

رأى هيوبرت صفوف الفتيات وهن ينحدرن على الطريق المؤدي من المدرسة إلى الفندق. تحت الشمس اللامعة، كانت تتألق أشرطتهن المتعددة الألوان، وأرديتهن الزرقاء وأحزمتهن البيضاء. وكانت بعض فتيات صف كامبردج الكبير قد قطفن بعض الورود من حديقة الكنيسة وأقحمنها في شعرهن. وكان الجنود الهنود من المعسكر يقومون بحركات بذيئة نحو الفتيات؛ وأحياناً كانت بعض الرؤوس تميل قليلاً، وهي تصفر.

. مرحباً، يا سيد هيوبرت!...

أدار السيد هيوبرت رأسه مجفلاً. كانت لاتيكا تقف هناك، وقد وضعت سجلاً ضخماً تحت ذراعها.

. ألا تزالين هنا؟..

ظلت نظرة هيوبرت مثبتة على وجه لاتيكا. كانت ترتدي سترة صوفية ذات كمين طويلين بلون أبيض مصفر. وكان عنقها مستديراً مثل فتيات كوماون. كانت بشرتها الحنطية تحت الشمس الحارة قد تحولت قليلاً إلى اللون الوردي وكأنما بقيت بعض البقع الوردية متناثرة حتى بعد الغسل المتواصل.

. كان علي أن أدون أسماء الفتيات المغادرات غداً... يجب أن أبقى هنا. أنت

أيضاً ستغادر غداً، يا سيد هيوبرت؟..

. هذا ما أعتزمه حالياً. ماذا سأفعل هنا؟ هل أنت ذاهبة باتجاه المدرسة؟...

. هيا!..

تزايدت حشود الفتيات على الطريق المفروش بالحصى. لذلك سارا في الممر المحيط بملاعب البولو.

كانت الريح قد اشتدت. ومع كل هبة ريح أخذت أوراق الصنوبر تسقط من الأشجار وترتفع على الممر في أكوام كبيرة مفاجئة. شق هيوبرت طريقه عبر الأكوام بعكازه. راحت لاتيكا تراقبه، وهي تتوقف خلفه كل مرة. كانت بعض السحب الصغيرة القادمة من وادي "ألمورا" قد حجبت الشمس، مثل منديل حريري، ثم دفعها النسيم بعيداً. في هذه اللعبة، كان الضوء يخفت أحياناً، وأحياناً أخرى ينشر عباءته البراقة، ويلم المدينة بكاملها تحت جناحه.

مشت لاتيكا فجأة أمام هيوبرت. أصبح تنفس هيوبرت ثقيلاً، وراح يتبعها وهو يلهث. حين غادرا المقبرة. توقفت لاتيكا ليتمكن هيوبرت من اللحاق بها. وتذكرت أنها خلال العطلة، حين يمر الوقت ثقيلاً عليها، وهي جالسة في غرفتها، كانت تتمشى غالباً نحو المقبرة، وتتسلق التل المجاور لها، وتراقب أشجار الصنوبر التي يتساقط الثلج من أغصانها المثقلة به وكأنه زغب القطن. وفي الأسفل عند السوق كان الأطفال يتزلجون. وعند وقوفها على التل كانت تتخيل الطريق . المدفون الآن تحت الثلج . الذي يمر بجانب منزل الأب إلموند، ويؤدي إلى المستشفى العسكري ومكتب البريد، ثم يضيع في مكان ما خارج درجات الكنيسة. كانت الإثارة التي يحصل عليها المرء من حل ألغاز الصور المقطعة، تشعر بها لاتيكا وهي تقتفي آثار الطرق المدفونة تحت الثلج.

آنسة لاتيكا، إنك تمشين بسرعة عالية.

كان وجه هيوبرت قد ذبل من التعب. وراحت قطرات العرق تلمع على جبينه.

. هل كنت مريضاً ليلة أمس؟..

. كيف عرفت؟.. هل أبدو مريضاً؟..

كان صوت هيوبرت يحمل بعض الحدة. وتساءل، لماذا يتحدث الجميع عن صحته.

ـ لا.. لم أكن لأعرف لولا كريم الدين. هو الذي أخبرني بذلك في معرض الكلام.

واحمر وجه لاتيكا بعض الشيء.

ـ لا، إنه ليس أمراً خطراً. لقد بدأ الألم نفسه ثانية. إنني بخير كلياً الآن.

ولتأكيد ذلك دفع هيوبرت صدره خارجاً وزاد من سرعته قليلاً.

ـ هل تحدثت مع الدكتور مخرجي؟..

ـ لقد جاء في الصباح. إنني لا أفهمه أبداً. فهو يناقض نفسه دائماً. قال إنني يجب أن آخذ إجازة لمدة ستة أشهر وأحصل على استراحة كاملة. ولكن إذا كنت بخير فلماذا أحصل على استراحة؟...

لم تغب لمسة القلق في صوت هيوبرت عن ملاحظة لاتيكا. وقالت، وهي تروغ من سؤاله:

ـ إنك تقلق بلا مبرر، يا عزيزي هيوبرت. إنه تبدل الفصول، وحتى الناس الأصحاء جداً يمكن أن يمرضوا.

ـ هل تظنين ذلك؟..

شع وجه هيوبرت بالسعادة. وركز نظراته على لاتيكا. لقد أراد أن يزيل أي شك بالتأكيد من أنها لم تكن تقول هذا لمجرد مواساته.

ـ هذا ما كنت أفكر فيه تماماً، يا آنسة لاتيكا. لقد أرعبتني نصيحة الدكتور. ماذا كنت سأفعل بإجازة ستة أشهر؟.. في المدرسة، أشعر بتسلية بوجود الأطفال. في الحقيقة، من الصعب أن أتحمل مرور هذين الشهرين في دلهي.

ـ سيد هيوبرت ... أنت ذاهب إلى دلهي غداً...؟

توقفت لاتيكا فجأة في مكانها. امتد أمامها ملعب البولو، وفي أحد طرفيه كانت شاحنات عسكرية تتوجه إلى المعسكر. أحس هيوبرت أن جفني لاتيكا قد تهدلا وأطبقا قليلاً، وكأن حلماً منسياً قد انساب داخلهما.

ـ إذاً فأنت ذاهب إلى دلهي، يا سيد هيوبرت.

لم تكرر لاتيكا هذا بصيغة سؤال . كان في صوتها مجرد إحساس بالمسافة الهائلة.

. قبل عدة سنوات ذهبت إلى دلهي، يا سيد هيوبرت. كنت صغيرة جداً آنذاك . لا أعرف كم مضى من السنين على ذلك. لقد فقدت عدد السنين. كانت خالتي متزوجة هناك، في دلهي. ورأيت العديد من الأشياء، لكن الذاكرة تلاشت الآن. أذكر أننا تسلقنا " الكوتاب". نظرنا إلى الأسفل من الطابق الأعلى . وشعرنا بإحساس غريب!.. كان الناس الذين يمشون في الأسفل يبدون مثل اللعب الآلية. كنا نرمي حبات الفول السوداني عليهم، ونشعر بخيبة أمل كبيرة لأن ما من أحد منهم نظر عالياً نحونا. ربما وبختني أمي، وكنت خائفة من مجرد النظر إلى الأسفل. سمعت أن دلهي قد تغيرت كثيراً الآن...

تابعا سيرهما. هدأت الريح. وبدا أن الغيوم العابرة قد خفت الآن، وراحت ظلالها تسقط على تلال ناندافيدي وبانتشولي. ومع اقترابهما من المدرسة بدأت أشجار الصنوبر تختفي بعيداً، وحول أشجار المشمش هنا وهناك، كانت أزهار "البورون" الحمراء تتألق في الشمس. وبوصولهما إلى المدرسة كانا قد قطعا ملعب البولو بكامله.

- آنسة لا تيكا، لماذا لا تذهبين إلى مكان ما في العطلة الشتوية؟... لابد أن هذا المكان يصبح مقفراً في الشتاء.

قالت لاتيكا:

- إنني أحب هذا المكان الآن. في السنة الأولى أزعجتني العزلة إلى حد ما . لكنني اعتدت عليها الآن. عشية عيد الميلاد هناك رقص في النادي، وسيجرون سحب يانصيب. وسيكون هناك غناء ورقص حتى وقت متأخر من الليل. وفي أول يوم من السنة الجديدة، كان من عادة فوج كوماون إقامة كرنفال في ساحة العرض. حيث يجري تزلج، وتلعب الفرقة العسكرية تحت الكثير من المناطيد الملونة؛ ويشارك ضباط الجيش في عرض للأزياء التنكرية . يحدث هذا كله في كل سنة، يا سيد هيوبرت. ثم بعد أيام قليلة يبدأ السياح الإنكليز بالوصول للقيام بالرياضات الشتوية. ويتم تقديمي إليهم ويعدون بأن يعودوا في السنة التالية لكنني أعرف أنهم لن يفعلوا ذلك، وهم يعرفون هذا أيضاً. لكن ذلك لا يؤثر على صداقتنا. ثم بعد مضي وقت قليل يبدأ الثلج بالذوبان على الجبال، وتقترب العطلة من نهايتها وتبدؤون أنتم أيها الناس بالرجوع . كذلك، يا سيد هيوبرت، إنني لا أميز حتى متى بدأت العطلة، ومتى انتهت.

لاحظت لاتيكا أن هيوبرت كان ينظر نحوها بذعر، واستغرقت في صمت مرتبك، وكأنما كانت طوال هذا الوقت تثرثر بطريقة هاذية مجنونة.

. سامحني، يا سيد هيوبرت، إنني أصبح طفولية أحياناً، وأتعرض للاستثارة.

قال هيوبرت بصوت منخفض:

. آنسة لاتيكا ...

وتوقف عن السير. وأجفلت لاتيكا من ثقل صوته.

. ما الأمر يا سيد هيوبرت؟..

. تلك الرسالة... إنني أشعر بالخجل منها. أرجوك أعيديها لي. اعتبري أنها لم تُكتب أبداً.

لم تفهم لاتيكا شيئاً. وراحت تحدق، ضائعة ومشدوهة، في وجه هيوبرت الأصفر القلق.

وضع هيوبرت يده بلطف على كتف لاتيكا.

. لقد أخبرني الدكتور أمس كل شيء، لو أنني عرفت لكنت... لكنت....

وتهدج صوت هيوبرت.

. يا عزيزي هيوبرت...

لكن لاتيكا، أيضاً، لم تستطع أن تتكلم بعد. كان وجهها قد شحب.

وظلا لبعض الوقت واقفين بصمت عند باب المدرسة.

تلك المروج . جزيرة صغيرة محاطة من جميع أطرافها بمسارات الماعز وأوراق الشجر والظلال، مثل عش يختبئ بين واديين. وعند دخولها فوراً، تواجه الناظر أحجار متفحمة بسبب المتنزهين، وأغصان شجر نصف متفحمة، وأوراق صحف ممتدة للجلوس عليها، وقد تناثرت الآن في جميع الاتجاهات. وهي بقعة مفضلة لدى السياح والمتنزهين. وثمة جدول جبلي ملتو يشق طريقه عبر المرج، يبدو عن بعد مثل شريط أبيض تحت نور الشمس الساطع. كذلك يوجد جسر فوق الجدول، مصنوع من جذوع أشجار قديمة. كانت الفتيات يتأرجحن وهن يعبرن الجسر.

وقالت الآنسة وود، وهي تدوس بصندلها ذي الكعب العالي عود ثقاب مشتعل رماه الدكتور مخرجي بإهمال فوق كومة من أوراق الصنوبر:

ـ دكتور مخرجي، إنك ستجعل الغابة بكاملها تشتعل!

كان يجلس بعيداً قليلاً عن الجدول، تحت ظل متشابك لشجرتي صنوبر. وأمامه طريق للماعز يؤدي إلى قرية صغيرة في الأسفل، حيث يمكن، في حضن التل، رؤية حقول الشوندر المتدرجة. وفي سكون الأصيل كان صوت الخراف والماعز يصل عائماً مع النسيم.

كان الدكتور مخرجي لا يزال مستلقياً على العشب، وهو يدخن سيغاره.

ـ هل سبق ورأيت غابة تحترق، يا آنسة وود؟.. إن النار تنتشر ببطء مثل التسمم في جميع الاتجاهات.

فسألته الآنسة وود:

ـ هل رأيت ذلك، يا دكتور؟... إنني أشعر بخوف شديد.

ـ قبل عدة سنوات رأيت مدناً تحترق.

ونظر الدكتور نحو السماء، وهو يستلقي فوق العشب.

ـ كانت المنازل، واحداً بعد الآخر، تتساقط مثل مجموعة من ورق اللعب. إن المرء، لسوء الحظ، لا يرى مثل هذه المشاهد الرائعة إلا في مناسبات نادرة فقط.

ـ أين رأيت هذا، يا دكتور؟...

ـ في الحرب، رأيت مدينتي، رانغون، وهي تحترق.

سبب ذلك رعشة للآنسة وود، لكن فضولها لم يضعف.

ـ منزلك. هل احترق ذلك أيضاً؟..

ظل الدكتور صامتاً لفترة. ثم قال:

ـ لقد غادرنا... وسافرنا بعيداً. لا أعرف ماذا حدث بعد ذلك.

كان الحديث في شؤون الطبيب الشخصية صعباً جداً.

ـ ألا تفكر أبداً في العودة إلى رانغون، يا دكتور؟...

تثاءب الدكتور ثم استدار على جنبه، واستلقى ووجهه إلى الأسفل. كانت عيناه مطبقتين وقد تساقطت خصلات من الشعر عبر جبينه.

ـ مافائدة التفكير، يا آنسة وود؟ عندما كنت أعيش في بورما، هل تخيلت بأي حال بأنني سأمضي بقية حياتي هنا؟..

ـ ولكن، يا دكتور، قل ما تشاء، إلا أن المرء لا يشعر بسلام في أ ي مكان غير موطنه. إنك قد تعيش هنا طوال أي عدد من السنين ومع ذلك ستظل تشعر أنك غريب.

نفخ الدكتور دخان السيغار ببطء في الهواء.

. لذلك السبب، حتى هناك يمكن اعتباري غريباً، يا آنسة وود. بعد هذه السنين الطويلة من سيعرفني الآن؟ كما أن بدء حياة جديدة في عمري هذا سيكون صعباً. لن أكون قادراً على ذلك.

. ولكن يا دكتور، إلى متى يمكنك أن تعيش في بلدة التلال هذه؟ إذا كان عليك أن تعيش في هذه البلاد فلابد من أن توسس عملاً في مدينة كبيرة.

ـ أين يمكنني أن أذهب لتوسيع عملي؟.. يا آنسة وود، يمكن للمرء أن يجد مرضى حيثما كان يقيم. لقد جئت إلى هنا لأمضي بضعة أيام فقط، وبعد ذلك بقيت إلى الأبد. حينما أشعر بالملل سأنتقل. إذا لم يضع المرء جذوراً في أي مكان، فإنه لن يخلف شيئاً وراءه. إنني لا أحمل أوهاماً تتعلق بنفسي، يا آنسة وود، إنني سعيد.

لم تعر الآنسة وود انتباهاً كبيراً لما قاله الدكتور مخرجي. كانت تعتبره، في داخلها، مخلوقاً عنيداً ومهملاً وغريب الأطوار. لكنها كانت تؤمن بشخصيته . لم تكن تعرف لماذا، لأنها لم تستطع أن تتذكر أن الدكتور، بشكل متعمد أو غير متعمد، قد أعطى في أي وقت دليلاً على هذا.

تنهدت الآنسة وود بعمق. كانت تفكر دائماً أن الدكتور لو لم يكن كسولاً جداً وغير مبال لكان بالتأكيد قد ترك أثراً مميزاً في مهنته. لهذا السبب كانت تشعر بالغضب منه وتشعر في الوقت نفسه بالأسى عليه.

أخرجت كرة صوف وإبراً للحياكة من حقيبتها ثم فتحت علبة قهوة مسطحة ملفوفة بصحيفة تحتوي على شطائر البيض والهمبرغر الموضوعة بشكل مضغوط. وبعدما صبت القهوة من ترمس، قالت:

. لقد بردت القهوة تماماً، يا دكتور.

تمتم الدكتور، وهو لا يزال مستلقياً. وانحنت الآنسة وود لتنظر. كان رأسه مستنداً إلى مرفقه وقد استغرق في النوم كانت شفته العليا قد امتدت قليلاً وانقلبت، وكأنه يدخن السيغار. وكان سيغاره مضغوطاً بين أصابعه، وقد تدلى رأساً على

عقب.

راحت طالبات الصف الثاني النموذجي ينشدن:

. ماري، ماري، ماذا تريدين؟..

رفعت ماري عينيها المتقدتين اليقظتين حالما كانت حلقة الفتيات تتقدم وتتراجع مع الإيقاع.

. أريد . أريد شيئاً أزرق!

أرجحت ماري ذراعيها في الهواء وصاحت. وتحطمت الحلقة مثل الماء. وركضت الفتيات بسرعة، وتعثرن ووقعن فوق بعضهن بعضاً، ليلمسن شيئاً بلون أزرق.

كان الغداء قد انتهى. وانتشرت الفتيات في مجموعات صغيرة على امتداد المروج. كانت فتيات الصف العالي قد تسلقن بعض الأشجار ورحن يكسرن الأغصان لإشعال نار وغلي الماء من أجل الشاي.

في ساعة الأصيل تلك بدت المروج وكأنها تغفو بكسل. إذا انطلقت هبة ريح تائهة، كانت أشجار الصنوبر تصدر صوت حفيف. وأحياناً كان طير، ليتغلب على كسله، يطير هابطاً من إحدى الأشجار ويستقر على ضفة القناة ويمد رأسه في الماء، ثم يرفعه ويديره بلا هدف، وبعد ذلك يختبئ ثانية بين الأغصان.

لكن صمت الغابة لا يكون أبداً بلا صوت. فهنالك العديد من الأصوات، مثل أحلام النوم العميق، تظل تخدش ستارة السكون الرقيقة الناعمة، وترفرف في الهواء مثل موجات صامتة، وكأن شخصاً يسير على أطراف أصابع قدميه وينظر داخلاً، ثم يذهب، ويقوم بإشارة خفية . انظروا، أنا هنا.

قالت لاتيكا، وهي تعبث بشعر جولي القصير:

. لقد ناديتك ليلة أمس.

. ذهبت يا سيدتي إلى غرفتك، لكنك لم تكوني هناك.

تذكرت لاتيكا أنها ليلة أمس جلست لفترة طويلة على شرفة الطبيب عندما كان هيوبرت يعزف مقطوعة شوبان الهادئة على البيانو.

. جولي، لقدأردت أن أسألك شيئاً ما.

شعرت أنها كانت تحاول حماية نفسها من عيني جولي.

رفعت جولي وجهها وبدت اللهفة والفضول في عينيها البنيتين.

. هل تعرفين أي شخص في نادي الضباط؟

. جولي، إنني متأكدة من أنك لن تكذبي.

. كان الفضول في عيني جولي قد تغير الآن إلى خوف.

أخرجت لاتيكا ظرفاً أزرق من جيب سترتها، رمته في حضن جولي.

. لمن هذه الرسالة؟

مدت جولي يدها لتلتقط الظرف، لكن يدها ارتجفت للحظة، وظلت معلقة في الهواء.

كان الظرف يحمل اسمها وعنوانها في الفندق.

. شكراً لك، يا سيدتي. إنها رسالة من أخي. إنه يقيم في جانسي.

ثم أخفت جولي المتوترة الظرف بين ثنايا تنورتها.

. جولي، أريني الرسالة.

كان صوت لاتيكا قاسياً وثاقباً.

سلمت جولي الرسالة بضعف إلى لاتيكا.

. هل يقيم أخوك في جانسي؟..

لم تجب جولي في هذه المرة. وظلت عيناها المرتبكتان تحدقان نحو لاتيكا.

. ما هذا؟..

. اختفى اللون من وجه جولي. كان ختم مركز كتيبة كوماون يحدق في وجهها.

s

وسألت لاتيكا:

. من هو؟..

كانت بعض الإشاعات الغامضة قد وصلت إليها بأن جولي قد شوهدت مع ضابط من الجيش في النادي. لكن مثل هذه الإشاعات كانت عادية ولم تصدقها.

. جولي، أنت صغيرة جداً على هذا كله.

ارتعشت شفتا جولي. كانت نظرة توسل تملأ عينيها.

. يمكنك أن تذهبي. سأتحدث معك حين أعود من عطلتي.

نظرت جولي نحو الظرف بعينين متلهفتين. كانت توشك أن تقول شيئاً ما، لكنها خرجت بصمت.

ظلت لاتيكا تنظر نحو جولي لفترة طويلة، حتى اختفت عن بصرها. هل أنا بأي شكل أفضل من عانس عجوز؟.. لماذا أنفس عن خيبة أملي بالآخرين؟...

ربما . من كان يعرف . ربما كانت هذه أول مرة تخوض فيها جولي مثل هذه التجربة التي تكون فيها الفتيات حذرات ويبقينها قريبة من قلوبهن. إنها بهجة يتعذر وصفها تحمل الألم، ومد مرتفع يغرق البهجة ويسبب الأذى.

تحت أشجار الصنوبر هذا نفسها أحست بالألم ذاته عندما سألها غيريش:

. لماذا أنت هادئة؟..

بعينين مطبقتين، كانت تفكر بذلك . تفكر بذلك؟.. لا، بل بالحياة . تلك اللحظة التي كانت مضغوطة بين الخوف والمفاجأة . لحظة سحرية مجنونة. لو استدارت الآن، لرأت ابتسامة غيريش العصبية، والماضي منذ ذلك اليوم حتى عصر هذا اليوم سوف يتحطم مثل حلم شيء. تلك كانت شجرة الصنوبر التي حفرت عليها اسم غيريش بدبوس شعر. كان الدبوس يتثلم مرة بعد مرة، ولحاء الشجرة لا يتقشر، وبعد ذلك حفر غيريش اسمها تحت اسمه. وحين يبدو أحد الأحرف ملتوياً، كانت تضحك، وتأخذ يد غيريش التي ترتعش بالارتعاد أكثر.

تشعر لاتيكا أن ما تتذكره تريد نسيانه أيضاً، ولكن عندما تبدأ بالنسيان حقاً، تشعر بالخوف خشية أن يُنتزع منها شيء ملكها، شيء تفقده إلى الأبد.

في طفولتها، عندما كانت تفقد لعبة، كانت تمضي بهدوء تام وتحاول أن تتذكر أين وضعتها بالضبط. وعندما تجدها بعد الكثير من التفتيش، كانت تدعي أنها لا تزال تفتش ولم تجدها بعد. وبعد أن تتجاوز المكان الذي توجد فيه اللعبة، كانت تبحث عنها في جميع أركان الغرفة وزواياها الأخرى. كان الشيء المفقود لم يعد مفقوداً بعد، لذلك لم يعد ثمة خوف من نسيان مكان وجوده.

واليوم لماذا لم تستطع أن تلعب لعبة التظاهر الخاصة بأيام الطفولة؟... التظاهر . ربما هي تتظاهر فعلاً، التظاهر بتذكره بعدما أصبح خارج نطاق الذكرى.

إن الأيام والأشهر تمر، وهي تظل واقعة في الشرك، دون أن تدرك ذلك. ويتلاشى وجه غيريش. وتحاول أن تتذكر، لكن الأمر أشبه بمسح الغبار عن زجاج صورة قديمة. والألم الآن ليس كما كان من قبل، وهي تتذكر فحسب، بطريقة عملية، شيئاً كان من عادته أن يوجد. ثم تكره نفسها، إنها تخدش عن عمد الجرح الذي التأم من تلقاء نفسه، رغم مقاومتها.

كانت الأسماء التي بهتت على شجرة الصنوبر تحدق نحو لاتيكا بتعبير عاجز صامت. وفي السكون الثقيل للمروج، كانت أصوات لعب الفتيات على الجانب الآخر من الجدول، تصل مكررة: "ماذا تريدين؟... ماذا تريدين؟".

الفراشات، حشرات سراج ليل، الصراصير، حشرات زيز الحصاد . مع ظلال المساء الذي يحل كان من الصعب معرفة صوت أحدها من الآخر. كانت الأصوات التي يمكن تمييزها بشكل منفرد بعد الظهر قد تمازجت في صوت رتيب لا يمكن التعرف إليه. بعدما مسح قدميه على العشب، كان أحد ما يتسلل مقترباً. ومن بين الأشجار والشجيرات الكثيفة، كان أحد يقفز طائراً، وهو يرفرف بجناحيه . لكنها تنظر عالياً، ولا ترى شيئاً. كان صوت تدفق جدول المروج . مثل قطار يعبر نفقاً مظلماً بسرعة، وصيحات الصافرات والعجلات وهي تتباطأ طويلاً كما تفعل الأصداء....

كان من الممكن أن تستمر النزهة لفترة أطول. لكن طبقات الغيوم كانت تتراكم فوق بعضها بعضاً بكثافة وسرعة. بدأت أدوات النزهة تتجمع. والفتيات اللواتي تفرقن في أركان المروج تجمعن الآن حول الآنسة وود، وأحضرن معهن بعض النثريات المختلفة. كانت بعض الفتيات قد أقحمن ريش الطيور في شعرهن، وبعضهن قد صنعن عصياً من أغصان الشجر بسكاكين الجيب، وبعض فتيات الصفوف الأعلى قد اصطدن بمناديلهن أسماكاً صغيرة من الساقية، ورحن يعرضنها سراً لبعضهن بعضاً، وهنّ يتجنبن عيني الآنسة وود.

مشت الآنسة وود في مقدمة مجموعات الفتيات. كانت المسافة من المروج إلى الطريق المعبّد تبلغ نحو ألف متر من التسلّق. بدأت لاتيكا تلهث. وكان الدكتور مخرجي خلف الجميع. توقف بجانب لاتيكا. ثم ركع على ركبتيه كلتيهما، وانحنى لها، وقال بلغة إنكليزية إليزابيثية مجاملة:

. سيدتي، لماذا تبدين قلقة جداً؟

تسبب التعبير المسرحي للدكتور مخرجي بظهور ابتسامة هزيلة على وجه

لاتيكا.

. إنني أموت من العطش، وهذا التسلق لا ينتهي.

أنزل الدكتور ترمسه عن كتفه، وقدّمه إلى لاتيكا، وقال:

. لا يزال يوجد بعض القهوة فيه. قد يساعدك قليلاً.

. أين كنت طوال هذا الوقت، يا دكتور؟ إنني لم أرك في النزهة.

. لقد نمت طوال فترة بعد الظهر . مع الآنسة وود. أعني أن الآنسة وود كانت تجلس بجانبي. أعتقد أن الآنسة وود تهيم بي.

كان من عادة الدكتور مخرجي قبل إلقاء نكتة أن يمضغ أحد طرفي شاربه.

رشفت لاتيكا القهوة من الترمس وقالت:

. وماذا تقول هي؟

. ربما قالت شيئاً ما، لكنني لسوء الحظ استغرقت في النوم. إن العديد من مثل هذه اللحظات العاطفية الجميلة في حياتي لم تكتمل بسبب نومي التعس هذا.

ومع استمرارهما في السير، وهما يتحدثان على هذا الشكل، كانت صفوف أشجار الصنوبر والخيزران، وهي تتسلق المروج وطريق السيارات، قد بدأت تغرق في غسق المساء، وكأنها حنت رؤوسها بهدوء للصلاة. وفي مكان ما فوق هذه الأشجار انتصب صليب الكنيسة في صورة ظلية أمام الغيوم. وإلى أسفله، على امتداد المصاطب الجبلية، بدت الحقول مثل سناجب راكضة وقد توقفت فجأة عن الحركة في حالة ترقّب لشخص ما.

. إن السيد هيوبرت لم يأت إلى النزهة، يا دكتور؟

كان الدكتور مخرجي يمسك مصباحاً كاشفاً وهو يسير أمام لاتيكا.

. أنا نصحته بعدم المجيء.

. لماذا؟

في الظلام ومع صوت انسحاق أوراق شجر الصنوبر كان من الصعب السماع بوضوح. وسعل الدكتور مخرجي قليلاً.

. طوال الأيام القليلة الماضية كنت أتوقع ألا يكون ألم هيوبرت في صدره ألماً عادياً.

ضحك الدكتور قليلاً، وكأنه لم يستمتع بجدية لهجته. ثم انتظر، ربما تقول لاتيكا شيئاً. لكن لاتيكا تابعت السير بصمت خلفه.

ـ إنه مجرّد شك. قد أكون مخطئاً تماماً. لكنه من الأفضل أن يأخذ صورة بالأشعة لإحدى رئتيه. فهي ستضع حداً على الأقل لجميع الشكوك.

. هل تحدثت مع السيد هيوبرت حول هذا؟

ـ ليس بعد. إن هيوبرت يقلق حتى من الأمور التافهة، لذلك لم تكن لدي الشجاعة لإخباره.

شعر الدكتور أن صوت خطوات لاتيكا وراءه قد توقف فجأة: استدار إلى الخف ورأى، في الظلام، لاتيكا وهي تقف مثل الظل في منتصف الطريق.

. دكتور...

بدا صوت لاتيكا مشوشاً.

. ما الأمر، يا آنسة لاتيكا؟ لماذا توقفت؟

. دكتور، هل السيد هيوبرت...

أشعل الدكتور ضوءه في وجه لاتيكا، كان قد شحب وكانت هي ترتجف.

. آنسة لاتيكا، ما الأمر؟ إنك تبدين في حالة سيئة.

. لاشيء يا دكتور. لقد... لقد... تذكرت فجأة شيئاً ما.

تابعا سيرهما. وبعد السير قليلاً رفعا أعينهما إلى السماء. في السماء الممتلئة بالسحب كان سرب من الطيور يحلق باتجاههما في تشكيل مثلث من وراء سلسلة الجبال. أخذت لاتيكا والدكتور يراقبان الطيور. وتذكرت لاتيكا أن هذه الطيور، في كل سنة، قبل عطلة الشتاء مباشرة، كانت تطير باتجاه السهول، وتقوم باستراحة قصيرة لبضعة أيام من محطات التل هذه، بانتظار الثلج، ثم تطير متجهة نحو أراض مجهولة غريبة...

هل كانوا ينتظرون شيئاً أيضاً . هي، ومخرجي، والسيد هيوبرت؟ ولكن بانتظار أي وجهة؟ إلى أين سيذهبون؟

لم يصلها أي رد في الظلام، ما عدا الصوت المتكرر لساقية المروج، وصوت حفيف أوراق أشجار الصنوبر. لم يكن ثمة شيء آخر يمكن سماعه.

أجفلت لاتيكا ونظرت حولها. كان الدكتور يتكئ على عكازه ويصفر بنعومة.

. آنسة لاتيكا، دعينا نسرع. إنها توشك أن تمطر.

حالما وصلوا إلى الفندق كان البرق يومض. ولكن في تلك الليلة لم تمطر لوقت طويل. كان وابل المطر لا يبدأ تقريباً، عندما تقوم هبات الريح بدفع الغيوم بعيداً. وفي اليوم التالي كان من الضروري اللحاق بالحافلة في وقت مبكر صباحاً، لذلك ذهبت الفتيات إلى غرفهن للنوم بعد العشاء مباشرة.

عندما دخلت لاتيكا غرفتها علا صوت بوق مركز كتيبة كوماون. كان كريم الدين يضخ الغاز في مصباحها، وهو يدمدم بمقطع من أغاني التل. استلقت لاتيكا دون أن تبدّل ثيابها، وطوت وسادتها تحت رأسها. ألقى كريم الدين عليها نظرة سريعة ثم استأنف عمله.

. كيف كانت النزهة، يا سيدتي؟

. لماذا لم تأت؟ كانت الفتيات يسألن عنك.

شعرت لاتيكا أن تعب اليوم بكامله كان متشبثاً بأنسجتها. وبشكل تلقائي أغلقت عينيها تحت ثقل النعاس.

ـ لو أنني أتيت من كان سيعتني بالسيد هيوبرت؟ لقد جلست طوال اليوم ملتصقاً بسريره. والآن لقد اختفى.

رفع كريم الدين منشفته المتّسخة عن كتفه وبدأ يلمع زجاجة المصباح.

وفجأة انفتحت عينا لاتيكا نصف المغلقتين.

. هل السيد هيوبرت خارج غرفته؟

. الله يعلم أين يتجول وهو في حالته الصحية هذه. لقد خرجت لأسخن بعض الماء وعندما رجعت كانت الغرفة فارغة.

خرج كريم الدين وهو يدمدم. وبدون أن تنهض لاتيكا خلعت خُفَيها عن قدميها وألقت بهما تحت السرير.

أين ذهب هيوبرت في هذه الساعة من الليل؟ لكن عينيها أطبقتا. لقد وضع إعياء اليوم حداً لكل قلق وتساؤل، وكأنها، بعد اللعب طوال يوم كامل بلعبة "الغميّضة"، قد لمست "الهدف" في غرفتها. كانت آمنة الآن. وبين جدران غرفتها الأربعة لم يكن أحد قادراً على الإمساك بها. كانت تحت ضوء النهار الساطع

شاهدة، وكانت متّهمة، وكان كل شيء في صراع معها، بينما الآن، في عزلتها هذه، لم يعد ثمة تذمر، ولا شكوى، ولا تبادل للتهم، وانتهى الصراع كله. وما كان ملكها أصبح الآن ملكها أكثر، ملكها بشكل لا يمكن الشك في صحته؛ وهو لا يعطي أي مبرر للألم، بل يتطلب وقتاً لتأكيد ملكيته.

أدارت لاتيكا وجهها نحو الجدار. كانت ظلال الستائر المرتعشة تتمايل في الضوء الخافت للمصباح. ومع ومضات البرق، كانت ألواح زجاج النافذة تُلقي وهجاً ساطعاً جداً والأبواب تقعقع وكأن شخصاً ما يقرعها من الخارج. وعلا صوت ضحك الفتيات وكلامهن المختلس وهن يعبرن الممرات نحو غرفهن . ثم هدأ كل شيء، ولكن مع ذلك، وخلال نومها المضطرب، ظلت تسمع لفترة طويلة هسيس المصباح. لم تكن واعية عندما هدأ صوت الهسيس أيضاً، بعدما أصبح جزءاً من الصمت.

بعد قليل شعرت بأصوات مكبوتة تأتي من الدرج، وصوت صراخ شخص ما على مراحل، ثم خفّ صوت الصراخ.

. آنسة لاتيكا، من فضلك أحضري مصباحك إلى هنا.

كان ذاك نداء الدكتور مخرجي من أسفل الدرج.

كان الممر مظلماً. هبطت ثلاث درجات أو أربع، وخفضت المصباح. عند السور كان يقف السيد هيوبرت، وهو يُسند رأسه عليه. كانت إحدى ذراعيه تتدلى بينما راحت الأخرى التي أمسكها الدكتور بقوة تتأرجح على كتف الطبيب.

. آنسة لاتيكا، من فضلك أنزلي المصباح أكثر قليلاً... هيوبرت... هيوبرت!

بينما كان الدكتور يسند هيوبرت، سحبه عالياً. رفع هيوبرت رأسه. وهبّت نفحة قوية من الويسكي عبرها. كانت هناك خطوط حمراء في عيني هيوبرت، وكانت ياقته مقلوبة، ورباط عنقه مرخياً ومنزلقاً. وضعت لاتيكا المصباح على الدرج بأيد مرتجفة وتراجعت نحو الجدار. كان رأسها يلف.

. في زقاق خلفي من المدينة توجد فتاة تحبني.

كان رأس هيوبرت يستند إلى كتف الدكتور مخرجي، وراح يتسلّق الدرجات المظلمة بخطوات مترنحة.

وصاح فجأة بصوت عال جداً بحيث ظل صوته المهتز وهو يرتطم بسقف الممر يتردد صداه لوقت طويل في الهواء:

ـ دكتور، أين نحن؟

ـ هيوبرت...

فقد الدكتور مزاجه فجأة، ثم شعر بالضيق لأنه فقد السيطرة على نفسه، وربّت على ظهر هيوبرت.

ـ لا شيء يهم، يا هيوبرت، أيها الفتى العجوز. أنت متعب فقط.

ثبّت هيوبرت عينيه على وجه الدكتور. كان فيهما توسل طفل خائف، ينشد رداً من وجه الدكتور.

حين وصل إلى غرفته، مدّده الدكتور على سريره. وسمح هيوبرت بأن يُخلع حذاءه وجواربه دون مقاومة. وعندما بدأ الدكتور بخلع ربطة عنقه، نهض هيوبرت على مرفقيه، ظل يحدّق في الدكتور لفترة من الوقت. ثم أمسكه من يده، وسأله:

ـ دكتور، هل سأموت؟

ـ ما هذا الكلام، يا هيوبرت؟

حرر الدكتور يده، ووضع رأس هيوبرت على الوسادة.

ـ ليلة سعيدة، يا هيوبرت!

وقالت لاتيكا بصوت مهزوز:

ـ ليلة سعيدة، يا سيد هيوبرت!

لكن هيوبرت لم يرد. فقد استغرق في النوم فوراً عندما انقلب على جنبه.

بعد عودة الدكتور مخرجي إلى الممر توقف عند السور. وفي الخارج، كلما كانت طبقات الغيوم تخف تحت تأثير هبّات قوية من الريح، كان ضوء القمر، مثل الدخان المنبعث من نار محتضرة، ينتشر فوق التلال.

ـ أين وجدت السيد هيوبرت؟

اتكأت لاتيكا على الطرف الآخر من السور.

ـ في حانة النادي. لو أنني لم أحضر، لكان سيظل جالساً هناك لفترة لا أعرف مداها.

أشعل الدكتور مخرجي لفافة. كان عليه زيارة مريضين بعد. وقف هناك، وهو يناقش إن كان عليه إلغاء الزيارتين. وكان كريم الدين جالساً في مقرّه عند الطابق

السفلي، وهو يعزف لحن فِلْمٍ قديم على أرغنه الفموي.

. لقد ظلّت السماء مكفهرة طوال الليل، لكنها لم تمطر أكثر من بعض الرذاذ.

. ربما سيستمر الجو على هذا الشكل حتى عيد الميلاد.

وقفا صامتين بعض الوقت. كانت أصوات الجداجد، الآتية من المرج الممتد أمام المدرسة، تجعل الصمت السائد أكثر كثافة بعد. وأحياناً كان الأنين الخافت لكلب يأتي من طريق السيارات في الأعلى.

. هل تحدثت مع السيد هيوبرت عني ليلة أمس، يا دكتور؟

. لا شيء بشكل خاص... ما يعرفه الناس فحسب. الشيء الذي كان هيوبرت يجب أن يعرفه أيضاً لكنه لم يفعل.

نظر الدكتور إلى لاتيكا. كانت لا تزال تتكئ على السور.

وابتسم الدكتور مخرجي في الظلام قائلاً:

ـ كل منا لديه بعض الأمور الغريبة. بعض الناس يقوم بتسويتها، وآخرون يحافظون عليها حتى النهاية.

كانت ابتسامة الدكتور مخرجي تحمل لمسة من اللامبالاة.

. أعتقد أحياناً، يا آنسة لاتيكا، أنه إذا كان من الخطأ أن أكون غافلاً عن شيء ما فمن الخطأ ألا أنساه، وأن أظل متمسكاً به مثل العلقة. عندما ماتت زوجتي على الطريق من بورما ظننت أن حياتي أصبحت عديمة الجدوى. لكنني، كما ترين لا أزال حياً، وآمل أن أعيش لفترة طويلة جداً بعد. إن الحياة مثيرة جداً للاهتمام. ولولا عمري الذي أنا فيه ربما كنت قد تزوجت ثانية. ورغم هذا، من يستطيع القول إنني لم أحب زوجتي؟ إنني أحبها حتى اليوم...

. ولكن يا دكتور...

اصبح صوت لاتيكا متوتراً.

. نعم، يا آنسة لاتيكا؟

. ليكن الأمر كما هو، يا دكتور، ما الذي يبقينا في حالة استمرار؟ حتى حين نتوقف فإننا نتقدم بقوة الاندفاع.

شعرت لاتيكا بأنها لم تكن قادرة على قول ما أرادت قوله، وكأن شيئاً ما قد

ضاع في الظلام، ولم يكن بالإمكان العثور عليه، وربما لن يتم العثور عليه أبداً.

. إن الأب إلموند فقط يمكنه أن يخبرك عن ذلك، يا آنسة لاتيكا.

كانت خصائصه كلها، التي تقترب من الاستخفاف، قد طفت على السطح في ضحكته الجوفاء.

. حسن، يجب أن أذهب، يا آنسة لاتيكا. لقد تأخرت كثيراً.

أشعل الدكتور عود ثقاب ونظر إلى ساعته.

. ليلة سعيدة، يا آنسة لاتيكا.

. ليلة سعيدة، يا دكتور...

بعد ذهاب الدكتور، وقفت لاتيكا وهي تلتصق بالسور. كان الضباب الذي تجمع في الممر يرتعش في الريح الثائرة. وكانت أكوام الدفاتر القديمة، والصحف والنفايات التي وضعتها الفتيات خارج غرفهن، وهن يحزمن أمتعتهنّ في المساء السابق، قد تبعثرت الآن بسبب الريح القوية نحو أسفل الممرات.

رفعت لاتيكا مصباحها ومشت نحو غرفتها. وبينما كانت تسير في الممر رأت شعاع ضوء رفيعاً يأتي عبر شق في باب جولي. حبست أنفاسها، وبعد فترة، دقّت الباب. لم يأت أي صوت من الداخل. دفعت لاتيكا الباب بلطف وفتحته. كانت جولي قد نسيت إطفاء مصباحها. أخرجت لاتيكا الظرف الأزرق من جيبها ودفعته بلطف تحت وسادة جولي.

□□□

لتكن مشيئتك

تأليف: ر.س. سودار شنام

■ ترجمة : عبد الكريم ناصيف■

الرذاذ يهطل، واجب، وليس باستطاعة المرء التهرب من الواجب، "شيماشا! لا تتبلل ستصاب بالزكام". كانت أمي تحذرني عادة، وكنت دائماً لا أبالي بكلامها. زوارق من ورق، تبلل بالمطر تأخذ برداً ومن ثم الحمى. مع ذلك الوالدة لم تغضب قط. ولا اشتكت إلى الوالد. إذن لكان سلخ جلدي وأنا حي، لو فعلت ذلك.

هذه المظلة تقطر مطراً. كان على غاروديا أن يأخذ الأمر بالحسبان، فكرت في سري أن ينتظرني عند الباب، لكن أين الغلام؟ الأبواب مشرعة، غرفة القراءة خاوية، وهو يختفي في مكان ما بين رفوف الكتب، أو في مهمة بعثه بها أحمق ما.

هوه.. هـ...هـ.. ليس بوسعي أن أمنع هذا الارتعاش. "شيماشا! البس صدارك يا بني!!" هي الوالدة مرة ثانية، كم من الزمن يا ترى مر على ذلك، دون أن أتذكرها أبداً طوال تلك السنين؟ لكن الآن، لماذا الآن؟ لا خوف الآن من الإصابة بالزكام أو الحمى. فعندما يكون هناك من يهتم بك ويقلق عليك، تحل بك أنواع الاعتلالات كلها. الآن، حتى الاعتلالات تدعك وشأنك، فحين يتخطى المرء عتبة الشيخوخة...

شيخوخة؟ طبعاً. لا لحم، اللحم تحلل، ولم يبق سوى العظام. تذكرني بهذا كل يوم الكراسي المصنوعة من خشب الساج. ثماني سنوات مرت على التقاعد. ثماني سنوات زائد خمس وخمسين تساوي ثلاثاً وستين لا تنقص يوماً واحداً.

أنا رجل عجوز متقاعد، "شاشتيبورتي" ستيني. فقط لم يجر احتفال بالحدث.

أنا لم أرغب قط في العودة إلى مسقط رأسي ومرتع طفولتي. كنت أحلم بشيء

آخر لكن "سيد التلال السبعة" أراد شيئاً آخر. مشيئته هي التي جعلتني مساعد أمين مكتبة في هذه الكلية، ولو أنه تعين علي أن أتوسل وأستجدي لكسب ثقة الديفاشنانام (عميد الجامعة) من أجل الوظيفة كي أبقى على قيد الحياة. أنا لا أشكو. مرة ثانية تلك مشيئته، طريقة الإتيان بي إلى هنا، أيها الإله لتكن مشيئتك!

لا، لم تعد هذه وسيلة عيش، هذا مكاني الذي أمر هو به، هو الذي يقود خطاي على درب الشريعة والدين. على المرء أن يمضي بواجبه. عليه أن يؤديه بمفرده، لقد وفر علي أسوأ إذلال، ألا وهو الذهاب إلى بومباي، إلى ذلك الابن الذي لم يعد ابناً لي. ذلك الاحتمال لن يحدث! ابني مات قبل خمس عشرة سنة. هذا ما قلته له، وهذا ما أعلنته على العالم.

لقد خسر شريعته، طبقته، دينه، والديه... طرف من أطرافي مريض معتل.. العملية مؤلمة، لكنها تنجح في تخليصي منه.. أمه توفيت قبل الحدث، فوفرت على نفسها المعاناة، حظها حسن، والوغد ناكر الجميل الذي هو ابنها لم يحضر جنازة أمه، لماذا يعود أصلاً إلى الهند؟ عليه أن يقضي بقية حياته، حياة الشحاذ، في الولايات كلباً صغيراً في حضن امرأة بيضاء!

"كيشو نجح في الصف الأول. كيشو مسافر إلى الولايات، أنت تعلم.. جاءه عرض من هناك براتب ثمانمئة روبية.. وصل إلى بومباي والتحق بالوظيفة.. سيكون هنا غداً، فقط تأمل.. غداً.." تلك الإعلانات الملأى بالفخار والآمال المترعة شوقاً لدى والد محب.. ما الذي حدث لها؟ هل فكر بي يوماً يا ترى؟ أو فكر بأمه؟ أو أسرته؟ لقد جعل مني مغفلاً تاماً. الشريد ناكر الجميل يصل مع امرأة بيضاء، يدعوها زوجه، ليقيم في فندق ويبدأ مفاوضات معي. شيء مقزز! ليذهب، لينقلع فلا أرى وجهه أبداً. طالما ظللت على قيد الحياة لن أكون بحاجة لرؤيته ثانية.

فينكاتيزا، أيها الإله، كن رحيماً! فقد قضيت على روابطي الأرضية كلها رابطة تلو الأخرى، وكنت دائماً أقول: "لتكن مشيئتك!"

"غارودايا!! غارودايا!!"

"سوامي!"

"أي أنت؟"

"أرتب كتب الأمس، سوامي"

"ألم تنتبه لوصولي؟"

"كلا، سوامي "

إنه يكذب

"جرائد الأمس، أين هي؟"

"لقد وضعتها في مكانها"

"هات لي جريدة الهندو"

"الهند توافق على اقتراحات كولومبو.. تسوية مشرفة.. مسحوق جونسون للأطفال"..

أطفال كيشو.. أطفال أنكلو – هنود.. فحل أرنب!! ما هي أسماؤهم يا ترى؟ توم، ديك وهاري؟ ليس هيري بل هاري. إنه بحاجة للتوكيد، التوكيد الذكوري والفردانية. إن كان ولابد أن تكون امرأة بيضاء، لماذا إذن لم يستطع إدخالها إلى حظيرة الإيمان عبر "جماعة" أو "مجتمع" ما، وهو أفضل بكثير من ذلك الاستسلام الخسيس لشخص غريب وثقافة غريبة..

"صباح الخير سيدي" أوه! ساعي البريد! لماذا لا يتركه على الطاولة؟ كل يوم يعمل على تسليمه لي باليد. كياسة منه ولا شك.. لكنها متعبة جداً! الساعي حسين طراز قديم، لكنه رجل طيب، أوه أجل، رجل طيب.

ثلاث قوائم كتب ومجلة واحدة، هل سأمزق الورقة الملفوفة بها وأفتحها؟ مزق حجاب امرأة تلبس "البردة" (الملاءة)!! توصل إلى عري المجلة الأجنبية الأنيقة!! حياة، ها... حياة!

حينذاك كنت في العاشرة فقط، وكنت أنظر من نافذة الطابق العلوي وكانت امرأة في المنزل المجاور تغير ثوبها. امرأة عارية، امرأة متفتحة، تماماً. وكانت بداية حياة.. والحياة لدى الأمريكان مراهقة لا تنتهي أبداً ..

رسائل، رسائل. لا أحد يكتب لي. مع ذلك لمسها متعة.. النظر إلى العناوين عادة لا ضير فيها، قد تكون مضيعة للوقت، لكن لا ضير، لا ضير..

إلى تشي. برابها فاي، صف أول علوم. ذلك هو والدها. يكتب بيد كاتب وثائق عجوز.

مغلف قرنفلي "إلى كوماري جناكي، صف ثاني ثانوي علمي". لماذا تأتيها أية

رسالة إلى عنوان المعهد؟ والداها هنا وهي تقيم لديهما، العنوان مرقون على الآلة الكاتبة. لعله من بائع كتب، علامة . البريد؟ أوه إنه معطر . من نيودلهي! ليس من بائع كتب تحديداً. رائحته الزكية تبعد ذلك الاحتمال.. م... م...

جناكي نفسها زهرة رقيقة، "باريجاتا". زهرة للجمال بيضاء، رقيقة، طاهرة، هي لا تقول شيئاً، حضورها تحية صامتة وبسمتها أحياناً، أوه! أميرة تأتي، بهيئة بجعة، ليس بمفردها بل بصحبة وصيفاتها.. نصف مخفية بهن، تنتظر إلى أن أسألها لتعيد بكل صمت كتاباً أو كتابين. أما العناوين التي تريد استعارتها فنادراً ما تتلفظ بها، بل تزلق إلى ورقة أدرجت قائمة بها. تانك الشفتان الرائعتان غالباً ما تحتجبان وراء كتف صديقة ولا تنطقان بحرف .. عيناها فقط تنطقان..

وهذه الرسالة المضمخة عطراً لها، لتلك الإلهة النبيلة، هي ولا شك من شاب ما مفتون. الرسالة لها، لكن هل هي نفسها لصاحب الرسالة؟

"د ن..."

التاسعة والنصف

"سوامي.. هل أخذ رسائل الطلاب إلى لوحة الرسائل؟

"أوه.. نعم"

ويسقط المغلف القرنفلي في درج الطاولة.

ببطء يصل الطلاب

وطوال الوقت، طوال الوقت، تتوهج أسرار لم يكشف عنها، من هو يا ترى؟ ماذا يبتغي؟ كيف يتجرأ؟

لحن نشاز واحد يقضي على الموسيقى، خطيئة واحدة تحيل وجوداً .كالزهرة إلى العدم. ألا يمكن إنقاذ الجمال والطهر؟ أتراها رغبة مستحيلة في هذا العالم؟

لقد قضى كيشو على حلم حياتي. شجرة خضراء يانعة اجتثت بغير رحمة من جذورها.. كمالكشي، أخت كيشو، حرقت الجذع الميت إلى أن استحال فحماً أسود.. من تراه يتوقع من فتاة حسنة التربية مثل كمالكشي أن تنهي حياتها كما فعلت؟ تشريح جثة وعار مقيم، رماد، لا شيء سوى الرماد.

"دن... دن...دن" الساعة العاشرة الجميع ذهبوا الآن، الغرفة خالية ما الذي تبقى الآن؟ الشريعة. أيها الإله، لتكن مشيئتك! التسليم والسلام سراناغاتي التسليم.

"غارودايا"

"سوامي؟"

"أبعد هذه الكتب، ممكن؟"

يدخل غارودايا مع الكتب وطوال نصف الساعة التالية أكون في أمان.

وحيد. أنا وحدي مع المغلف، أجل مغلف الشاب المتعبد الآتي من مهد أنغام الفواح بالرائحة الزكية هو بلا حول أو طول.. مكشوف بشكل يثير الشفقة، يدعوني..

أمزقه... وردة المغلف تتمزق وينفتح.. بكارة تفض. السريبين "جريس[6]" الرسالة، الورقة الزرقاء الرائعة تظهر.. أوه!

"العزيزة جاني" (إن لأشبه بأن تومئ لكلية أحدهم المدللة)

العزيزة جاني:

"كيف تتهمينني بنسيانك؟ وأنت تعلمين السبب في عدم كتابتي لك. هل تتذكرين ذلك اليوم، وتلك اللحظة قبل افتراقنا الأخير، حين همست في أذني، ونحن لصيقان واحدنا بالآخر كما كنا في تلك اللحظة فعلاً، بأن قلبينا سيظلان دائماً ينبضان نبضاً واحداً، وأن سرنا سيظل محفوظاً، وأن علي ألا أفكر بالكتابة لك حتى نلتقي ثانية؟ لقد كان أمراً، أليس كذلك؟ ثم لا يمر شهران إلا بالكاد وتصلني هذه الرسالة التي تتهمني بالنسيان؟

ما لم تخبريني بالتحديد ما الذي قاله لك ذلك القريب البعيد من أقربائي، والذي دفعك بكل وضوح لأن تكتبي لي هذه الرسالة، كيف يمكنني أن أفسر لك وأخلص ذهنك من شكوكه؟

آخر جملة في رسالتك تحيرني، لم يا ترى ظهر لديك نفور مفاجئ من الحياة، كما تقولين؟ خمسة عشر يوماً تعطينني مهلة لإجابتك، ثم لماذا تقولين: إننا لن نلتقي أبداً إن لم يصلني جوابك خلال تلك المهلة؟ غريباً جداً منذراً بالشؤم يبدو هذا كله. إنني خلال شهر فقط، سأكون معك هناك. هذا وعد لك حبي...

حبيبك رامان

---

[6] *الجريس: عشبة ذات أزهار زرقاء.*

إذن، همست في أذنه.. لصيقين معاً.. والقلبان ينبضان نبضاً واحداً.. وماذا بعد؟ الفاجرة الصغيرة! إنها القصة ذاتها ثانية وثانية.. كمالكشي .. أبداً لم تكن موضع شكي. وها هي ذي جناكي مرة ثانية، زهرتي الصغيرة، زهرة "الباريجاتا" تتحول إلى رماد ! أوه، يا إلهي!!

***

لم يكن هناك شيء، لا شيء مخزٍ فيما يتعلق بانتحار جناكي! ذلك ما قاله تقرير تشريح الجثة. إذاً أكان هو فقط انحراف مزاج؟ أمر لا يعقل.

تلك الرسالة لا تزال في درج الطاولة!

"انت تعطينني خمسة عشر يوماً مهلة لإجابتك. ثم لماذا تقولين: نحن لن نلتقي ابداً إن لم يصلني جوابك خلال تلك المهلة؟" هي لم تقل له، لم تستطع لأن، لأن الرسالة لم تصل إليها! ومن ثم قتلت نفسها، تماماً كما هددت أوه، يا إلهي!

لقد ماتت من أجل رجل في دلهي، ماتت لأنه لم يجبها، أو هكذا فكرت، الجواب، الجواب الذي كان يمكن أن ينقذها تنطرح رسالته طوال الوقت هنا، هنا في درج الطاولة، يا للمسؤولية القطيعة عن ذلك، أوه، يا إلهي!

أنا قتلتها؟

أستطيع التهرب من المسؤولية؟ لقد كانت جريمة.

لماذا فعلت ذلك؟ لم أكن أقصد. أنا أوقفت الرسالة فقط، علني أنقذها من مصير كمالكشي..

أنت قتلت كمالكشي أيضاً.

لا، لا. هي عوقبت لضلالها لارتكابها الإثم، موت جناكي مصادفة وكل من يولد مصيره الموت إن عاجلاً أم آجلاً، أنا لست مسؤولاً أكثر مما لو كان الأمر حادث سير.

لست مسؤولاً أكثر؟ نبتة نامية، عريشة عاطرة تقصها بكل قسوة وتدمرها، أنت قرأت عن الحب، لكن تلك هي المرة الأولى، التي تواجه فيها بحقيقته وقوته.

لكن الحب مجرد اسم آخر للافتقار للحدود، للانغماس في الرغبات والشهوات، أليس كذلك؟ أنا أفهم قوته، قوته المفسدة فقط تماماً بسبب كمالكشي، ومن ثم محاولتي إنقاذ جناكي..

ما يبدو لك انغماساً، ربما هو لدى جناكي وكمالكشي جوهر الحياة وروعتها. وإلا أكانت تانك الفتاتان تموتان من أجله وبملء إرادتهما؟

لقد ماتتا لأنهما كانتا خليعتين وغير مسؤولتين.

أكانت كمالكشي خليعة حقاً؟ ألم تأت إليك تطلب الإذن بالزواج ثم ألم تأبَ إعطاءها إياه؟ ألم يكن ذلك، حقاً، ما أدى بها إلى الانتحار؟

لكن الرجل الذي أرادت أن تتزوج به لم يكن براهمياً فكيف يمكنني الموافقة؟ وهل معنى ذلك انه كان عليها أن تقيم معه علاقة سرية دون خجل أو خوف من العواقب؟

حسن، ألق نظرة على ماضيك. ما الذي تظنه الحصيلة النهائية؟ في كنفك وتحت سلطتك، لم يزدهر شيء ولم يثمر. لا شيء نجا. فلماذا الأمر كذلك؟ حاول وانظر إلى الشر في داخلك. ثم اعترف بمسؤوليتك.

بالمولد، التراث، التربية، كنت دائماً أنا البراهمي الفيشنافي التقي، مكرس للشريعة، والدين ومكافح من أجل الطهر الأخلاقي، وفي آخر عمري وإخلاصي (Saranagatha) لسيدي والهي فينكاتيسا، كيف يمكنني أن أكون شريراً، كيف أصبحت شريراً؟ لا بد أنه نوع من الخوف أو الجبن، نوع من الضعف تجاه الفتاة الميتة جناكي التي تحدثني بصوت زائف هكذا وتتهمني بجرائم لم أرتكبها.. حسن، حسن، حسن، عد إلى الوراء ارجع القهقرى إلى الماضي البعيد وانظر.

والدي كان "بهاكتا". كاهناً في معبد راما.

أجل، وهو ألم يغو فيراما؟ بائعة الحليب؟

مجرد إشاعة كانت تلك، فضيحة لا أساس لها من الصحة، أليس كذلك؟ وماذا عنك أنت، ابنه، يا من كنت وأنت صبي، تتوق توقاً شديداً لابنة فيراما الصغيرة، مالي؟

ما كان ذلك بالجنس، أليس كذلك؟ كنت في السابعة من عمري فقط، وكانت الفتاة في الثامنة أو التاسعة وكانت عادة تأتي بأزهار "الباريجاتا" من أجل عبادة الوالد..

أجل، ومن ثم اعتدت أن تتعلق بثوبها، راغباً في تقبيلها لكن دون أن تملك الجرأة الكافية للقيام بذلك.

أحياناً كنا عادة نلعب مثل الأطفال الآخرين، وكل لعب في ذلك العمر هو بريء. كم كنت أحب أن أعمل رئيساً لها.. فهي من طبقة دنيا كما كانت مجرد فتاة ، هكذا كنت أشاكس.

لم تمض أبعد من ذلك، لأنك كنت تخشى غضب والدك. وهو لم يكن يحب أن يراك تلعب معها، أتخمن السبب؟

لا، لا، ليس هكذا، بل حتى لو كان صحيحاً، لست مسؤولاً عن والدي. إنني طوال عمري كنت أخشى الانحراف عن الصراط المستقيم.

وليس لدي اعتذار، ليكن الإله حاكمي، فلماذا أقيم هذا الجدل مع نفسي؟ ممارسة لا جدوى منها، لتكن مشيئته هي السائدة!

"غارودايا، دعنا نصعد التل ونزر الإله".

"هل آتي ببطاقات الحافلة، سوامي"

"ليس في الحافلة، بل سيراً على الأقدام"

"صعب جداً، سوامي، وأنت في عمرك"

"لا علاقة للعمر بقوة الروح، غارودايا"

"لكنه الجسد الذي سيتحمل العبء"

"ترى هل الروح أعظم أم الجسد"

"ليس لي معرفة بهذه الأشياء، سوامي"

"هل سترافقني أم لا؟"

"هذه الأيام، الحافلة هي الشيء المطلوب، سوامي، أنا أفضل الحافلة، لكنني بالتأكيد سأذهب معك، وسيكون بإمكاننا أن نستريح في الطريق. دعنا ننطلق مساءً."

"إذن، هي السبب لا تنسَ".

مقعدون . مصابون بالجذام... عميان.. أيتام.. عائلات امتهنت الشحاذة.. الكل على الدرج المؤدي إلى الإله.

درج.. درج.. درج..

أوه، أي جهد!

أعلى أسفل.. حجارة.. صخور.. شجيرات.. أشجار.. وهناك السماء.. السماء

والغيوم..

ويخيم الظلام.

"غارودايا، كم الساعة؟"

وكانت لديه ساعة، ميناؤها من الراديوم

"الثامنة والربع، سوامي نحن على وشك أن نصل"

الرذاذ يهطل..

هذا الرذاذ سيقضي علي. أوه، كم هو بارد! التربة زلقة.. الأقدام تثبت عليها بصعوبة.. أي خور! غارودايا لم يصعد التلة: لا بد أنه غارق في سبات عميق في مكان ما. علي أن أقوم بزيارتي بمفردي. أذهب وأرى الإله كيف تراه ما من أحد يساعدني في هذه الساعة!! مجرد مساعدة ضئيلة ستف....

لم تطلب المساعدة من الآخرين؟

يجب أن تكون مساعدته هو، رحمته هو، فإن كانت، كان كل شيء.. وإن لم تكن.. لم يكن هناك شيء..

أوه، أوه، يا إلهي!

•••

أين، أين أنا؟ ما هذا السرير؟ أين المعبد؟ أين الإله ربي؟ أوه، لقد وقعت.. سقطت أرضاً...

رجلي اليمنى مكسورة. ربما أنا لم أدخل. لم أستطع الدخول إلى الإله ربي..

"رجاء اشرب هذا الحليب"

من هي؟ رقيقة للغاية!

"من أنت، أماه؟ هل أنت الطبيبة هنا؟"

"طبيبة، نعم، لكن ليس في هذا المشفى".

"من أين أنت؟"

"من بومباي. وجدناك قرب المعبد، فاقداً وعيك، رجلك اليمنى كسرت كسراً خفيفاً، جلبناك في سيارتي .. لماذا تبكي يا سيدي؟ أهو مؤلم كثيراً؟"

"تلت دارشام (بركة) الإله؟"

"كلا.. لقد كنا على وشك الدخول، حينذاك وجدناك فكيف يمكننا أن ندخل؟ لقد عدنا بك إلى هنا، إلى المستشفى؟"

"في بومباي، حدث أن دهست سيارة قاضياً في المحكمة العليا، لكن دون أن يهتم به أحداً".

"هل تتوقع أن يكون كل واحد من بومباي عديم الشعور بالمسؤولية أليس كذلك؟"

هي تضحك ضحكة طاهرة، ضحكة حقيقية. امرأة طيبة.

"ما اسمك، أماه؟"

"بريما، بريما نانشاري"

"نانشاري؟"

"الإله بلاجي هو إله عائلتي"

"نانشاري. إنه اسم أمي أيضاً أأنت براهمية؟"

"كلا"

"من أي طبقة؟"

وتبتسم مترددة:

"هاريجان"

فحل الأرنب! "سرياهباشي" (طريق الحق والخير) وأنا ما زلت حياً: أهذا عقابي؟

"أنت ضعيف، استرح قليلاً أرجوك"

....

"أبَا... أبَا"

"م.... م.. م.."

"أبَا، أنا كيشو، هل تسمعني؟"

"من؟ كيشو؟ كيف أتيت يا بني؟"

"راما نوجاشاري هتف لي"

"لماذا؟"

"بسبب حادثك"

"كيشو.. أجل... كيشو أنا انتهيت".

"لماذا أيها الوالد؟ هل هو يؤلمك؟ أنت ستكون على ما يرام.. وحالما تسترد بعض قوتك، سنذهب إلى بومباي.

"لا، لا، هذا الجسد لا نفع منه بعد الآن، الإله رغب إلي أن أصعد التل وأراه، حسن، أنا أخفقت، كيشو، يا بني، أرجوك، أشعل النار في هذا الجسد الذي لا نفع منه وأحرقه. أفعل ذلك، تلك شريعتك ولسوف تقوم بما تملي عليك شريعتك"

ترجمت بالأصل عن **التيلوغو**



كوخ الياسمين

تأليف: سوراب كومار شاليها

■ ترجمة : د.نايف الياسين ■

يبدو غريباً حقاً - ذلك البيت ذو النمط الأساسي، الذي رمي وسط تلك المباني البيتونية المرتفعة. بدا خجولاً، إذا جاز التعبير، بأبوابه ونوافذه المغلقة. غير جميل من حيث المظهر، مشلول، ويشكل نشازاً عن كل ما حوله. يبدو أنه بقي في مكانه لم يتزحزح على عكس المباني المتفرعة القريبة منه، التي تحاول يائسة أن تمتد في كل الاتجاهات بقضبانها الحديدية الناتئة - المنحنية أو المستقيمة، وأفاريزها، وأدراجها، وأنابيب الصرف المعلقة على جدرانها، وشرفاتها البارزة فوق حافة الشارع. ويبدو غير منطقي أيضا. ومن غير المنطقي فعلاً هذه الأيام الإبقاء على مساحة خضراء فارغة أمام المنزل، وراء البوابة الخشبية القديمة. لم يعد من الموضة الاحتفاظ بفسحة خضراء أمام المنزل. كما أن الإطار الخشبي للبوابة يتهالك بعد أن أكله سوس الخشب. مزلاج البوابة الحديدي صدئ، ولا يتحمل ضربة قوية. كما أن الفسحة الفارغة ليست بالفعل خضراء - إنها بنّية محمرة أكثر منها خضراء، وتغطيها قطع الورق ونفايات أخرى. هناك كومة زبالة في زاوية، وعربة مكسورة، ودراجة وأجزاء من صناديق خشبية قديمة. الأبواب والشبابيك أيضاً أكلها النمل؟ الثقوب والصدوع، صغيرة وكبيرة، بادية للعيان في كل مكان، والملاط يتقشر

ويتساقط كاشفاً عن القضبان التي أصبحت رمادية وآيلة للسقوط عند أية لمسة. الشرفة مغطاة بطبقة سميكة من الغبار والدرابزون الخشبي تشبكه قشور سميكة من نسيج العنكبوت. أضف إلى هذا أسراب الحمام الكبيرة المعششة على الحواف والسطوح، والتي يعطي زرقها مظهراً أبيض لما كان يوماً ما سطحاً أحمر وحواف حمراء. والتوصيلات الكهربائية القديمة موجودة أيضاً - معلقة على أعمدة عالية فوق أسطح الصفيح القديم الصدئ، على عكس الخطوط الحديثة في المبنى المجاور. ثم هناك شجرة ياسمين، وهي نادرة هذه الأيام، تزحف على سياج البامبو المتصل بالشرفة، لكن دون براعم، وقد أكلت الديدان أوراقها وغطاها معطف كثيف من الغبار. يمكنك أن ترى شكلها البالي حتى عن بعد.

ليست هناك لوحة اسم على المنزل، لكن ما عساك أن تسميه سوى كوخ الياسمين؟

ترجلت عن الدراجة، ونظرت إلى المنزل لبضع لحظات. منزل على شكل ضلعين في مستطيل، قطعة من الأرض مساحتها حوالي ألف متر مربع. غير ملائم كثيراً لكنه مريح لأسرة تتكون من أربعة أو خمسة أفراد، بما في ذلك الأطفال. حاولت أن أخمّن عدد غرف المنزل: ثلاث كبيرة، ربما، واثنتان أخريان أصغر. المطبخ منفصل. ترتيب على ذلك النحو، أو ما يقاربه، للعديد من المنازل فسحة خلفية أيضاً. منزل قديم على أية حال. لكن الآن؟ - يتكون محيطه بالكامل من مبان مرتفعة. هل يصل إليه النور والهواء هذه الأيام؟ يبدو خانقاً على الأرجح، دون أي ممر للهواء.

منذ متى يتراكم هذا الزحام حول البيت القديم؟ ليس بعيداً عن المنزل هناك مبان لشركات هدلا كاترانك وتكيت ووركس، وسينغانيا درغز ليمتد. في الجانب الآخر بيت نصف مبني، لا زالت تحيط به سقالات البامبو. ووراءه مبنى آخر يضم عدداً من المحلات التجارية. ويمتلئ طابقه الأرضي بأكوام من أكياس الخيش والصناديق

العائدة لشركة نقل سبيد ويل رود. في الفسحة الأمامية هناك خليط من شاحنات الديزل ودراجات الريكشو وعربات اليد ومرفقاتها. يمكنك أيضاً أن تسمع الضجيج المتقطع للمضخات التي تملأ خزانات المياه على السطوح. بالنسبة لكوخ الياسمين، في موقعه الغريب، فإن الضجيج هو موسيقاه الوحيدة. هذا لا يعني أنها حياة هدوء وسلام. رغم ذلك، فهو ليس مكاناً سيئاً للعيش فيه. نحن بضعة أشخاص – الأم، الأخ الذي يذهب إلى الكلية، والخادمة الصغيرة، وأنا – هذه هي عائلتنا، حتى الآن. فيما بعد، يمكن لأختي، بالطبع، أن تترك المنزل الذي تقيم فيه وتأتي لتعيش معنا. هناك ما يكفي من المساحة لكل ذلك. حالما يتم تنظيف الفسحة الأمامية وترتيبها، سيصبح من الرائع الجلوس على الشرفة في المساء. ولماذا في المساء فقط؟ سيكون ذلك لطيفاً خلال النهار أيضاً. ستزهر شجرة الياسمين من جديد. ستخلع أوراقها وأغصانها مرة أخرى ومعطف الغبار الذي ترتديه الآن وتظهر بروعتها ورونقها الأخضر أو، يمكن إزالة الشجرة نهائياً، إذا دعت الحاجة. لن يكون المنزل بعيداً عن مكتبي على الدراجة. هذه ميزة إضافية مقارنة بغرفة في بناء ميكانيكي التصميم ودون أي شخصية متفردة أو إحساس بحميمية البيت، سيكون المتسع الذي يقدمه كوخ الياسمين أفضل بكثير، حتى لو كان إيجاره أعلى بخمسين أو حتى بمائة روبية. إنه يستحق ذلك.

لقد استسلمت أيام الشتاء الباردة لدفء الربيع. شعرت بالعطش مشيت بضع خطوات. ألقيت نظرة سريعة على اللوحات التي تحمل أسماء المحلات في المبنى الواقع إلى يمين كوخ الياسمين (ب.ك.راي، وايس مكرز، خبز أنا بورنا، خوبشانداني لتوزيع أجهزة الراديو ...). كانت الغرف في جزء من الطابق الثاني مغطاة بالستائر المسدلة بنصف طولها. وعلى جدران الشرفة انتشرت ألبسة الساري لتجف، وفي الطابق الأعلى، كانت الغاموكات (المناشف الأساسية) معلقة على حبال الشركة (مشيرة ربما إلى المالك، وهو رجل محلي). نظرت إلى الأسفل مرة أخرى. إنه

المساء؟ فقد بدأت الأنوار بالاشتعال. على حافة الطريق وحيث كان يفترض وجود كراج المبنى، كان هناك مبنى مسقوف بالقرميد ولوحة حمراء تعلن كوكا كولا، لاشك أنه محل لبيع القرطاسية أو الحلوى، ركنت دراجتي في زاوية ودخلت. خلف بسطة المحل كان هناك أشياء متنوعة للاستعمال اليومي. مرتبة في صفوف أنيقة. وكان يقف هناك شاب في حوالي الثامنة والعشرين يرتدي قميصاً عليه خطوط متقاطعة. لم يكن حليقاً تماماً، إذ كان يمكن رؤية شعر لحيته النابت على خديه. كان يقف تحت ضوء النيون يقرأ كتاباً (لم يكن هناك أي زبائن في تلك اللحظة). نظر باتجاهي وأغلق الكتاب. (رأيت أن الكتاب كان "مقدمة" إلى الاقتصاد).

ومن صندوق الثلج الأحمر أخرج زجاجة كوكا كولا، نزع غطاءها ببراعة، وقدمها لي بعد أن أدخل فيها القشة المصاصة. أخذت رشفة، وكي أبدأ حديثاً (حيث أني أحببت الطريقة التي يتصرف بها الشاب) لاحظت أنه من الأفضل أن يكون لديهم براد. "تعني ثلاجة؟" سألني. قلت "أوه، نعم، بالتأكيد، أنتم في موقع ممتاز، وقد بدأ الصيف، وسيكون هناك طلب كثيف - ويوجود ثلاجة كبيرة وأشياء من ذلك القبيل. "أرى ذلك"، قال الشاب، "غير أن الدكان ليس لي، أنا بائع فقط." لاشك أن هذه المنطقة مزدحمة. وخلال أسابيع سيزيد الطلب على الكوكا كولا بشكل كبير. وستجد صعوبة في تلبية ذلك الطلب. لكن مالك الدكان لم يفكر بعد بشراء ثلاجة. أتعرف، هذه غرفة صغيرة، لكن أجرتها مئتا روبية في الشهر. بالنسبة لدكان صغير كهذا، فإن دفع الفواتير مشكلة. وهكذا فإن مسألة الثلاجة بالطبع ..." "أفهم، قلت، وسحبت بضع إنشات أخرى من الزجاجة. ثم أخبرته أني جديد في المنطقة، وأعيش مع صديق في الوقت الحالي، ،ابحث عن بيت أستأجره. وهل كان يعرف، بأية طريقة، ما إذا كان هناك بيت لهذا الغرض في المنطقة؟ منزل للإيجار؟ لغرض السكن؟ في هذه المنطقة؟ سيكون ذلك صعباً. سيعرف عدد أفراد أسرتنا. ثم، ليشرح موقفه، قال أن أحد معارفه كان ينهي بيتاً، لكن ليس في تلك المنطقة، بل

على مبعدة وراء فاتاسيل بمسافة. قلت لا، لا، لا أستطيع أن أسكن في بيت بعيد كذاك. حسن، هنا، هناك البيت المسمى كوخ الياسمين، تعرفه ولا شك.

"كوخ الياسمين! كوخ الياسمين!" حاول أن يتذكر. ابتسمت، وقلت أني أعني البيت الذي أمامه شجرة الياسمين، من النمط الآسامي.

"أوه، تعني ذلك المنزل. أفهم". نظرت إليه مستفسراً. "أعرف ذلك المنزل القديم هناك. لكن لا يبدو أنهم يهتمون بإيجاره. لقد بقي شاغراً لوقت طويل. لقد فتحنا هذا الدكان قبل ثمانية أشهر، وطوال تلك الفترة بقي البيت على الحال نفسه- شاغراً، مهملاً ... لا أحد يزوره أبداً".

"لكن لماذا لا يؤجرونه؟ من صاحبه؟"

"آسف،" قال الشاب، وبدا مرتبكاً. "لم أهتم بذلك حتى الآن. لم أسأل أحداً حتى الآن. إن كومة متاعبي الخاصة بي تكفيني؟"

اتضح لي خلال حديثنا أن الشاب كان يريد أن يظهر كطالب مرشح في امتحانات الشهادة. كان قد أعد نفسه للامتحان السنة السابقة، لكنه لم يتمكن من ذلك. عليه أن يعتني بأسرته. "لا نهاية للمشاكل". خصص هذه الاستراحات القصيرة وراء طاولة الدكان لتصفح "مقدمات" كهذه. أضاف الشاب "أنت، توقعت هذا،" قلت وسألته مرة أخرى؟ لمن يعود هذا البيت؟ ومصصت محتويات الزجاجة بالقشة حتى القطرات الأخيرة. وطلبت زجاجة أخرى.

أعطاني الشاب الزجاجة الثانية وقال، "لا أعرف بالضبط. لا أعرف المنطقة بشكل جيد. أنا أعيش في كوماربارا. قبل مدة طويلة، كان الجيش قد استولى على مدرستنا واحتلها. وانتقلت مدرستنا لبضعة أشهر في الصباح إلى ثانوية بيشورام، الموجودة في مكان ما من هذه المنطقة. "ثم اعتدت التمشي بهذا الاتجاه. هذا يعود إلى طفولتي، لا أستطيع تذكر الأشياء بدقة. في تلك الأيام لم تكن هذه المباني موجودة هنا. في مكان هذا البناء كان هناك بيت على النمط الآسامي، تماماً كذاك

البيت. وكان يعود إلى مراقب في السلطة المحلية. كان اسمه براجين كاليتا. لقد بنى هذا البناء. أتساءل من أين يحصل الناس على كل هذا المال لبناء هذه الأبنية الكبيرة. كما ترى، فلم يترك حتى حديقة المنزل الأمامية. ومن الواضح لماذا لم يفعل ذلك. لأن هذه المنطقة، أصبحت منطقة تجارية بالكامل. عليك أن تستغل بشكل كامل كل قدم مربع من الأرض لتحصل على أكبر قدر من الأرباح. لا أحد غبي إلى درجة الاحتفاظ بشيء باذخ كحديقة أمامية."

"أنت محق،" قلت لدعمه، ثم عدّلت وضع القشة المصاصة في مكانها الصحيح، وكررت السؤال، لكن من هو المالك؟"

بدا الشاب شارداً لبعض الوقت، وقال، "ذاك الذي أسميته كوخ الياسمين، حسن، لست متأكداً، كنا منشغلين بشؤوننا. كنا نمر قرب هذه البيوت بسرعة خشية أن نتأخر على المدرسة أو البيت. في تلك الأيام، كانت معظم البيوت في هذا المكان سكنية. في سننا آنذاك، من كان يهتم بمعرفة من كان يملك أي بيت. لكنهم كانوا يقولون على أية حال إن صاحبه كان مدرساً في ثانوية بيشنورام ذاتها. وأصبح مديرها فيما بعد." ثم قلص الشاب خطوط جبينه وحاول تذكر شيء ما، بهودارغوسوامي، أو بهودارسارما؟ بهودار شيء ما، على أية حال. كان مدرس اللغة السنسكريتية. كانوا يعرفونه كباحث. كان حاصلاً على الإجازة من كاشي وعلى بوابته كانت هناك لوحة اسم تعلن "سانجيفان ساماج". يقولون إنه هو الذي أنشأها. وربما كان رئيسها أيضاً. وبين الفينة والفينة كنا نرى بعض الرجال العجائز الصلعان الملتحين يجلسون على الشرفة، يتناقشون. كانوا جميعاً يبدون محترمين جداً. وكان الناس يعتقدون أنهم كانوا يكتبون مقالات أحياناً. دور الطالب في العهد الفيدي، وأشياء من هذا القبيل."

"وأين هو الآن."

"الآن؟ لا أعرف على وجه اليقين. في الواقع، وبعد قبولي في الجامعة، لم أمكث طويلاً في هذه المدينة." قال الشاب، ثم توقف. بدا متردداً قليلاً ثم تابع، "وفي هذه الأثناء تغير الكثير. لا أرى أولئك الذين عاشوا هنا في تلك الأيام. كل العائلات هنا عائلات رجال أعمال: من البنجاب والماراوار. وبهودهار غوسواي – لابد أنه مات، لقد مات قبل فترة طويلة."

"حقاً؟ إذاً من .."

"كان لديه ولدان. كان أكبر مني بكثير. كان أحدهما كأبيه، مشغولاً دائما بدراسته. كان محاضراً في مكان ما. كان يلبس الدهوتي والشادار. كما كانت العادة في تلك الأيام. كان يُشاهد أحياناً يتمشى على المرج، يفكر في شيء ما. الابن الآخر، أعني الأصغر، كان يدرس الطب في ديبروغار. أو هكذا سمعنا. كان أحد زملائي يأتينا بهذه النتف من المعلومات بين حين وآخر. كان ذلك الصبي يعيش على هذه الزاوية هنا. هو ليس هنا الآن، طبعاً. لم نر الولد الأصغر. تراه العائلة بعد شجار أو شيء مشابه. هذا ما سمعناه، إذ من يهتم بمعرفة من ضاع وأين في هذا العالم الواسع!"

بعد سحبة أخرى من الزجاجة، سألته دون اكتراث، "ألم يكن من فتاة في العائلة؟"

"لا، لست متأكداً تماماً. أتذكر أني رأيت فتاة ليوم أو يومين لكني لم أر امرأة كبيرة أبداً هناك. ذات يوم، كانت عربة يجرها حصان صغير تحمل إعلانات سينمائية ملصقة على ألواح كبيرة. وكانت ترافقها فرقة موسيقية. (لم تعد ترى تلك الأحصنة الصغيرة اليوم. بعد وصول عربات الريكشو، لم تعد تسمع الفرق الموسيقية أيضاً، كل ما تسمعه هو زعيق المايكروفونات.) وخرجت فتاة إلى الشرفة لترى تلك العربة – كانت نحيفة وجميلة، وعندما رأتنا جميعاً نحدق بها، تراجعت. بين الحين والآخر كنا نرى سيارة فورد بيضاء يقودها شاب قوي البنية. كانوا يقولون إنه كان يحب الفتاة، وتزوجا فيما بعد. بعبارة أخرى، كان صهر العائلة. التأمت صفوف

مدرستنا الثانوية في بيشنوران لستة أشهر فقط، وبعدها توقفنا عن المرور بهذا الاتجاه تقريباً. "لا، لو كان هناك فتاة أخرى"، وبدا مرتبكاً، ثم قال مبتسماً، "لكنا لا حظنا وجودها بالتأكيد. ثم، ولتغيير الموضوع، قال، "عقار بهذه القيمة، وفي منطقة كهذه! لا أعلم لماذا يتركونه يضيع هكذا! من يعلم، قد يكون ذلك الصهر، أعني صاحب سيارة الفورد، ورث المنزل. ما أعنيه هو أنه ليس منزله. لو امتلكه أي عضو آخر في العائلة، لما كان سيهمله إلى أن يخرب بهذه الطريقة. مع بعض التحسينات، في منطقة كهذه، لابد أن يجلب ثمانمائة روبية في الشهر".

"هذا واضح" وافقته. في هذه الأثناء بدأ الزبائن بالتدفق. شخصان بنجابيان طلبا كوكا كولا، وصبي طلب معجون أسنان، وزوجان سألا إذا كانت آخر حصة من غلاكسو قد وصلت. وقفت بهدوء في زاوية وتابعت مص الكولا، مستشعراً الرائحة النفاذة للشراب في انفي. كانت رفوف الدكان محشوة بأنواع القرطاسية المختلفة، تحت ضوء النيون المبهر، وأحسست بشيء من النقاء والحميمية، كذاك الإحساس الذي يحسه المرء في زاوية مقهى. حدقت بالقطرات المتبقية في الزجاجة. كان ينعكس في السائل الأحمر بيتاً على شكل ضلعين في مستطيل، كوخ الياسمين تخيلت عدداً لا يحصى من براعم الياسمين تتساقط على العشب الأخضر تحتها، وصبية تنظف الأرض، وخصرها النحيل مشدود بنهاية وشاحها. تخيلت سيارة فورد بيضاء تدخل البوابة، وتطلق بوقها، وفي ذات اللحظة أسقطت الفتاة المكنسة ورتبت وشاحها وشعرها، وألقت نظرة متفاجئة على السيارة. من خلال زجاج السيارة الخلفي كان بإمكانك أن ترى زوجاً من الأيدي، سمينة وقوية ومشعرة تمسكان بالمقود. كتفين عريضين. كان وجه الفتاة شاحباً في مخيلتي، لكن كان بإمكانك بسهولة أن ترى أنها كانت شابة ونحيلة، تبدو مسرورة لتحقيق أمل ما ... تلاشت تلك الرؤية ببطء، وحل محلها صورة الفتاة، التي كانت تمكن رؤيتها من خلال الباب المفتوح، وظهرها إلى الشرفة، مشغولة بنفض الغبار بقطعة من الكتان عن الكتب والأوراق

الموضوعة على طاولة مستديرة – وهناك على الطاولة كانت صورة كبيرة لشخص بلحية بيضاء، أصلع أيضاً، وشعر أبيض على جانبي رأسه، ونظارات بمحرقين في إطار دائري، وكان مظهره صارماً ربما صورة الراحل بهودهار غوسوامي (غوسوامي أو سارما ومن غيره؟). كانت الصورة محاطة بإكليل شاحب من القطيفة ومعلقة على الجدار الجانبي، وإلى جانبها كتاب تشريفي أو شيء من هذا القبيل. وتخيلت رجلاً يلبس الدهوتي والشادار، يجلس على كرسي خشبي قديم، يقول شيئاً بصوت خفيض. هو أيضاً كان يلبس النظارات، لكنها كانت في إطار مستطيل. كان أحد قدميه في خف. والقدم الأخرى عارية. وكانت الأصابع تتحرك باستمرار. ذلك وحده كان علامة على قلق الرجل، عدا ذلك كان هادئاً في سلوكه وإشاراته. وصوته ناعم لكنه واضح. لابد أنه ابن المحاضر. ماذا يحتمل أن يكون اسمه؟ اسم ابن بهودهار غوسوامي؟ ماذا يمكن أن يكون الاسم المثالي له؟ بريمادهار؟ باراميش؟ نعم باراميش ليكن ذاك باراميش غوسوامي - ليس اسما سيئاً. ماذا يقول؟ إنه يتحدث إلى رجل يجلس على كرسي في المقدمة. رجل يرتدي قميصاً بنجابياً. إنه رجل طاعن في السن. لكن من هو؟ كان المحاضر يقول، (تخيلت أني سمعت صوتاً حقيقياً يترنح من مكان ما)" ... إذاً، أخي العزيز غانيش، أرجو ألا تمانع – ثمة ثقافة أكاديمية مرتبطة بهذا المنزل. إذا سمحت بأن يسود جو تجاري هنا، أو سمحت بنشاطات البناء هنا – الاسمنت والآجر وقطع الحجارة والمساومة على الأسعار – فلن تعرف روح أبي السلام. عندها لن يسامحني أبي ... أنت تعرفنا منذ طفولتنا الآن أصبح هذا المنزل في عهدتي. أنت تطلب مني أن أؤجره. تريده لأعمالك المتوسعة كمقاول – نعم، وأنا أيضاً كان سيسعدني أن أؤجرك المنزل. لابد أنك تقدر ذلك. لكن من واجبي أيضاً أن أحافظ على ذكرى عمل والدي طوال حياته. إنه التزام مني تجاه أبي. قد لا أعيش أنا نفسي هنا. لكن يجب أن أحافظ على الجو القديم للمنزل ما وسعني ذلك. إذا تمكنت من ذلك، لدي خطة أن أبني

مكتبة لتخليد ذكرى أبي. أنت أيضاً كنت دائماً تحترم والدي كثيراً. أنت أيضاً رأيت أنه على هذه الطاولة بالذات (ومد يده باتجاه الطاولة، كلقطة مقربة، واقتربت الطاولة بأكملها إلى الأمام وبدت وكأنها تملأ الشاشة المترنحة، عدد لا يحصى من الكتب والمجلات، بأوراق تدمرية، ملف يحيط به رباط أحمر ومكتوب عليه الكلمات التالية: "الوجه الروحي لـ .. (كلمات ميتة) في العهد الفيدي" المحبرة، وحاملة القلم، وعلبة الصمغ، وقطع ورق النشاف، وصينية أوراق التنبول وعلبة النظارات ... اعتاد أبي أن يقرأ ويكتب حتى عمر متأخر وبكل تفان. لم يكن ينتبه حتى لاحتياجاته الجسدية؟ تذكر كيف كنت في العديد من المناسبات تقف إلى جانبه دون أن يلاحظ وجودك حتى تعلنه بسعلة. كان عمله نقياً من أي نزعة أنانية، دون أي اعتبار للمكاسب المادية، ولا الشهرة". كان سعياً لاكتشاف الحقيقة فقط، بحثاً لا تشوبه المصلحة عن المعرفة. تستطيع أن ترى أعمال والدي نصف المنتهية في كل أنحاء المنزل، المقالات غير المكتملة، ويبقى علي أن أنشرها إذا أمكن. هل يمكنني أن أسمح لمناخ هذا البيت أن يدنّس بالتجارة؟ كن أنت القاضي أخي غانيش؟ ... أنا لا أحتاج المنزل لأعيش فيه. هذا مؤكد. المنزل الآن ملكي، ويمكنني أن أجني الكثير من أجرته وبسهولة لكن هل يمكنني لهذا السبب أن أزيل كل آثار تفاني والدي طوال حياته..." صوت ارتطام صرف انتباهي إلى الرجلين البنجابيين الذين وضعا زجاجتي الكوكا كولا على البسطة. تلاشت الصور من الزجاجة، وأنا أيضاً مصصت القطرات الأخيرة من الزجاجة، ووضعتها على البسطة.

ناولت الشاب ثمن الزجاجتين وسألته، إلى أي ساعة يبقى الدكان مفتوحاً. هل كان بإمكانه التلطف بالسؤال عما إذا كان يمكن استئجار المنزل؟ أخبرته أني سأعود لأعرف الجواب في اليومين التاليين "أنت غير موجود غداً؟" حسن، إذاً، في يوم آخر. لنقل بعد غد، حسن، حسن..."

خرجت وفتحت قفل دراجتي. وتحت أضواء النيون المبهرة، كان تحميل وتفريغ شاحنات الديزل يتم أمام شركة نقل سبيد ويل. كان بضعة أشخاص يديرون العمليات بصوت مرتفع، وأغرقت كل ذلك الضجيج شاحنة بدأت تتحرك بجلبة كبيرة نافثة سيلاً من الدخان الأسود ... مشيت ببطءٍ دافعاً دراجتي. كانت العتمة تلف كوخ الياسمين. وكان هادئاً. كانت أشعة الضوء المنبعثة من غرف الطابق العلوي للمبنى المجاور توزع الضوء والظلّ الجدران اليسارية لكوخ الياسمين. وكان بالإمكان سماع صوت راديو في الجانب المنار من الأبنية، وطقطقة آلة كاتبة – كل غرفة مليئة بالأحاديث أو الأنشطة من نوع أو آخر، المرطبات تقدم في بعضها، أمور الحياة والعيش، والتجارة والأعمال، الحب والشبق، التوق والإشباع، المتعة والتخمة، الحزن والإحباط. وكلها تنف من حوار تحقيق الحياة، إذا جاز التعبير، والتي أسدل الستار على مثيلتها في كوخ الياسمين منذ أمد بعيد، دون أن تبقى ذرة واحدة من حيويتها السابقة.

هل انتهت نهائياً، نمت وأفكار حول كوخ الياسمين تسكن نفسي ووجودي. في الصباح التالي، بعد أن استيقظت، وبينما أنا أفرك عيني. يا لها من مفاجأة. لم أحلم به مرة واحدة. في الواقع فإني لم أحلم على الإطلاق، ربما لأني كنت متعباً جداً.)

خلال عمل اليوم، وبين الفينة والفينة، كنت أتذكر كوخ الياسمين بشكل غامض، وفي اللحظة التالية كنت أنساه من جديد. بعد الظهر ركبت دراجتي مرة أخرى بحثاً عن بيت أستأجره لم أدقق. ركبت دراجتي، حاولت أن أتذكر شيئاً، وتابعت على سرج دراجتي غائب الذهن، وفي لحظة أدركت فجأة أني كنت سأعبر بجوار كوخ الياسمين – المظهر القديم نفسه للكوخ – منهك ومهجور. في ضوء الغسق الشاحب رأيت شجرة الياسمين المترنحة ترتعش – لا بد أن النسائم تهب من بعض الأنحاء. ترجلت عن الدراجة، وحاولت أن أستمع إلى شيء ما، وسمعت أصواتاً مختلفة

لبائعين ومشترين يساومون حول الأسعار، ورنين الهاتف، وصوت ارتطام ضعيف، ربما سببه أحد الألواح القصديرية في كوخ الياسمين يضرب بين وقت وآخر على سقالة خشبية انفصل عنها، والحمائم جاثمة تهدل في زاوية مظلمة.

لم أجد الشاب وراء بسطة الكوكا كولا. بل كان في مكانه رجل في متوسط العمر يلبس قميص هاواي وبوجه دائري ممتلىء يحتل نفس الكرسي. ركنت دراجتي عند البوابة وطلبت زجاجة كوكا كولا.

كان هناك ازدحام شديد في الدكان اليوم؟ كان البيع نشطاً. لم يعجبني سلوك الرجل كثيراً. لم أعبأ ببدء حوار معه. وقفت مبتعداً في زاوية، أشرب الكوكا كولا. يا لها من متعة، شممت الطعم النفاذ الذي اعتدت عليه الآن. وضعت الزجاجة على الطاولة بشكل مائل، وضعت سبابتي اليمنى على رأس القشة، نظرت بتمعن إلى السائل الأحمر. كان السائل يترجرج. وبدا كأن صورة أخرى بدأت تظهر عليه كان النسيم يهب وأوراق الياسمين ترتعش. كان المساء يتقدم، وأصبحت شرفة كوخ الياسمين مرئية بالكاد.

في ضوء السيارة، أنيرت شجرة الياسمين ونسياج الياسمين، وبعد رجتين توقف محرك سيارة الفورد، انطفأت الأنوار، وكان يمكن سماع فتح باب السيارة، ومن وراء المقود نزل الرجل عريض الكتفين، وحتى الآن يمكنك أن ترى من وراء كتفيه العريضين ورأسه المنتظم الشكل (لابد أنه كان بشاربين!) صهر العائلة الجديد، بهابش؟ بهابانانادا؟ حسن، ليكن بهابانانادا. فتح بهابانانادا باب السيارة اليساري ومد يده، وخرجت ممسكة بها الفتاة التي كانت (كما شاهدنا من قبل) تكنس الأرض. كانت بينا (أي أسم آخر يمكن أن تفكر به لها؟). حتى في الضوء الباهت كان يمكن أن ترى أن وجهها كان يحمر وكانت حول عينيها هالة نادرة من الهوى المفتون. وكان هناك الخط القرمزي الجديد على رأسها، وكدت أسمع حفيف الحرير على إيقاع حركة جسمها، الصوت الناعم الخفيف لحرير فوغا، أو ربما كانت ترتدي

حرير بيناراس، وبريق المجوهرات الثقيلة التي كانت تزينها عندما تلتمع عرضاً في الظلمة. وفجأة حررت نفسها من بهاباناندا وانطلقت إلى الشرفة، وبنفس السرعة أمسك بهاباناندا بخصرها النحيل من الخلف.

"تش، ماذا تفعل؟

"إذا رآنا أبي بالصدفة!" "بووه، أبوك يبقى مستيقظاً إلى هذا الوقت المتأخر ليتجسس علينا! يا لها من فكرة!" قال بهاباناندا بضحكة مكبوتة وأمسك ببينا على الشرفة.

"لقد أعلنت عن عودتك بضجيج سيارتك – من يدري! أنت ولد شقي، أرجوك، ليس هنا. دعني أذهب أتوسل إليك، أرجوك. مازال أخي الأكبر يقرأ. لنفترض أنه جاء فجأة ... كيف سنبدو؟"

"أخوك ليس بهذا الغباء أو الفظاظة ليفرض نفسه على عروسين جديدين يعودان في وقت متأخر ... دعيني ...".

مع الظلال المتراقصة على جدران الممر امتزجت صورة بينا وبهاباناندا اللذين نسيا نفسيهما في عناق حميم، غير واعيين للنسائم التي تلعب بشعريهما، حاملة عطر زهرة بلا اسم، والمجرات السماوية تراقبهما كشهود سعداء. ربما كان هذا هو الربيع.

وبعد صمت طويل قال بهاباناندا، "عزيزتي بينا، في تلك الأيام عندما كنت أقف إلى جانبك على الشرفة، كم تمنيت في العديد من هذه الأيام أن أعانقك تحت شجرة الياسمين هذه، أن ألمسك، كنت أرغب بشدة أن أكون بقربك – هل كنت تستطيعين قراءة مشاعري عندئذ؟" لم تجب بينا، وبدلاً من ذلك ضمت رأس بهاباناندا إلى صدرها. "واليوم وأنت تخرجين إلى الشرفة في الوقت الذي كان شقيقك ذاهباً إلى الكلية، وكنت أتحدث لأبيك، كم اشتقت إلى الوقوف مرة أخرى إلى جانبك في هذه البقعة! هل تخيلت ما كنت أفكر به.

لم يكن لدى بينا جواب بعد.

"بينا، حبيبتي،" توسل بهابانادا. ضحكت بينا ضحكة مكبوتة في الظلمة ورأسها على صدره. "يا لك من مغفل! كيف أخفقت في تخمين ذلك؟ واليوم. في الممر بدوت مغفلاً أيضاً! شعرت بحيرة! كيف حاولت أن أكتم ضحكتي! لأربع سنوات كنت تقف هنا إلى جانبي، ناسياً العالم من حولك. واليوم، من بين كل الأيام، بدوت وكأنك تشعر بالخجل! لم تحاول أن تأتي إلي حتى مرة واحدة. كما لو أنك ما كنت لتنتهي من الحديث إلبابي!"

لم يبد على بهابانادا أنه فهم كثيراً وقال، "إذاً، ألا ندخل الآن؟"

وفجأة انبعثت الحيوية في بينا وقالت، "لا أشعر أبداً بالرغبة في الدخول. يا لها من متعة أن أكون هنا معك بعد هذه الفجوة الطويلة التي فصلتنا عن هذا الركن الحميم الذي يجمعنا! ولا أدري متى نقف هنا معاً مرة أخرى." وبدت كلماتها حزينة. "بعد يومين سنكون قد رحلنا! وعملك غير ملائم أبداً. أنت دائماً تتنقل! دائما في أمكنة بعيدة - من ياسينات إلى أيجال إلى ... كنت أبكي اليوم وأبي يتحدث إليك ..." قال أبي، لن أعيش طويلاً ... وأنت ستعتني بهذا المنزل من بعدي. سأهبه لك". ما الذي جعل أبي يقول هذا؟"

بقي بهانادا صامتاً لبرهة، ثم قال، "لقد قرر شقيقك الأكبر ترك هذا المكان تقريباً، وليس من طبيعته الاعتناء بأي بيت. وشقيقك الآخر كان قد ترك البيت فعلاً. ربما لهذا السبب كان يفكر على هذا النحو.

"إن كلمات والدي حزينة فعلاً. قال "ستفعل ما تشاء، بإمكانك أن تستعمله بنفسك أو تؤجره للآخرين." هذا حزين جداً! سنعيش في أمكنة بعيدة، من سيعتني بالبيت في غيابنا؟ لا يمكنك أن تتيقن ممن سيستقر هنا. سيتغير كل شيء. حتى شجرة الياسمين هذه لن يسمح لها بالبقاء هكذا."

مرة أخرى ضمت يدا بهاباناندا المتشوقتين خصر بينا النحيل وقال ضاغطاً خده على خدها بنعومة، "بينا، يا روحي، في اليوم الذي رأيتك فيه للمرة الأولى كنت تقفين في هذه النقطة. كانت عربة يجرها حصان صغير، تصحبها فرقة موسيقية، تعرض ملصقات سينمائية، تمر من هذا الشارع. يا لها من لحظة! حتى عندما أتذكرها الآن، أشعر بأنها كانت لحظة اللحظات. هذه الشرفة وهذه الشجرة تشكلان جزءاً من حياتي، تماماً كالأثاث – الكراسي والطاولات – والصور والأواني الصينية التي تحمل أثر يدك الناعمة، كل إنش من هذا البيت كان تحت رعاية يديك الرقيقتين. حسن، في المستقبل، علي أن أعتني بهذا البيت. لن أسمح بإضاعة شيء واحد، ولن أسمح لغريب أن يدنس هذا الجزء من الممر. سأحتفظ به كما هو تماماً بحيث لا نشعر بالاختلاف عندما نزوره". هذا اللعب الساحر للضوء والظل، حفيف الأوراق، عبير الأزهار الذي تحمله النسائم، المجرات اللامتناهية من النجوم...، تابعت التحدث إلى نفسي، وفجأة أحسست بأن كل ضجيج الدكان توقف. فوجئت بأن الزبائن كلهم قد غادروا، وصاحب الدكان يحدق في وجهي، والصور التي كانت على زجاجة الكوكا كولا قد اختفت، وسحبت القطرات الأخيرة من الزجاجة قبل أن أضعها على الطاولة. ثم قلت لنفسي بصوت خفيض، "مدهش، مدهش حقاً! حتى اليوم هناك من لا يفكر في بيت فقط من زاوية الأجرة التي يمكن أن يجلبها. يقيّم البيت لاعتبارات أخرى أيضاً. فكر في ذلك. بهاباناندا هو هذا النوع من الأشخاص. وبينا أيضاً."

"ماذا تقول؟" سأل صاحب الدكان متفاجئاً. "خمس وخمسين بيسا." وبسرور في قلبي، ركبت دراجتي عائداً إلى البيت. نمت جيداً. يا له من سلام! على النقيض من الروح التجارية القاسية ونظرة اليوم العملية النفعية، وعلى النقيض من المباني الشاهقة التي ترتفع على كل قدم مربع من الأرض، وضجيج وصخب الآلات ودخان الديزل، وميزانيات الربح والخسارة، والغبار المتراكم تحت أضواء النيون والروائح

الكريهة التي تلوث الهواء، على النقيض من كل شيء يحد من إنسانية الإنسان، تجد زوجاً مثل بينا وبهابانادا، لم تلمسهما سوقية المباني الإسمنتية العالية، لا يبحثان عن مستأجر، لا يكترثان لثلاثمائة روبية إضافية في الشهر – كثيرون سيهتمون (من لا يهتم؟) بل يدركون أن هناك ما هو أهم من ذلك المبلغ – الاحتفاظ بذكرى غالية حية، الاحتفاظ بمساحة مفتوحة على السماء كي تتنفس الروح، نسمة من الهواء الصافي لينعش الحياة، قطعة أرض خضراء لراحة العينين، شجرة ياسمين تحمل ثمار العقل، ليل ساكن وظهيرة كسولة، صمت عميق لا يزال يتردد في مكان ما، بيئة محببة تتوارى.

في اليوم التالي، عندما اقترح أحدهم تناول الكوكا كولا بدلاً من الشاي في استراحة الغداء، ابتسمت وعبرت عن عدم موافقتي، إذ تنتظرني النكهة اللاذعة الحقيقية للكولا بعد الظهر في دكان القرطاسية ... في العمل اليوم أخرج باحثاً عن بيت للأجرة (حتى أني تجاهلت بعض المعلومات التي أعطاني اياها مشرف المكتب). في ضوء المساء الخافت، ترجلت عن دراجتي أمام كوخ الياسمين. رأيت صندوقاً وشيئاً يشبه كومة من الأسمال على الأرض. لقد أمطرت السماء لبعض الوقت الليلة الماضية – قد يكون أحد المتسولين التجأ إلى هذا المكان من المطر. هكذا افترضت، وحيث كان البيت دون بوّاب، فسيستمر في النوم هناك كل يوم. دفعت دراجتي إلى أمام الدكان – ذلك الشاب وراء الطاولة اليوم – أحسست بالارتياح (يبدو حليقاً اليوم، لكنه يرتدي القميص نفسه) لكنه مشغول اليوم. كان رجل متوسط العمر يلبس بدلة وربطة عنق، حتى في هذا الجو الحار، يخرج مجموعة متنوعة من مواد التجميل من صناديق مختلفة ويعرضها على الواجهة. وكان يكتب بعض الأرقام في سجل. استنتجت أنه مندوب مبيعات لإحدى الشركات. رفع الشاب رأسه وابتسم معترفاً بوجودي، ثم قال للمندوب، أعذرني لحظة، وتوجه نحوه وهز رأسه.

قال، "لا، لا أمل." وأنا أيضاً عرفت أنني ابتسمت ابتسامة سعيدة. أنا أيضاً توقعت أن البيت ليس للايجار.

"كوكا كولا؟"

"نعم، بالتأكيد".

أخذ قشة من باكيت، قال الشاب، "سألت عن وكيل البيت. إنه رجل من أهالي البلد، ومن هذه المنطقة بالتحديد، ويعرف كامل تاريخ البيت ... والمعلومات التي أعطيتك اياها قبل أيام كانت صحيحة أيضاً. الابن الأكبر هو بروفيسور، رجل قدير. الابن الأصغر طبيب، وزوجته امرأة بنجابية، لكن ارتباطه بالعائلة ليس قوياً، إذ إن والده طرده تقريباً..." وانصرف انتباهه إلى مندوب المبيعات، ثم إلي، "حسن، انته من زجاجة الكولا. إنه ينتظرني."

ذهب الشاب إلى المندوب. تابعت امتصاص الكولا بالقشة ثم وضعتها بشكل مائل على الطاولة ونظرت بتمعن إلى السائل الأحمر في داخلها. وظهر مشهد ... خلفية كوخ الياسمين ... أشعة شمس ما بعد الظهر تشع على الحديقة الخلفية، مقعد قديم مهجور ... ومكان خشب الوقود فارغ ... وفانوس أرضي قرب نبتة التولسي، لكن دون فتيلة، نبتة بابايا قديمة، شاب في مطلع الثلاثينات يمشي جيئة وذهاباً في الحديقة. كان رأسه يدق بين الفينة والفينة بشريط الغسيل، وكان مستثاراً. كان ينظر إلى الشريط وينفث دخان سيجارته. كان جزء من سماعة طبية يطل من جيب جاكيت التويد الذي يرتديه. فتاة صغيرة تلبس شوربدار – كورتا وتلف شعرها في عقدة كبيرة كانت تجلس على المقعد وتنظر بقلق إلى الطبيب.

كان مظهرها غامضاً ومحمراً، وكان يمكن رؤية ذراعيها من تحت الدوبات التي كانت تلبسها، ممتلئين عاجيين ... وفجأة توقف الرجل عن الحركة، وبعد نفثة أخيرة غاضبة، رمى السيجارة بشيء من القنوط، واقترب من الفتاة على المقعد ونظر في عينيها. بدأت شفتاه بالارتعاش ... وكما في لقطة سينمائية قريبة، اقتربت الصورة

وملأت جسم الزجاجة. تحت شفتي الطبيب القاسيتين وذقنه المربع المتحدي، يمكن أن ترى وجه الفتاة الدائري الشاب يشع بالترقب والسمو، وعيناها الكبيرتان مفتوحتان باتساع (ما ذكرني بنقطة مقربة في فيلم هندي شاهدته مؤخراً) ... كان الطبيب يتحدث (كان حديثه يشبه حديث مندوب المبيعات)." ... كل هذا يعني إذاً إنني الابن المنبوذ لأبي، ريهانا. وسأستمر منبوذاً ... أنا لست كأخي ... لقد قررت بنفسي بشأن كل قضاياي ... لم أعبأ برأي أحد ... لم أفعل شيئاً ضد إرادتي. تحديت أبي والآخرين عندما درست الطب. بينا فقط أيدتني. رفض أبي أن يقدم لي المساعدة المالية. رغم ذلك، ودون تفكير في العواقب، التحقت بكلية الطب. فقط عندما رآني مصمماً تراجع واضطر للموافقة على قراري. ثم دخلتِ حياتي. وتعلقت بك عاطفياً يوماً بعد يوم، لم أكن أتحمل العيش بدونك، بلغت مسامعي تعليقات كثيرة من أطراف كثر حولك، لكني تجاهلتها جميعاً. خلفيتك، طبقتك الاجتماعية، دينك، ماضيك – تجاهلت كل شيء. أعلنت قراري أن أتزوجك. ويا لعاصفة المعارضة التي ضربت من كل اتجاه! مجادلات وفورات غضب لا تنتهي. أنت تعرفين كل ذلك. قال والدي، 'أنظر، لقد سمعت كل شيء عن هذه الفتاة: ونحن أيضاً سمعنا كل شيء. حتى بعد كل هذا، تريد أن تأتي بهذه الفتاة ضد إرادتي، لن أساعدك بقرش واحد من الآن فصاعداً. وأنا أيضاً أعلنت وبشكل نهائي: هذا صحيح، وأنا أيضاً لن أقبل بيسا واحدة منك بعد الآن'. ثم أتت تلك الأيام العصيبة. كان إكمال دراستي محنة حقيقية! الاقتراض من الأصدقاء والمعارف وأخذ المنح. أنت تعرفين كل ذلك. كنت معي طوال الوقت، وعلاقتي بعائلتي انتهت (بينا فقط دعمتني في هذا ولو عن بُعد) والآن وبعد انقطاع هذه العلاقة، في أي ورطة يضعني أبي! لماذا كتب وصية كهذه! ما الذي جعل والدي يهبني هذا المنزل؟ لقد تركت هذا البيت (وضع الطبيب يداً على كتف الفتاة، كان نصف وجهها غير واضح في الصورة) – ريحانة، ريحانة يا عزيزتي، من أجلك أنت تركت

هذا المنزل. لا أستطيع الآن أن أتعرف على أي شيء في هذا المنزل، لا أستطيع الادعاء أني أعرف هذه الحديقة. أنت، بين كل الناس، لا يجب أن تطلبي مني أن آتي وأعيش في هذا المنزل. كانت نية والدي واضحة بالطبع: أن يستعيد ابنه المنبوذ إلى المنزل. لقد فهمت كل شيء. وقد جعلني ذلك أبكي تقريباً، لكني لم أتراجع عن كلمتي. كنت قد أعلنت لوالدي أني لن آخذ بيسا واحدة منه. على أي حال، سأحتفظ بالمنزل، وأدفع الضرائب المطلوبة، ومن جيبي الخاص. لكن ذلك، سأتصل بالسيد ميهتا في مكتبنا في كالكوتا غداً." "ويوم الاثنين ستحصل على الشحنة بكاملها. سأخبرك، لا تقلق، إلى اللقاء."

الكلمات الأخيرة كانت كلمات مندوب المبيعات. وظهر السائل الأحمر في الزجاجة تحت ضوء النيون. تلاشت الصورة ... خرج المندوب.

"آه" قلت لنفسي، "حتى اليوم، هناك من يضع الكلمة فوق الملكية. غريب التفكير في ذلك. هل المال وحده هو المهم؟"

تقدم الشاب نحوي "إذاً لن تحصل على هذا المنزل. هناك دعوى قضائية بين الشقيقين حول حق الملكية، ولذلك بقي مهملاً. ستعرف إلى من يؤول في النهاية فقط عندما يصدر حكم في القضية. وذلك يأخذ وقتاً طويلاً. تخلى عن أي أمل في هذا المنزل. الأخ الأكبر مدرّس في كلية، ويكتب في هذه الأيام عدداً من الكتب المساعدة وكتب التدريس. يريد أن يبني مطبعة هنا. إذا نشر كتبه بنفسه فسيحقق أرباحاً أكبر. يقال إن الأخ الأصغر ينوي إشادة بناء يؤجره. على أي حال، إذا كنت بحاجة لمنزل بشكل عاجل، فقد قيل لي إن هناك واحداً في لاشيت ناغار".

مصصت القطرات الأخيرة في الزجاجة، ووضعتها بشيء من القوة على الطاولة ووقفت هناك لوقت طويل أنظر بصمت إلى داخلها الفارغ.

□□□

نزهة مسائية

تأليف: بهابيندرا ناث سايكيا

■ ترجمة : رشا حداد ■

هنالك بضعة أشياء متوقَّع وجودها دائماً عند ذهاب سوميترا إلى السرير في المساء. فقد احتفظت قرب مخدّتها بِبيل كهربائي، ونظّارة للقراءة، وساعتها المعصمية، وعلبة أعواد ثقاب، ومنديل وكتاب. وإن حدث وفقدت إحدى هذه الحلي، فمن الثابت أنها ستعلم ذلك وغالباً بالغريزة، التي جعلتها تتفحص أغراضها كلها من جديد لتتأكد بنفسها. نعم، لقد وجدت أنها على حق بعد ذلك: فقد نسيت إحضار علبة الثقاب. وهي في هذه الحالة لا تزعج بوابها عند وضع الناموسية، فإنها تذهب بنفسها إلى المطبخ لإحضارها.

كما احتفظت أيضاً باتجاه رأس السرير وتحت الفراش الثخين بسكين طويلة، أو موس لقص الورق إذا أحببت أن تدعوه بذلك. فتأخذها أحياناً لتقوم بشيء أشبه بتشريح بقطينة كاملة. وتقوم سدىً بعد استعمالها بفحص حدّتها ومسحها لتجفّ ثم إعادتها إلى مكانها. حتى أنها ذهبت مرّة إلى مكتب المناوب لتنظيم رخصة المسدس، كما أحضرت صورة طلب رسمي أيضاً، لكنها لم تملأه إلى الآن.

يوقظها أحياناً في الليل صوت ضجة غير اعتيادية. فتتحول أفكارها مباشرة إلى موس قص الورق أو إلى الكتاب، وهذا يعتمد على نوع الصوت. إن كان صادراً عن العصافير الصغيرة المهتاجة في أقفاصها في الفجر الباكر، فهي لا تفكر بالسكين الحادة. لكنها عندما تستيقظ أحياناً بدون سبب معين، فإنها لا تهتم بالأشياء التي تحفظ رفقتها جانب السرير. لذلك فهي تسترجع في تلك اللحظات الأحداث

الممتدة خلال إحدى وأربعين سنة خلت أو خلال حياتها المؤلفة من واحد وأربعين صيفاً.

وإن لم تستمتع ببعض الذكريات التي لا تزال ترفض مغادرتها، فإنها تتذكر كتابها. ثم تذهب الأصابع بشكل أوتوماتيكي إلى تحوّل مفاجئ لجانب السرير حتى تصل إلى الكتاب.

في ذلك الصباح، وفي وقت مبكر جداً منه دفعتها برفقٍ إثارة مكبوتة من نومها الخفيف. شعرت بما يشبه رجلاً عجوزاً مضطرباً وقلقاً بشأن اللحاق بحافلة الساعة السادسة، أو ما يشبه مراهقاً في الصف التاسع مُثقلاً بمسؤولية تدبير اليوم التالي في المدرسة لساراواتي بوجا.

صارت سوميترا ترهف السمع. هل من طائر يصيح في مكان ما؟ لا، لا يوجد شيء. نظرت إلى الزاوية حيث التقاء السقف بالحائط لترى إنْ تسرّب أي ضوء من كوة الإضاءة في السقف. لا يوجد شيء بعد. ولم تشعر بشيء يشبه إشعال الضوء.

ثم رأت بعد تركيز بؤرة ضوء النيل على ساعتها المعصمية أنها تشير إلى الساعة الثالثة وخمس عشرة دقيقة، أو سبع عشرة دقيقة بالتحديد. فعلمت أنها لن تستطيع النوم مجدداً.

كان من عادتها القيام بنزهة صباحية، فهي تسير حوالي كيلومترين كل يوم عل الأقل. وقد لاحظت لو أن الوقت متأخر وكان حوالي الرابعة والنصف فسيكون الضوء مقبولاً للخروج. آه، لو كانت الساعة الرابعة وسبع عشرة دقيقة بدلاً من الثالثة، لنهضت بشكل فوري. لكنها لن تستطيع الآن إلا سحب غطاء السرير حتى عنقها والاستلقاء منتظرة.

خطرت على بالها فكرة منزلها الجديد، لقد كان يوماً عظيماً، فقد بني العمود الأول في الصباح. وأشرف محيي الدين مساء أمس على عاملين مستأجرين لبناء هيكل غريب الهيئة ذي أربعة عواميد حديدية، سيستخدم في نصب الدعامة. لم تفهم سوميترا أياً من هذه التعقيدات. واتفاقها مع محيي الدين كان واضحاً. فسوف يقوم بكل ما هو ضروري لبناء المنزل وهي سوف تزوّد بالمال. وهو الوحيد الذي لم يخدعها مستفيداً من وحدتها. لقد كان محيي الذين في يوم ما بنّاءً، والآن أصبح مقاولاً، ولم يقم بأي عمل يدوي هذه الأيام. فقد ارتدى منامة بيضاء وكورتا وساعة

معصمية ذات حجم كبير. وبانفعال ظاهر كان يهب لتقديم يد المساعدة مباشرة عندما يقوم وافد جديد عديم الخبرة بأخطاء متكررة. وخلافاً لذلك، كان يجلس في زاوية ظليلة يستمع لأغانٍ شعبيةٍ عبر المذياع.

كان مشغولاً منذ الشهر الأخير أو نحو ذلك بتحميل قضبان حديدية وآجر وحصى إلى زاوية أرض البناء. كما كان هناك أيضاً حظيرة صغيرة ذات سقف من القصدير لتؤوي الحارس الليلي ومئة من الأشياء الصغيرة اللازمة خلال البناء. كما انتهى أيضاً من تصميم حصان خشبي سيستخدم في ثني القضبان الحديدية. وكانت سوميترا تزور الموقع خلال الأسابيع القليلة الأخيرة لتشهد الاستعداد كل يومين خلال فترة بعد الظهر، ويناولها محيي الدين بشكل دائم في تلك المناسبات قطع ورقٍ صغيرة ذات أشكال وألوان غريبة، من المفترض أنها إيصالات. كان يوجد بينها قطع بحجم نصف ورقة اللعب. كان يمكن أن يكتب عليها شيء غريب مثل (روبيات جونا الإحدى عشر). وقد أخذت سوميترا النقود، متظاهرةً باستيعاب كل شيء، وتساءلت بطريقة العارف: (ماذا سنفعل غداً؟).

كان محيي الدين قد أحضر آنذاك مجموعة من المخطوطات الزرقاء للمنزل. لاحظت سوميترا في اليوم الأول أنه كان يتفحص المشروع المرسوم على الورق الشفاف من الجهة الخاطئة. ربما لم يعلم ذلك. صححت له سوميترا (لماذا تنظر إليها من الجهة المعاكسة؟ عليك أن تديرها للجهة الأخرى). لكن محيي الدين لم يبد أيّ إشارةٍ واضحةٍ عن ارتباكه. وقد قال متجاهلاً الاقتراح (إنها نفس الفكرة يا سيدتي! تبدو فقط غرف الجهة الشرقية كأنّها واقعة في الغرب. وخلافاً لذلك، ما الاختلاف الذي سيحصل؟).

تساءلت سوميترا (لكنك إن لم تنظر من الجهة الصحيحة. فكيف يكون باستطاعتك قراءة الرسائل؟)

قال (آه، لا مجال للكلمات كثيراً في نوعية عملنا. كنت أتساءل فقط لماذا يظهر المهندس هنا عشرين عموداً. فكما أرى، لو كانت أقل بعمودين سيكون العمل جيداً). وقد ناقشت سوميترا هذه النقطة مع المهندس المعماري الذي أعدّ المشروع. وبعد الإطلاع على التصميم من جديد، وافقها رغم كل شيء على إلغاء عمودين.

في ذلك اليوم بالتحديد، قرّرت سوميترا بأن محيي الدين إنسان خبير في عمله.

وهو من جهته قد رمى على الفور المخطط الذي كان آنذاك مُنجزاً تقريباً. في ذلك الصباح وفي الساعة الثامنة على وجه التحديد، حُفرت حفرة العمود الأول. وقد اتفق محيي الدين سابقاً مع كاهن يعرفه وقدم لـه سبعين روبية سُلفة، ليرعى إنجاز الطقوس الدينية وتمييز المناسبة المبشرة بالنجاح، وكذلك كل شيء ابتداءً من وضع قطعة صغيرةٍ من الذهب عند قاعدة العمود إلى لفّ قمته بقطعة قماش من اللون الأحمر.

وأمعنت سوميترا بالتفكير (هل عليها إيقاف العمل؟) إنها ولسبب ما لم تشعر بسعادةٍ كبيرة. فاحتمال بناء منزلٍ خاصٍ بها لم يبد محمّساً لها. هل عليها تغيير رأيها ولو الآن؟ وإن رغبت بذلك، عليها البقاء في البيت القديم لأربعين أو خمسين سنة أخرى. وبعد ذلك، لابد من ترتيب شيءٍ ما. ولم تكن قلقةً بشأنه الآن.

لفت سمعها صوت رقيق لعصفور. استدارت برأسها لتنظر إلى الزاوية العليا مُجدداً. نعم، لقد بزغ الفجر. ونهضت.

نادت برابها بعد حوالي خمس دقائق. كانت تلك الفتاة يقظة فعلاً، فقد كان نداء واحد كافياً لإيقاظها. وقد أوصتها سوميترا قبل مغامرتها، (أنا ذاهبة في نزهة. تعالي وأغلقي الباب أولاً).

كان الضوء كافياً في الخارج لرسم ظلال ما يحيط بك. وفكرت سوميترا ربما لم يكن أحد مستيقظاً في تلك الساعة إلا برابها، وهي نفسها والعصافير والصباح. كان الجو بارداً نوعاً ما فسحبت طرف الساري لتلفّه حولها. من بعيد كان الضباب والضوء الخافت يخلقان عالماً غامضاً. وحالما أسرعت سوميترا في سيرها أحست بوجود الندى على العشب الطويل من تبلل قدميها رغم ارتدائها صندلاً.

عند وقوفها على الطريق، نظرت أولاً إلى قطعة الأرض. كانت التلال الصغيرة من الرمال والحصى قد تجمعت مع القضبان الحديدية وهيكل الأعمدة، والصفوف المتلاحقة من القرميد قد استلقت باردةً في ضباب الصباح الباكر. لابد أن الرجل الذي أحضره محيي الدين يغط في نوم عميق داخل الحظيرة. لقد قدم لها في اليوم الماضي هذا الشخص (لونجي) بزي ملوّن وزوج من الأحذية ذات اللون الوردي، وقد أعلن بشكل فظّ (من اليوم، سيبقى هنا).

تردّدت سوميترا حول بقائها وقتاً أطول ليصبح الضوء كافياً؟ وعند عجزها عن

اتخاذ قرار، صارت تمشي جيئة وذهاباً على طول الطريق.

لابد أن الشرفة العالية ذات الدرابزون تقع هناك في تلك الزاوية. ويؤدي باب الشرفة إلى غرفة الاستقبال المميزة الخاصة بها. وقد وضعت في الجهة الشرقية من النافذة طاولتها الدراسية. وكذلك وضعت رفوف الكتب هناك. وكانت بابها تنام في الغرفة الصغيرة الملحقة. وبتلك الطريقة، ستكون كل منهما على مسافة مسموعة من الأخرى. أما الغرفة الوسطى في الطرف الآخر فتصلح لغرفة النوم. ويوجد خلفها غرفة المخزن. فقط ذلك الجزء من المنزل يظهر من الخارج. إنه منزل صغير ومرتّب. وإن أحسّت بالتعب من الجلوس في الداخل، فباستطاعتها الخروج إلى الشرفة والاسترخاء على الكرسي ذي الذارعين. لا، ربما لا يمكنها ذلك. فليس من اللائق، كونها امرأة، التمدد بهذا الشكل في مكان مكشوف. حسناً، ستجلس على كرسي عادي، ربما عليها سحب الكرسي من جانب طاولة الدراسة. ولكن ماذا ستفعل بهذا المنزل؟ وكيف تتعامل معه؟ نظرت سوميترا إلى المنزل. لقد خرجت منذ دقائق فقط من ذلك المنزل.

لقد تذكرت ذلك اليوم منذ شهرين، عندما كانت في سياق مناقشة التفاصيل المبدئية للمنزل مع محيي الدين. كانت قطعة الأرض حينها ممتلئة بالنباتات الصغيرة والشجيرات. وقد توقفت أمام المنزل سيارة جيب عند استغراقهما بالحديث. بقي السائق جالساً، بينما ترجل شخص من الجيب واقترب من المنزل. قرع الجرس. لاحظت سوميترا أنه ينظر إليهما بطريقة غريبة عند خروجه من السيارة، وقد واصل التحديق إليهما، بينما كان ينتظر الباب أن يُفتح. لم يكن في المنزل أحد. وقد عاد أدراجه عند إدراكه ذلك. وقد بدا أنه غيّر رأيه، عندما كان على وشك دخول سيارة الجيب، ثم اتجه نحوهما.

وقدّم نفسه قائلاً: ناماسكار! أنا نيرانجان دوتا. هل يمكنني التعرّف عليكم؟)

ردّت، (أنا سوميترا تشاودهري).

ردّ الشخص على الفور تقريباً، (لكن، طبعاً، لقد خمّنت ذلك حالما رأيتك. لم أرك من قبل. لكنني سمعت عنك).

التصق السؤال في حلقها، (كيف؟ ماذا تعرف؟).

لكنها لم تسأل. فوضح لها نيرانجان دوتا بنفسه، (عندما اشتريت قطعة الأرض

هذه. حاولت أن أكتشف مالك قطعة الأرض المجاورة، إنه ليس سوى فضول طبيعي قليلاً حول جيران المستقبل. فما رأيك؟).

ابتسم نيرانجان دوتا بأدب قبل أن يتابع، (في ذلك الوقت ذكر بعض الأشخاص اسم والدك، وعندما بدأت ببناء المنزل فيما بعد، علمتُ بأن هذه الأرض في الواقع تعود ملكيتها لك).

ردّت سوميترا باحترام بالغ، (نعم، لقد ورثتها عن والدي).

فتساءل، (هل تخططين لبناء منزل هنا؟).

حاولت سوميترا أن تكون مهذبة، (حسناً، أدرك هذا فالناس يقولون أن بناء منزلٍ يشكل إزعاجاً كبيراً وهو كافٍ لتحويل شعر الشخص إلى لون رمادي).

وفجأة، بدا أن مظهر شعر سوميترا الذي فقد بريقه قد أربك نيرانجان دوتا بشكل غير محدود. فتكلّم معها الآن، وكأنه التقى بها عدة مرات إلى حد ما.

وحاول أن يمنحها الثقة، (لا، عليك ألا تكوني قلقة بشأن هذا. فالناس يقولون دائماً مثل هذه الأمور. ولابد أنك رأيت المئات من البيوت في هذه البلدة، ولكن كم من مالكي هذه البيوت لديه شعر رمادي، أخبريني!).

صدرت من نيرانجان المزيد من الكلمات الداعمة. فلم تشعر بالقلق عند بدء العمل الذي تقدّم بشكل آلي. لأن المسؤولية كانت تقع على الشخص الرئيسي فقط الذي كان يُعتمد عليه. فهي على أي حال تسلم المسؤولية الأساسية للمقاول. ومن المفترض أن هذا الرجل، والمقصود هو محيي الدين، يجب أن يكون من المقاولين الكادحين.

نظر دوتا إلى محيي الدين ليخمن مقدرة الرجل، فلمس البناء القديم جبهته ملقياً التحية.

لقد صار دوتا الآن مسيطراً على الوضع كلياً. وقد عرض وبدون أيّ خجل تقديم المساعدة لسوميترا في أي شيء تحتاجه. عليها فقط أن لا تتردّد في طلبها. وأخرج بطاقة زيارة تحمل رقم هاتفه. لقد علمت بأنه مقاول. وبشكل رئيسي في إنشاء الجسور. ويطلق الناس عليه ممازحين رجل الجسور. ولذلك فهو يعلم ما يكفي عن صميم الموضوع في بناء البيوت. وقد وعد بأن يبقى على اتصال خلال تطور

العمل. ولكن على سوميترا أن تتصل به عندما تحتاج إلى شيء ما. وقد أصبح سائقه بهارات إلى حدٍ ما ذا خبرةٍ في خدمة جميع من حوله. فباستطاعته الآن تقديم الكثير من المساعدة لها.

ثم تغيّر اتجاه الحديث حيث توقفت. فقد تخطّت المستعمرة بحوالي سبعة أميالٍ شمالاً. إن تردّد سوميترا اليومي إلى تلك المسافة للإشراف على العمل يشكل بالفعل إجهاداً لها. لكن ليس بالإمكان تجنبه. لقد كان دوتا يتحدّث معظم الوقت فقد استهواه الموضوع. ثم صرح بعد وقت قليل، (أتمنى لو كنا التقينا منذ بضع أيام خلت. فأنا مالك هذا المنزل. وعزمت على شراء كوخ بعيد قليلاً عن صخب المدينة. وقد أجرته عندما أصبح مهملاً هكذا. ومن المفترض أن يخليه المستأجر في نهاية هذا الشهر. في الحقيقة، لقد أتيت اليوم هنا لمقابلته. وإن استطعتِ البقاء بعد مغادرته، فسأجد سهولة أكبر لأتفقد لك عملهم. لكن صديقاً لي قدم الأسبوع الفائت ليستفسر عن المنزل ويطلبه مني، وقد وافقت أن أعطيه إياه. يا للخسارة!).

بعد حوالي أسبوع، ظهر نيرانجان دوتا فجأة في منزلها. لقد كان واضحاً أنه يخطط بشكل ما لإلغاء الاتفاق مع صديقه. وبهذا، إن رغبت سوميترا فهي تستطيع الانتقال إلى هناك ريثما تنتهي من منزلها الخاص. ولم يتحدث عن الأجرة بل قال فقط وبشكل غير مباشر، (كما ترغبين) وغادر بعد ذلك. كان بناء سوميترا يبعد حوالي أربعة أميال عن مستعمرتها وعن قطعة الأرض أيضاً، وقد كانت المسافة واحدة. لذلك، وتبعاً لهذه الفكرة، لم يشكّل انتقالها إلى منزل دوتا المستأجر أي مشكلة. بل كان لديها ميزة قربها من الموقع. وهكذا كان من السهل اتخاذ القرار. وقد انتقلت مع برابها منذ أسبوعين.

بقي نيرانجان دوتا على اتصال خلال ذلك. وقد كان محيي الدين في الأسبوع الماضي يجد بعض الصعوبة في الحصول على نوع جيد من الآجر من السوق. فكتب نيرانجان دوتا شيئاً ما على قصاصة ورق وأرسلها إلى أحد الأشخاص الذي يدعى السيد س. ك. ساين. وفي المساء وصلت أمام المنزل شاحنتان محمّلتان بالآجر. لم يكن بالإمكان تمييز لون الآجر في الليل. لكن صوت رنينها عند التفريغ يقنع شخصاً غير خبير مثل سوميترا بأنها من النخب الأول.

توقف نيرانجان منذ يومين وهو في طريقه إلى مكان عمله، وسأل محيي الدين

عن مصدر حصوله على الإسمنت. ومن ثم حضر لمقابلة سوميترا ونصحها، (لا تدعيه يحضر الإسمنت من مصدر مجهول، لقد اشتريت لتوّك خمسة أكياس أو نحو ذلك لبدء العمل حالياً، وبعد ذلك، سوف نرى).

ثم تلقى تصريحاً من سوميترا بفحص المنزل من الخارج، واقتنع بعد فحصه للفناء الخلفي بأن المستأجر السابق قد حافظ على المنزل بشكل جيد.

جلس السائق بهارات في تلك الأثناء في الشرفة منتظراً كأساً من الماء كان قد طلبه من برابها. ثم وقف حال رؤيته رئيس العمال.

وجد نيرانجان دوتا وبنظرة خاطفة إلى ساعته المعصمية أن لديه بعض الوقت الضائع. ففكر بقضائه في غرفة استقبال سوميترا للثرثرة معها. حضرت برابها، دون أن تطلب منها ذلك، وهي تحمل فنجاناً من الشاي له، ولم تنسَ تقديم فنجان آخر لبهارات.

وفجأة، وكان نيرانجان دوتا قد انتهى لتوّه من الشاي، قفز وأخبرها، (لقد قرّرت عدم تأجير المنزل بعد مغادرتك إياه. سأبقيه خالياً، فلمَ القلق ما دمت في المنزل المجاور؟ لقد أصبح باستطاعتي المجيء إلى هنا من حين لآخر لقضاء بضعة أيام بهدوء، فما رأيك؟).

تطلّبت ردّة فعل سوميترا بعض الوقت، وكانت ابتسامتها غير واضحة.

لكن ابتسامةَ نيرانجان دوتا كانت مشرقةً عندما حيّاها مودّعاً. حضر نيرانجان دوتا ثانية البارحة، قافزاً من سيارة الجيب قاطعاً المسافة إلى المنزل بخطوات طويلة. ثم نادى من الشرفة متحمّساً (آنسة تشاودهري!) كانت برابها أول من خرج. وقد دعته للدخول إلى غرفة الاستقبال ولكن مع إلقاء نظرة سريعة على سيارة الجيب الواقفة خارجاً. ظهرت سوميترا بعد قليل فتحدث نيرانجان دوتا بشكل مباشر، (يا لك من إنسانة غريبة. إن نيشي تشاودهري صديق حميم فعلاً بالنسبة لي. وقد كنا متلازمين نوعاً ما لمدة سنتين وكنت موجوداً في الحفل الذي أقامه السنة الماضية عندما حاز ابنه على ثلاث رسائل في فحص الماتريك. لماذا لم تخبريني أنك الأخت الصغرى لنيشي تشاودهري؟).

لم تجب سوميترا لبعض الوقت، ثم ابتسمت بأدب وصححت له: (إنني أخته الكبرى. وكيف لي أن أعرف أنك تعرف أخي؟).

كان دوتا في تلك الأثناء يستمر بالنظر إليها لبعض الوقت. ثم سألها بصوت ضعيف، (هل قلت أخته الكبرى؟ هل تمزحين؟).

فردّت عليه بتأكيد، (ولمَ أمزح؟).

استمر دوتا بالوقوف غير مصدق ثم تحدّث تقريباً مع نفسه، (غريب! لن يصدق أحد هذا).

ثم نظر مباشرة إلى عينيها وقال بصوت عالٍ وكافٍ لأن تسمعه، (هذا صحيح، فمن الصعب أن يصدق. وأنا متأكد بأنني سأقتنع إذا أخبرتني أنك ما زلت تدرسين في الجامعة). وحالما أتمّ جملته اتّقد وجهه ببريق قرمزي.

قرّرت سوميترا الآن، بعد مسيرها جيئة وذهاباً لبعض الوقت، أن تذهب في نزهتها. كان الطريق مستقيماً لمسافة محددة، ثم ينعطف نحو اليمين، وكان انعطافه واضحاً منذ الآن. لاحظت سوميترا وجود قطعة من صفيحة حديد مطلية بالقصدير بحجم ورقة فولسكاب على مسافة قريبة ثُبّتت بعمود كهربائي، وقد أظهر اسم الطريق (راتنابورباث). لاحظت سوميترا عند وقوفها على المفترق الثلاثي أنه حتى ذلك الممر ينعطف بعد مسافة نحو اليسار. فقرّرت من باب التغيير اكتشاف الممر.

لابد من وجود حقل كبير في هذا المكان على مسافة غير بعيدة. تستطيع تمييز ذلك بنظرة نحو البيوت ومن خلال الممرات، وكانت الأشجار في بعض الزوايا عاليةً بعلو السقف. وفي زوايا أخرى ظهرت على شجرة جوز الهند مجموعة من ثمارها، وقد توقّعت أن يعني ذلك تقدّم سكان المنزل في السن. لقد دفعتها البيوت الصامتة القابعة بلا شعور في الصباح المتألّق جزئياً فجأة للدخول والتأكد بنفسها عمّا يفعله هؤلاء الناس في الداخل.

ذلك المنزل هناك يدعى (روباك بهاوان). من يسكن هناك؟ ومن هو روباك؟ هل هو اسم لصبي ما؟ لابد أنه المكان الذي ينام فيه والداه. أين ينام روباك؟

إن ذلك المنزل في تلك الزاوية قيد إضافة غرفة للسكن الرئيسي. وقد كانت كومة من الرمال ملقاةً قرب السياج، وقمة بعض أزهار السيوالي مكسوة بالبذور.

بدأ كلب شرس من المنزل الواقع على الجهة اليمنى بالنباح عليها. نظرت سوميترا نحو البوابة ذات القضبان المتشابكة. لا لن يستطيع الكلب أن يُحشر من خلالها. كان هناك ضوء في الممر المؤدي إلى الساحة الخلفية. ربما نيرانجان دوتا

يسكن في منزل مشابه لهذا المنزل.

آه، يا لـه من رجل! طويل ومرتّب ذو ذراعين قويتين. وتضفي بشرته الشقراء مسحة من اللون القرمزي. كم يبدو وسيماً. وثيابه مناسبة تماماً. عندما يبتسم يشرق وجهه بأكمله. وعندما يتحدث، فإنك تقف متسمّراً لأن الكلمات ترفض الخروج.

استمرت سوميترا بالمسير. كان هناك أمام منزل آخر ممر صغير يصعد بين السلالم. لابد أنه لدفع شيء ذي عجلتين. وما زالت تقف على الشرفة دراجة ذات دفع برجل واحدة. وتساءلت سوميترا من سيركب هذه الدراجة اليوم. هل هي لشاب؟ وهل تعانقه زوجته بذراعيها؟ هل فكّر فيما مضى أن تلك المرأة سوف تجلس يوماً ما وراءه بهذا الشكل متشبّثةً به؟ أو هل تخيّل فتاةً أخرى تجلس هكذا قريبة منه؟

يا له من موقف مؤلم.

ولن لِمَ سيكون كذلك؟

تابعت سوميترا مسيرها. وتوقفت حال رؤيتها نبتةً مزهرةً أمام منزل آخر. وفكّرت لماذا تتخذ الأوراق نفسها بريقاً من اللون الأحمر. يا لروعتها! وقرّرت أنّها لابد أن تزرع واحدةً من هذا النوع عند اكتمال منزلها.

حاولت سوميترا نسيان الحزن. لكنه أتى زاحفاً. لقد صار مديداً منذ بدأت تفكّر بتلك المشاكل. عليها منذ الآن أن تكون خارج نطاق مثل ذلك النوع من الحزن أو السعادة. كانت أيام العاطفة الممتلئة بالبهجة والمؤثّرة بشكل عميق قد انتهت الآن. وأمنيتها الوحيدة أن تمنع الحزن من الاقتراب.

كان طائر الساليكا، ذو اللون البني القاتم والمنقار الأصفر قد هبط من السلك العلوي واستقرّ على السياج. وبحركة غير واعية مدّت سوميترا عنقها من ناحيةٍ لأخرى لترى إن كان يوجد طائر آخر من نفس النوع. كم كانت تلك الأشياء الصغيرة في البداية تهمّها في وقت من الأوقات. كانت تعلم عند رؤيتها طائرين بأنها ستنعم بيوم ممتع، وذلك لأنها ستمضي اليوم برفقة صديقها الحميم بيبول بالطريقة التي تتوق لها. إن ذكريات تلك الساعات كانت كفيلةً بجعلها هادئةً وسعيدة طوال الليل. لكنها كانت كلّها ترهات! من كان يعلمها كل هذا الهراء؟ لقد مضى العديد من الأيام والليالي بسعادةٍ تامة، وكأن الآلاف من تلك الطيور قد ملأت أيامهما. لا، هذا لم يكن صحيحاً. فلم تكن طيور البشرى تلك لتقوم بشيء من أيام وئامهما. لقد كانت

تلك الأيام حيث كان بيبول يشغل كل لحظةٍ من حياتها . وكانت تمنحه كل لحظاتها.

ثم اقترح بيبول في يوم من الأيام، (لنذهب بعيداً لبضعة أيام . بعيداً عن أولئك الناس ونتمتّع برفقتنا معاً لبضعة أيام).

وفجأة، انجذبت أنظار سوميترا نحو امرأةٍ تقوم بشيء ما في الحديقة. لم تكن تتوقّع أي شخص مستيقظ في ذلك الوقت المبكّر. وقد رأت بعد اقترابها أكثر أن المرأة كانت تقتلع العشب البري النامي في قطعة الأرض المزروعة بالخضار. نظرت كل من المرأتين إلى الأخرى. لقد بدت المرأة بثيابها القطنية القديمة وقميصها الأصفر جميلةً ولطيفةً بصفاء كأنها أم.

تابعت سوميترا مسيرها أكثر. وتساءلت بهدوء: هل لتلك المرأة ابنة تكذب، وتقول إنها ذاهبة لقضاء بضعة أيام مع صديقها ثم تُخدع من رجل مثل بيبول؟ وهل وجدت ابنتها أيضاً أن الظلام يبتلعها بعد فراق دام ثلاثة أشهر أو ما يقارب ذلك؟ هل وصلت الفتاة إلى كره جسدها؟ وهل كان الألم الثقيل يطرق نهارها وليلها؟ وهل كانت تشعر بالاشمئزاز من العالم كله من تلك الأيام الجارحة؟

اتخذت سوميترا انعطافاً أيسراً فوصلت ثانية إلى الشارع الرئيسي. ورأت من بعيد رجلاً يعدو مرتديا بنطالاً قصيراً وقميصاً قصير الأكمام. وبعد وقت قليل كان على مسافة قريبة، فبدا لسوميترا فجأة أن من كان يركض بعيداً عنها هو بيبول.

واصلت سرعتها بالسير خلال مرورها بالبيوت النائمة. بعد أن هجرها بيبول، حبست نفسها في المنزل مدة سنة متعلّلة بالمرض. واستفادت من ذلك الوقت في تعليم نفسها درساً صارماً. حتى أصبحت بلا شخصية واضحة، وخالية من العواطف. وخرجت قوية بعد ذلك السجن الذاتي القسري.

بعد وقت طويل، وربما بعد سنتين من حصولها على العمل في الكلية، حضر والداها لزيارتها.

سألتها والدتها بنوع من القلق، (هل ستبقين على هذه الحال؟).

كانت سوميترا قويةً. وقد حذرت والدتها: (إن أردت التحدّث حول هذه المواضيع، فمن الأفضل لك عدم المجيء. فأنا لا أريد مناقشة الأمر).

لم يقترب والداها من موضوع وحدتها، بعد تلك التجربة. وقد ترك والدها قبل

موته، بقعة الأرض وخمسة وسبعين ألف روبية باسمها. ولابد أن المبلغ تضاعف إلى حوالي مئتي ألف روبية الآن. ولم تزعج نفسها بالسؤال عنه لمدة طويلة. وكانت تتساءل دائماً إن كانت تحتاج إلى المال من أجل البناء.

اعتادت أختها الصغرى أن تأتي وتقيم معها من حين لآخر في البداية، برفقة زوجها وفيما بعد برفقة أولادها، الاثنين، ثم الثلاثة. لم ترغب سوميترا بتدخل أحد في خصوصيتها، أو بمقاطعتها خلال ساعات الدراسة للتحضير لصفوفها. وكان الصبيان الكبيران مولعين باقتلاع الزهور. لم يقوموا بزيارتها في هذه الأيام. وأخيراً فُهمت تلميحات سوميترا الماكرة.

وكان أخوها نيشي ينزل عندها في بعض الأوقات، فيجلس معظم الوقت بهدوء، سائلاً عن صحتها ويغادر بعد تناوله كوباً سريعاً من الشاي. حين كان في زيارتها منذ عدّة أشهر خلت، تحدّثت معه عن رغبتها ببناء منزل. فإن جو المستعمرة قد أثار أعصابها، فسألها نيشي، (هل أعد لك تصميماً في مكتبي؟).

رفضت سوميترا العرض. فإن العديد من الشركات حاضرة للقيام بمثل هذا النوع من الأشياء. إذا كان بإمكان المرء استئجار خدماتهم، فلمَ عليه توريط الآخرين؟ ولم ترضَ بمساعدة أي شخص لها من باب الشفقة.

وكأن هنالك نقصاً فيما مضى بالمتطوعين لمساعدتها. فأحدهم أراد أن يُحضر لها كلباً من نوع بهوتيا من دارجيلينغ. وأحدهم أراد أن يأخذها في رحلة إلى كاتياكوماري. كان يوجد في آخر سبع وعشرين سنة على الأقل ألف شخص مستعداً دائماً لمساعدتها.

ثم هناك طالب لها في السنة الرابعة . ديفانتا . هل كان ذلك اسمه؟ لقد رجاها أن تعطيه دروساً إضافية في البيت، وأقسم أن لا ينساها طوال حياته لمساعدتها السخية. لم تكن سوميترا قلقة كثيراً، حول وعد الحياة بأكملها. بل كانت تركّز بدلاً من ذلك على تدريسه. لكنه تحوّل إلى شيطان. ففي ذات ليلة كان يتذمر من أنها ليست رقيقة بشكل كافٍ، وجافة مثل غصن وصارمة جداً.

فوبّخته سوميترا، (نعم، أنا صارمة وجافة وقاسية، والآن هل تسمح بأن تنصرف؟).

بعد هذا الحدث الهام، أُعيدت إحاطة السياج القصديري لبيتها بأكوام من

الحجارة عند الأمسيات. وقد فكرت بالواقع بإحضار مسدس بعد هذه الحادثة.

كانت سوميترا ممتنة طوال حياتها لشخص واحد فقط، إنه المشرف في كليتها، وكان في عمر والدها. فقد أحضر لها برابها. كانت فتاةً يتيمة، تعيش مع خالها. أخبرته سوميترا في البداية: (اسمع، لقد طلبت راتباً لها بقيمة عشرين روبية. وأنا سأدفع خمساً وعشرين روبية. لسأل خالها أن يفتح حساباً باسمها في البنك المجاور. وكل شهر سيودع المبلغ هناك، فأنا لا أحبذ أن يأتي الناس كل شهر لجمع المال أو بحجة أخذها إلى البيت لبضعة أيام).

تمّ الاتفاق بسهولة. وقد مرّت الآن إحدى عشرة سنة منذ أن قدّمت برابها للعيش معها. وكلاهما تعيش في شرنقتها الخاصة. والآن وصلت برابها إلى العمر الذي بدأت سوميترا فيه تعدّ طيور السالِكا .لترى إن كان الاثنان يجلبان السعادة والواحد يجلب الحزن.

رأت سوميترا بعد أن سارت مسافة ابعد أن الرجل الذي يلبس بنطالاً قصيراً قد عاد إلى هذا الطريق. وما هي إلا بضع دقائق ويعبر طريقها. حنت سوميترا رأسها بينما كانت تمشي على حافة الطريق. ورأت زوجاً من الأحذية القماشية وجورباً أبيض يتجاوزها وسمعت صوت ارتطام متقطَع. أقدام ضخمة. إن كان نيرانجان دوتا يقوم بالركض فربما سيصدر نفس النمط من الصوت.

وهكذا ظنّ نيرانجان دوتا أنها لا تزال شابة ويدل مظهرها على أنها طالبة جامعية! هل لديه عائلة؟ لا، إنّها لم تحاول أن تبحث في ذلك، قامته الرجولية وعيناه اللامعتان وضحكته العريضة حملت رسالةً خاصة لها.

لنفرض أنه أتى حقاً للعيش في بنائه الإضافي من وقت لآخر؟ هل سيخترق أحلام يقظتها بينما تكون جالسة بهدوء في شرفتها؟ وهل سيطرح سؤالاً من غرفة استقباله، (مساء الخير، آنسة تشاودهري! هل ستقدمين لي فنجاناً من الشاي؟).

تحوّل الفجر الآن إلى صباح مشرق. وفُتحت بعض النوافذ. عادت سوميترا مسرعةً في شوطها الأخير. وأحسّت بالدفء الوافر عندما مشت في شرفة منزلها والتي تخصّ في الواقع نيرانجان دوتا. وبينما كانت تنادي برابها، مسحت وجهها ورقبتها بطرف ساريها. وتناولت كرسياً إلى الشرفة، بعد أن فتحت برابها الباب، ثم جلست بشكل كئيب واستمرت بالجلوس لوقت طويل.

جاء محيي الدين مبكراً. وكانت سوميترا وبرابها تتناولان الشاي في ذلك الوقت. وتناول هو أيضاً الشاي الصباحي في الشرفة الخلفية. وحالما انتهى، اقتربت سوميترا منه مع رسم تخطيطي سريع للمنزل.

ولفتت انتباهه بقولها، (اسمع يا محيي الدين. انظر إلى التصميم من الجهة المعاكسة وابدأ البناء آخذاً بعين الاعتبار ذلك التصميم. وعندما تضع العمود اليوم لا تنسَ هذا).

بدا محيي الدين متردّداً بينما كان ينظر إليها.

اتخذت سوميترا لهجة المحاضرة في الصف، (لقد قصدت هذه الشرفة، وغرفة دراستي التي ستوضع الآن من ناحية الغرب. وهذا الاتجاه، على طول الغرفة الصغيرة سيكون من ناحية الشرق).

سمعت برابها عن تغيير الخطة حالما أتت لأخذ فنجان محيي الدين الفارغ. ترددت ثم قالت بصوت ضعيف، (لكن يا سيدتي، هناك في هذه الجهة حائط عالٍ، وهذا سيمنع الرؤية).

قالت سوميترا لمحيي الدين، (نعم، فقطعة الأرض تبعد مسافة سبعة أقدام عن الحائط نحو الغرب، والآن باستطاعتك الذهاب والمباشرة بالعمل).

كان من المفترض أن يأتي نيرانجان دوتا لمشاهدة صب العمود الأول، لكن المهندس الرئيسي استدعاه، والآن هما في طريقهما نحو الموقع. لكنه أرسل بهارات مع صندوق حلوى كبير، وعاد بهارات عندما أصبح العمود في مكانه بشكل ثابت.

جلست سوميترا عند المساء وحيدة في الشرفة. استدعت برابها لمرة واحدة وقالت لها، (هذه الجهة المواجهة للمنظر من هنا ستكون الغرفة الصغيرة. وباستطاعتك اعتبارها غرفة نوم لك).

□□□

... وتنازلت النجمة الكبيرة

تأليف: نا بارثا ساراتي

■ ترجمة : عبد الكريم ناصيف■

كان كل شيء مرتباً جيداً في ستوديو داخلي، وكانت النجمة **الشهيرة فيجايا نالبني** مركز الاهتمام هناك. الجميع، بمن فيهم المنتج والمخرج، **كانوا يلعبون** دور المقلّد المواظب لمزاجها، كئيبة كانت أم مرحة. وكان **عليهم أن يفعلوا ذلك**، وإلا فإن المبالغ الكبيرة من مئات آلاف الروبيات التي **أنفقت على الفيلم الذي** تقوم فيه بالدور الرئيس، ستضيع هباء. من يدري؟ فقد تلغي **العقد مسببة تأخيراً وخسارة فادحة.**

لكن، حين كان الجميع يضحكون حولها طوعاً أو كرهاً. بقي شاب، بكل وضوح صامتاً وعلى نحو يثير الغضب.

دع المزاح جانباً فحضور الممثلة الساحرة ذاته لم يكن له أثر عليه وذلك، بالطبع، ما جرح أناها . فإذا كان باستطاعة هذا الشاب، أن يتحمل الوضع ويكون لا مبالياً تجاه نجمة كبيرة، هل ينبغي التسامح معه؟

وهي النجمة الكبيرة ذات التأثير الطاغي التي إن رغبت يمكن أن تطوح به

خارج العمل بلمحة عين، فالإهانة تثقل عليها.

على أن الشاب لم يقم على الإطلاق بما يزعج مزاجها وحضورها على أي حال لكنه غدا هاجساً بالنسبة إليها. فراحت تمعن التفكير بسلوكه اللامبالي، متسائلة إن كان باترس كائناً بشرياً ضد . المزاج مثلما هي ساعة المعصم ضد الماء؟ ولكي تغيظه، عبرت عن ذلك بصوت عال مما أطلق ضحكاً مدوياً من كل من حولها. مع ذلك بقي الشاب هادئاً متماسكاً ليزيد أكثر وأكثر غيظ الممثلة. لقد كان، دون أن يفكر بالعريدة من حوله، مشغولاً بتصفح نص الحوار. ألقت الممثلة نظرة متفحصة عليه. إنه، بكل المواصفات، رجل وسيم، بأنف بارز حاد وشعر مقصوص مثل عنقود عنب قرمزي داكن حسن التنسيق أتراه أصغر منها بسنة أو سنتين؟ هي ليست متأكدة. وهكذا انطلقت أفكارها:

أتراه متعجرف مغرور؟ ألم يكن مهذباً ولطيفاً مع الجميع في الاستوديو؟ لماذا إذن يبدي لها الازدراء وحدها؟ الآخرون يجاملونها، يطرونها، فلماذا هو لا؟

حتى كنوع من المجاملة، لم يكن يضحك على نكاتها مع الآخرين، فلماذا يتصرف على هذا النحو الغريب؟ بل بدا وكأنها غير موجودة مطلقاً بالنسبة إليه. لكن بالنسبة إليها، كان الشاب مصدر إزعاج حقيقي، وعبئاً ثقيلاً على أفكارها، فشاب وسيم لا يحمر خجلاً بحضور فتاة أحلام كممثلة مثلها، لغز محير بالنسبة إليها. لحظة واحدة على ما يبدو لم يفكر بأن ممثلة قوية مثلها يمكن أن تسبب له الطرد. بعدئذ سألت مدير الإنتاج: من هو؟ ذاك الغريب جداً، النكد المزاج جداً؟ أراد مدير الإنتاج أن يهدئها فسألها بكثير من القلق "أأساء التصرف معك يا سيدتي؟ "لا، لا" قاطعته فيجايا ناليني" لا شيء من ذلك القبيل. إنه يبدو رزيناً إلى حد غريب ووجهه بمنتهى الهدوء والرواق".

"ألا تعرفين؟ إنه مساعد كاتب . النص، رجل متعلم . جيداً. لعل تلك هي طبيعته فقد كان أيضاً أستاذاً في إحدى الكليات بعض الزمن. ولأنه لم يتعلم كيف يعيش "مثل العالم"، واجه المشاكل. إنه صريح جداً. يقول عن الرفش إنه رفش.

فكيف تراه يرتقي؟" سخر مدير الإنتاج.

"اسمه؟"

"أزها جيا نامبي"

بعد أربعة أو خمسة أيام، كان ثمة تصوير خارجي في نوفالام قرب مدراس. خلال ساعة الغداء تناولت ناليني وجبة منزلية طيبة ساخنة في ناقلة . غداء كبيرة. فعرضت على نامبي طبقاً من الطيبات المصنوعة منزلياً تتضمن قطعة فروج مشوي. ورغم أن الآخرين كانوا يتوقون لأكل ما تعطيهم إياه ناليني، فقد رفض هو ذلك بفظاظة قائلاً: إنه جاء بطعام من المنزل. ولكي يسرها المنتج الذي قبل الطبق المرفوض، بكل احترام، قال لها: "سيدتي، ليس الكل سعداء حظ في أن تخدمهم سيدة مثلك". ثم راح وهو يأكل، يكيل المدائح للاستعدادات العالية علو السماء فيما كان ازهاجيا نامبي يتناول طعامه في ركن آخر.

وفي حين كان الجميع يأكلون ويضحكون على كل نكتة من نكات ناليني، كما هي العادة كان نامبي يبدو متجهماً كجزيرة صخرية وسط أرخبيل من مرتزقة يقصفون ويعربدون.

ثم بعد وجبة مقتصدة، أخذ النص من جديد واستلقى تحت شجرة، فسألت ناليني كاتب النص بصوت عال وفي نيتها إسماعه: "هل مساعدك أطرش؟" "لا، بالتأكيد، إنه من نمط محترم. جدي انطوائي لا يميل للتباسط مع أي واحد، ربما، ذلك هو خطأ تربيته". فأثار ذلك الجواب انطلاقة ضحك أخرى من كل من حوله.

على أن فيجايا ناليني كانت مغتاظة كل الغيظ من سلوك الشاب الذي لم يلحق به أي كدر على الإطلاق، وظل يشكل عبئاً على ذهنها كما في الأيام السابقة. فيما كان أولئك المرحون الضاحكون، أمامها تماماً، خارج ذهنها بالحقيقة وعلى نحو غريب جداً. اتبعده عن ناظريها كي تطرده من ذهنها؟ أتطلب طرده مباشرة؟ لا، لن تفعل ذلك، هي لا تفكر بذلك، هي، بالحقيقة، لم ترد إيذاءه، بل بالأحرى أرادت أن تناور عليه. التشويه، طبعاً، والإيذاء يختلف عن المناورة. فما

يهم ليس إطلاق النار على الأسد وقتله بل صيده ووضعه في قفص ثم القول إنه جديد مشتهى، فهل تغزوه إذن؟

بعد يومين أو ثلاثة، التقت ناليني بنامبي، وهما يدخلان إلى الطاقم من ممر ملحق التبرج. كان الممر خالياً ولا أحد في الجوار، وكانت تلك فرصة مناسبة لشن هجوم عليه، فكرت ناليني.

دون وعي لفت بيدها شعره المقصوص،ثم همست في أذنه بنبرة مرخمة "سيد نامبي، لماذا أنت غاضب مني؟" حرر نامبي، وبكل لطف، شعره من يدها ثم سأل" ما الذي تفعلينه؟ ماذا سيفكر الآخرون بنا؟"

"الآخرون؟ أنا لا أهتم أدنى اهتمام. والآن أجبني. بل لن أتركك حتى تقول لي لماذا أنت لا مبالٍ بي؟ لماذا غاضب؟"

"يا للسخف! لماذا ينبغي أن أكون غاضباً منك؟ أو من أنا كي أفعل ذلك؟

"لماذا إذن لا تضحك على نكاتي؟"

" لم أشعر بالميل لذلك"

"الآخرون شعروا"

"أنا لست ذلك الرخيص"

"أتعني أن نكاتي بليدة جداً؟"

"بالنسبة إلى الآخرين قد تكون جذلة مرحة."

"لكنني لست من تسر كثيراً حين يضحك الآخرون. ما يؤلمني كثيراً أنها لا تسرك أنت".

"الأمر كذلك. إذن أنا آسف غاية الأسف آنسة فيجايا نالبني." لقد توفرت لديه الجرأة كي يخاطبها باسمها، بينما كان الجميع ينادونها بكلمة "سيدتي". مع

ذلك لم تشعر بأنها إهانة بل هي بالحقيقة، احترمته أكثر وأكثر بسبب ذلك. ثم غادرا، إثر تلك الدردشة السريعة المختصرة، إلى شغلهما بين الطاقم.

استغرق التصوير ذلك اليوم وقتاً أطول من المعتاد، إذ كان على نالييني أن تلعب دوراً مأساوياً وقد فعلت ذلك بشكل يستدر الدموع، مما أثار دهشة الجميع للأداء الرائع الذي قدمته النجمة الكبيرة.

عند فرصة الغداء، تفرق الطاقم، ليظل فقط نالييني، نامبي، المخرج، المنتج، والكاتب.

وكالعادة، حثها المنتج "هيا سيدتي. لقد أديت اليوم دورك المأساوي بامتياز. أنت وحدك من يستطيع تأديته بتلك الطريقة. وأنت وحدك تستطيعين إنعاشنا بشيء من الهزل، هيا، امضي قدماً بنكاتك المرحة".

نظرت نالييني نظرة طويلة عميقة إلى نامبي الذي أراد أن يتملص مبتعداً ثم قالت: "نكات! أنا آسفة، لا أشعر بأية رغبة في إلقاء أي نكتة".

وجاء الجواب ترييثة من المخرج "لا يا سيدي، السيدة ليست في مزاجها المرح. دعنا ننهِ بقية المخطط ثم نرحل".

وحين كان الجميع على وشك المغادرة، دنت نالييني من نامبي راجية إياه أن يبقى، فاتحة له كرسياً مطوياً بجانبها، ولكي لا يجرح مشاعرها أكثر، جلس نامبي إلى جانبها.

"مسرورة أم منزعجة؟" . لم تستطع نالييني أن تعرف بنفسها رد فعلها تجاه ذلك الحضور الآسر إنما الصامت لنامبي،اللغز، إنه موجود وجوداً طاغياً، فهل انتصرت عليه؟ أم تراه يمكن أن يكون خارج اللعبة؟ ولكونها أخفقت تجاهه، وجدت نفسها في مأزق يفوق الوصف.

مترجمة بالأصل عن التامبل

□□□

